بول فيرابند

ثلاث محاورات في المعرفة

ترجمة

د. محمد أحمد السيد

الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية
جلال حزى وشركاه
٤٤ شارع سعد زغلول الإسكندرية - تليفون / فاكس ٤٨٣٣٣٠٣

ثلاث محاورات

فى

المعرفـــة

تأليف

بـول فيرابنـد

ترجمة

د. محمد أحمد السيد

مع دراسة حول

نسبية المعرفة العلمية عند بول فيرابند

الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزى وشركاه
٤٤ ش سعد زغلول الاسكندرية تليفون/فاكس : ٤٨٣٣٣٠٣ – ٤٨٤٣٦٦٢

١

نسبية المعرفة العلمية عند بول فيرابند

مقدمـــة :

توفي بول فيرابند في فبراير عام ١٩٩٤ عن عمر يناهز سبعين عاما بعد أن عاش حياة حافلة ملأ فيها الدنيا وشغل الناس. وقد اكتسب فيرابند شهرته التي طبقت الآفاق من نزعته النسبية أو بالأحرى الشكية في قواعد المنهج العلمي المتعارف عليها. وإذا كان الفلاسفة يتسامحون أحيانا مع النزعات النسبية في مجال الميتافيزيقا بل وحتى الأخلاق والدين، فقد كان من الصعب عليهم أن يقبلوا ذلك في مجال العلم.

وربما كان من المناسب أن أصارح القارئ بأنني ترددت بعض الشيء في الكتابة عن فيرابند ، فهو يهاجم المنهج العلمي و العلماء هجوماً ضارياً ، بل ويهاجم فكرة العقلانية ذاتها ، ويدافع – أو هكذا يبدو – عن التنجيم والسحر والأسطورة واللاعقلانية دفاعاً مجيداً ؛ وهي أمور تؤدي إلى البلبلة وسوء الفهم خاصة في ظل المناخ الفكري السائد في بلادنا والذي لا يحتمل ترف مثل هذه المناقشات. فقد يتسرع القارئ ويضع فيرابند ، والمدافعين عنه ، في خندق واحد مع المشعوذين والرجعيين واللاعقليين. غير أنني أعتقد أننا إذا تجاهلنا أفكار هذا الفيلسوف المبدع فإننا نتجاهل جانباً هاماً ومؤثراً من النقاش الدائر في مجال فلسفة العلم هذه الأيام. كما أعتقد أن القراءة المتأنية لأعمال فيرابند سوف تظهر لنا أنه باستثناء نسبة بسيطة من عباراته التي يغلب عليها الطابع الخطابي واللجوء إلى استخدام شعارات رنانة مدوية ، فإن جزءاً لا يستهان به منها يعد من قبيل الحجج والبراهين والتوضيحات.

ولا يعنى هذا القول أننى سأدافع عن كافة آراء فيرابند ، أو حتى معظمها ، وإنما يعنى أننا نستطيع أن نقبل هجوم فيرابند على العلم والعلماء باعتباره هجوما (علاجيا) لأمراض فلسفة العلم ، وهو أمر أشار إليه فيرابند نفسه فى أكثر من موضع من كتاباته.

وسأحاول فى هذا البحث أن أدافع عن فكرة تتعارض مع ما هو شائع عن هذا الفيلسوف. فالمعروف عن فيرابند أنه يزعم دائماً أنه لا يقبل أية قواعد منهجية ، وأن لا مكان للأفكار المنهجية التقليدية كالموضوعية والعقلانية فى فلسفته ، غير أننى أزعم أن هناك بعض القواعد المنهجية التى يأخذ بها فيرابند بل ويدعونا إلى تبنيها ، وأهم هذه القواعد مبدأ وفرة النظريات ومبدأ التشبث. كما أن فيرابند يتحدث أحيانا عن إتاحة الفرصة أو السماح للنظريات العلمية بمساحة للتنفس ، إن صح التعبير. وسأحاول أيضا أن أعرض ما أظنه التفسير الصحيح لفلسفة فيرابند ، والذى يتمثل فى رد هذه الفلسفة إلى مصادرها الحقيقية المتمثلة فى :أثر فيرابند بتراث شكاك اليونان خاصة بروتاجوراس.

وقد اخترت أن أقدم نموذجاً لكتابات فيرابند من خلال ترجمة أحد أعماله. وقد قمت بترجمة كتابه "ثلاث محاورات فى المعرفة". وقد اخترت هذه المحاورات لأقوم بترجمتها إلى اللغة العربية لأسباب عديدة أهمها أنها تعبر عن آخر آراء فيرابند فى فلسفة العلم بكل جوانبها المعرفية والمنطقية والاجتماعية والسياسية ، إذ أن هذا العمل هو آخر ما نشر فيرابند قبل وفاته. كما أننى أعتقد أن اختيار طريقة المحاورات فى الكتابة الفلسفية مناسب جدا فى عرض الحجج الفلسفية بصورة مباشرة لا تثير الملل لدى القارئ وتفتح آفاقا رحبة غير متوقعة أمام المؤلف. فكثيرا ما يتوجه الناس ، ومن بينهم المتخصصين ، باللائمة على الفلاسفة لاستخدامهم أساليب غامضة وعبارات

جافة ولغة صعبة جامدة للتعبير عن المشكلات الفلسفية. ولا يستطيع المـــرء إلا أن يتعاطف أحيانا مع هذه الشكوى. ومن هنا لاقت كتابات بعض الفلاسفة التي جاءت في صورة عمل أدبي كالرواية أو المسرحية أو القصيدة الشعرية نجاحاً ملحوظاً وانتشارا واسعا. غير أن هناك مشكلة تواجه هذا اللـــون مـــن الكتابة. فالكتابة ذات الطابع الأدبي سواء جاءت في صورة رواية أو مسرحية أو قصيدة تظل عاجزة عن التعبير عن مشكلات فلسفية ذات طـــابع نسـقي منظم ، أو عن مشكلات ذات طبيعة منطقية ، ينتقل فيها الكاتب من مقدمـــات إلى نتائج ويناقش قواعد محددة تجور على البناء الفني للعمل الأدبي. ولك أن تتخيل هيجل يحاول أن ينظم نظريته في التاريخ والمطلق فـــي قصيـــدة ، أو كانط يحاول أن يسرد الاختلاف بين عالم الأشياء في ذاتها وعالم الظواهر في رواية ، أو برتراند رسل يشرح تطور المنطق والرياضيات فـــي مســـرحية! غير أن المحاورة يمكن أن تفي بكل هذه الأغراض مجتمعة. ففي المحـــاورة يستطيع الفيلسوف أن يعرض أفكاره على لسان المتحـــاورين فـــي صـــورة مقتضبة أو مطولة ، بطريقة مباشرة أو غير مباشـــرة. ويســتطيع أيضـــا أن يعرض للمذاهب أو الأفكار المختلفة مؤيدا أو مفنداً ، دون اللجوء إلى الكتابة الجافة المباشرة ، بل يستطيع أن يستخدم بعض التعبيرات الأدبية التي تضفي على العمل جواً من الألفة والتشويق الذي كثيرا ما نستشفه من رغبة القارئ في معرفة ما انتهى إليه الحوار بين المتحدثين. كما تتميز المحاورات أيضـــا بأنها بالإضافة إلى قدرتها ، في معظم الأحيان ، على عدم إثارة ملل القارئ، في أنها تمكن المؤلف من شرح أفكاره في تسلسل منطقي مهما كانت الحجج المستخدمة طويلة أو معقدة ، وهو أمر يصعب تطبيقـــه فـــي المســـرحية أو الرواية دون إثارة ملل القارئ أو المشاهد أو التضحية بالعناصر الفنيـــة فـــي بناء العمل الأدبي.

وعلى الرغم من مزايا المحاورات التى أشرت إلى بعضها إلا أن هناك بعض المحاذير التى ينبغى أن نكون على وعى بها عند قراءة المحاورة. لعل أهم هذه المحاذير هى أن المؤلف يتحدث عادة بلسان الجميع دون تحديد. فهو يتحدث تارة عن نفسه ، أى عن أفكاره الشخصية ، وتارة أخرى عن آراء المعارضين. وتكمن المشكلة فى أنه قد يختار من بين آراء المعارضين ما يسهل تفنيده أو الرد عليه ، وقد يترك ، بقصد أو غير قصد ، حججا قويه لها وجاهتها دون إجابة أو عرض. ومن المشكلات الأخرى التى تواجه المحاورة كأسلوب فى الكتابة الفلسفية هو عدم وجود خط واضح بين الحقيقة والخيال. فالكاتب كثيرا ما لا يصرح بأنه أحد الأشخاص الممثلين فى المحاورة ، كما لا نعرف على وجه الدقة هل يعبر عن أفكاره أم لا. لقد تكررت مثل هذه المشكلات مع أفلاطون كما نعرف جميعا ، وسوف يجد القارئ أن هذه المشكلات تتكرر أيضا مع فيرابند. فعلى الرغم من زعم فيرابند بأنه ليس الشخص الأساسى فى المحاورة الأولى ، إلا أن القارئ سيدرك بعد قراءة بعض سطور منها أن " دكتور كول" فى المحاورة ليس سوى بول فيرابند نفسه.

بقى أمر أخير أريد أن أنبه القارئ له ، وهو أن فيرابند لا يلتزم كثيراً فى كتابته للمحاورات بالطريقة المتعارف عليها فى الكتابة الأكاديمية ، فهو يتحدث أحيانا دون توقف ودون مراعاة لأصول الكتابة من وقفات وفصلات وفقرات وغيرها ، كما أنه يميل كثيرا للغموض فى عرض أفكاره. ولعله يقصد ذلك بالطبع ، فهو فى دعوته للتحرر من قيود المنهج العلمى وغيره من القيود أراد أيضا أن يحرر نفسه حتى من القيود التقليدية فى الكتابة رافعا شعاره المعروف "كل شئ يمر".

لقد كان فيرابند واحداً من أكثر الفلاسفة إثارة للخلاف في مجال فلسفة العلم. بل لعلني أقول أنه من أكثر الأشخاص الذين لاقوا ردود فعل متباينة ومتعارضة في تاريخ الفلسفة برمته ، فقد امتدحه البعض امتداحا شديداً ، وكان من بين المقرظين علماء مرموقين وفلاسفة يشار إليهم بالبنان، باعتباره فيلسوفا مجدداً له رؤية ثاقبة غير تقليدية في تاريخ وفلسفة العلم. كما انتقده الكثيرون ، عن علم أو جهل ، باعتباره ألد أعداء العلم. ورفض الكثيرون أفكاره باعتباره دجالاً مشعوذا يدعونا إلى العودة إلى قرون الظلام والتخلف. وأحبه أيضا الكثيرون لنزعته الإنسانية واستقلاله الفكري وتعاطفه مع أصحاب الثقافات المستضعفة أو الهامشية. وكما أحبه الكثيرون فقد مقته الكثيرون أيضا لنزعته النسبية ونقده اللاذع وعباراته النقدية المؤلمة. وليس من شك في أن كل هذه الأمور تضمن النجاح لأى أستاذ بصفة عامه ولأستاذ الفلسفة بصفة خاصة .[١]

وقد أنهى فيرابند قبيل وفاته بفترة قصيرة سيرته الذاتية التي كتبها وهو في المستشفى بعنوان قتل الوقت Killing Time ، والتي ستصدر قريباً للقارئ باللغة الإنجليزية.

وسوف أحاول في هذا البحث أن أعرض لأهم أفكار فيرابند مع محاولة تقييم هذه الأفكار في محاولة للإجابة عن طبيعة فكر هذا الفيلسوف المحير الذي اختلف حوله الكثيرون وتأرجحت مشاعري الشخصية أمامه بين الحب والإعجاب والتحفظ !

أولا: مدخل لدراسة فلسفة فيرابند

ولد فيرابند فى فيينا عام ١٩٢٤. وبعد أن أكمل المدرسة الثانوية التحق بالجيش الألمانى ، وقد أصيب عام ١٩٤٥ أثناء الحرب العالمية الثانية برصاصة فى العمود الفقرى أصيب بعدها بشلل فى الجزء الأسفل من جسمه تسبب فى عدم مقدرته على السير بقية حياته إلا بمساعدة عصا يتوكأ عليها. وقد التحق فيرابند بمعهد فيمار Weimar فى ألمانيا حيث درس الإنتاج المسرحى وتاريخ المسرح والغناء. وكان اليساريون يلعبون فى ذلك المعهد مسرحيات بريخت حيث يقوم المشاهدون بعد انتهاء العروض بمناقشة وتقييمما شاهدوه. ثم درس فى الفترة بين عام ١٩٤٦ – ١٩٥١ التاريخ والفيزياء وعلم الفلك. واشترك فى تلك الآونة فى تأسيس نادى للفلسفة تحت اسم " دائرة كرافت" نسبة إلى فيكتور كرافت أحد أعضاء دائرة فيينا Vienna Circle المعروفين. وقد قابل فى تلك الآونة أيضا الفيزيائى المنشق فيلكس إهرنهافت Flix Ehrenhaft وانبهر بكتاباته ورغبته الشديدة فى اتخاذ موقف غير تقليدى يغاير ما هو سائد فى علم الفيزياء. وكانت له أيضا اتصالات بالعالم والفيلسوف المعروف فيليب فرانك Philipp Frnnk ، وتقابل أيضا مع الفيلسوفة الإنجليزية اليزابيث أنسكومب Anscombe ، التى كانت تدرس اللغة الألمانية توطئة لترجمة بعض أعمال فتجنشتين. وقد تأثر فيرابند منذ تلك الآونة بفكرة فتجنشتين التى يذهب فيها إلى أن المبادئ العامة المقبولة قد تتغير من جيل إلى جيل ، بل وقد يعتورها تغير جوهرى من لغة إلى أخرى ومن ثقافة إلى ثقافة.

وقد حصل فيرابند على درجة الدكتوراه عام ١٩٥١ ، وبعد فترة قصيرة قضاها فى دراسة فلسفة العلم فى كوبنهاجن وستوكهولهم وأوسلو

سافر إلى إنجلترا عام ١٩٥٢ ليدرس مع كارل بوبر في مدرسة لندن للاقتصاد والسياسة المعروفة. London School of Economics وكانت خطته الأساسية قبل ذلك أن يدرس مع فتجنشتين الذى رحل عن الحياة قبل ذلك بفترة وجيزة عام ١٩٥١.

وقد انبهر فيرابند بكارل بوبر منذ أن قابله أول مرة عام ١٩٤٨، وهو يخبرنا أن فكرة أو مبدأ القابلية للتكذيب Falsifiability Principle ، وهى الفكرة المحورية فى فلسفة بوبر ، كانت تؤخذ فى دائرة كرافت ، التى أسسها فيرابند ، كفكرة مسلم بها دون نقاش. غير أن هذا الانبهار بفلسفة بوبر لم يستمر طويلاً بل تعرض لتغير درامي فيما بعد ، حتى أننا نستطيع أن نقول أن جانبا كبيرا من فلسفة فيرابند أضحى يتعلق بدحض أفكار بوبر حتى وصل به الأمر إلى اعتبار تلك الفلسفة أكبر عائق أمام تقدم العلم. ثم حصل على إجازة من جامعة بريستول Bristol بإنجلترا درس فيها فلسفة فتجنشتين وميكانيكا الكم. ويعبر فيرابند عن أفكاره فى تلك الأونة بعبارات تنم عما ستؤول إليه هذه الأفكار فى المستقبل:

> **لقد اكتشفت أن مبادئ الفيزياء الهامة تقوم على افتراضات منهجية يتم تجاوزها مع تقدم علم الفيزياء ، فالفيزياء وإن كانت تستمد سلطتها من تلك الأفكار ، غير أنه لا يؤخذ بها أبدا أثناء البحث الفعلى.**
>
> **(Oldryod,1986,P.335)**

وقد رحل فيرابند بعد ذلك إلى بيركلى بالولايات المتحدة الأمريكية ليعمل أستاذا بجامعة كاليفورنيا ، واستقر به المقام هناك حتى تقاعده عن العمل عام ١٩٩٠. وهناك أخذ يكرر مجموعة من الأفكار ظلت حتى نهاية

حياته العمود الفقرى لكتاباته ، حيث بدا ناقما على النظام التعليمى الغربى منذ البداية:

> **لقد كانت وظيفتى تتلخص فى أن أنفذ السياسات التعليمية لولاية كاليفورنيا وكان ذلك يعنى أن أقوم بتلقين الناس ما تعتقد شرذمة من المثقفين أنه المعرفة. ولم أفكر بعمق فى مهام تلك الوظيفة التى ما كنت آخذها مأخذ الجد لو علمت بها.(Feyrabend, 1968, P.118)**

ولقد تقلد فيرابند مناصب علمية عديدة ، كما عمل فى أماكن كثـيرة منها ، على سبيل المثال ، مينابوليس Minneapolis ويل Yale بالولايـات المتحدة ، وأوكلاند بنيوزيلندا ، وبرلين ولندن ، وكسل Kassl بألمانيا. وظل يشغل منصب أستاذ الفلسفة بجامعة بركلى بالولايات المتحدة ومعهـد ETH بزيورخ بسويسرا فى نفس الوقت حيث ظل يدرس بالجامعتين صيفاً وشـتاءاً من عام ١٩٨٠ وحتى تقاعده عام ١٩٩٠.

اكتسب فيرابند شهرته الأولى المبكرة عن أعماله فى فلسفة الفيزياء ، خاصة ميكانيكا الكوانتم. وقد كان واحداً من أوائل الفلاسفة المحترفين الذيـن عالجوا مفهوم التتمة[٢] عند بور Bohr's notion of complementarity ولم يهتم فيرابند كثيرا فى بدايات دراساته بتاريخ العلم ، وإنما اهتم ببعـض المشكلات التقليدية من قبيل التمييز بين الحدود النظرية وحدود الملاحظات ، ومشكله العقل والجسم ، ومشكلة إمكان صياغة المذهب الامبريقى بصـورة متسقة. أما أهم بحث نشر له فى تلك الفترة فهو المقال الذى نشر لـه عـام ١٩٦٢ والذى تحدث فيه عن مفهوم اللاقياسـية incommensurability ، والذى استخدمه للرد على أصحاب النزعة الرديـة reductionism[٣] التـى سادت آنذاك بين فلاسفة العلم.

ويمكنني القول أن جانباً كبيرا من الأفكار التي سادت عن مفهوم اللاقياسية في فلسفة العلم خاصة عند **توماس كون وإمري لاكاتوش** Lakatos وغيرهما يرجع الفضل فيها في واقع الأمر إلى أفكار ومعالجات فيرابند المبكرة في هذا الموضوع. وقد شرع فيرابند بعد ذلك في كتابة عدة أبحاث يروج فيها لفكرة وفرة أو تعدد الأفكار proliferation of ideas ، وهي أحد الأفكار المركزية في فلسفته ، كما سيتبين لنا.

ويعتبر كتاب "ضد المنهج : خطة لنظرية فوضوية في المعرفة "، والذي نشر للمرة الأولى عام ١٩٧٥ أهم أعمال فيرابند. وقد كان في نية فيرابند أن يقوم بعرض أفكاره الأساسية في مجال فلسفة العلم في هذا الكتاب، ثم يقوم **لاكاتوش** بالرد عليها في نفس الكتاب ، غير أن الوفاة المفاجئة للاكاتوش أحالت دون إتمام ذلك المشروع. وقد جاء هذا الكتاب ليعيد الحيوية إلى المجال الضيق لفلسفة العلم وليضفي عليها طابعاً جديداً غير مألوف أو مسبوق .

وقد ترجم ذلك الكتاب إلى حوالي سبع عشرة لغة حتى عام ١٩٩٤ ، وصدرت عنه طبعتين منقحتين عامي ١٩٨٨ وعام ١٩٩٣ ، غير أن أفكار فيرابند في هذا الكتاب أثارت حفيظة الكثير من المشتغلين بالعلم والفلسفة معا. ولعل أشد نقد تعرض له فيرابند جاء من جوزيف أجاسي Agassi الفيلسوف اليهودي المعروف ، والذي لا يخلو نقده لفيرابند ، في تقديري ، من أسباب غير موضوعية مرجعها بعض تلميحات غير محددة وجريئة من فيرابند قد يفهم منها تعاطفه مع بعض أفكار هتلر أيام الحرب العالمية الثانية[٤].

يتكون كتاب "ضد المنهج" ، من جزئين أساسيين : يعالج الجزء الأول قضايا ابستمولوجية ومنطقية ، أما الثاني فيتعلق ببعض النتائج السياسية والاجتماعية المترتبة على الجزء الأول ، وهو اتجاه يندر أن تجده عند من

يكتبون فى مجال فلسفة العلم. ويكفى أن أقول لك ارجع إلى كتابات **ريشنباخ** أو **كون** أو **كارل همبل** أو غيرهم فلن تجد ارتباطاً وثيقاً بين كتاباتهم فى فلسفة العلم و كتاباتهم فى المجالات الأخرى ، أو لن تجد نتائج سياسية أو اجتماعية أو بيئية تترتب على كتابتهم فى فلسفة العلم. بل حتى كارل بوبر أو **برتراند** رسل اللذان عالجا مشكلات اجتماعية وسياسية من النمط الذى عالجه فيرابند ، جاءت كتابتهما فى هذه المجالات فى الغالب الأعم منفصلة عن كتابتهما فى فلسفة العلم [٥].

وقد طور فيرابند آراءه التى أوردها فى هذا الكتاب فى أعمال أخرى أهمها العلم فى المجتمع الحر **Science in a Free Society** الذى نشر عام ١٩٧٨، ثم وداعاً للعقل **Farewell To Reason** والذى نشر عام ١٩٨٧ . وقد ناقش فى هذين الكتابين فكره التعدد أو التنوع الثقافى والمذهب النسبى ، وحاول فى الكتاب الأخير أن يدعو لوجهة نظر عامة لا يكون فيها لثقافة معينة (خاصة الثقافة الغربية) دور محورى أو مميز ، وإنما يكون لكل ثقافة دورها الفعال المؤثر المسموع من أصحاب الثقافات الأخرى. وسنحاول فى السطور القادمة تحليل أهم آراء فيرابند التى آثرت تقسيمها إلى شقين ؛ يختص الشق الأول بنقده لقواعد المنهج العلمى أما الشق الثانى فيتعلق بالمشكلات السياسية والاجتماعية المترتبة على الشق الأول.

ثانيا: نسبية المعرفة العلمية

يبدأ فيرابند كتابه المعروف "ضد المنهج" باعترافه أنه ينوى الحديث عن نوع من الفوضوية المعرفية theoretical anarchism، فالعلم ذاته ، فى رأيه ، عمل فوضوى!

> **العلم أساسا عمل فوضوى: والفوضوية النظرية أكثر إنسانية من العلم ومن المرجح أنها تشجع التقدم أكثر من البدائل المنهجية المتمثلة فى القانون والنظام.(Feyerabend, 1984, P.17)**

وإذا كانت الفوضوية غير مرغوبة فى مجال الفلسفة السياسية ، فإنها فى رأى فيرابند أفضل علاج لنظرية المعرفة العليلة ، بل ولفلسفة العلم ذاتها. ولكن ماهى أهم ملامح هذه الفوضى المنهجية التى يتحدث عنها فيرابند ويدعونا للأخذ بها ؟ وهل هى حقاً أفضل علاج ممكن لنظرية المعرفة ؟

يستهل فيرابند فوضويته المنهجية بالهجوم على مناهج البحث التقليدية فى كافة صورها التى ما أنفك فلاسفة العلم يروجون لها ويحاولون إقناعنا بأنها الفيصل بين العلم وغيره من ألوان الفكر الإنسانى. إذ يتقدم العلم ، فى رأى هؤلاء الفلاسفة والعلماء ، من خلال جمع الوقائع ثم استدلال النظريات منها. غير أن هذه الإجابة التقليدية لماهية المنهج لا تبدو مقنعة لأحد لأن النظريات لاتلزم عن الوقائع بالمعنى المنطقى الدقيق. ولا يصلح مفهوم التأييد أو التعزيز أيضا للدفاع عن منهج العلم ، بل أن فيرابند يرى أنه لايوجد الآن من يحاول الدفاع عن مثل هذا المفهوم (Feyerabend, 1987, P.158).

ولكن إذا كان الأمر كذلك ، فما هو المنهج الأمثل للعلم ؟ يصدمنا فيرابند بالقول بأن العلم ليس له منهج خاص به يميزه عن أى نشاط فكرى آخر ، أو يجعله يستحق درجة أكبر من الاحترام باعتباره يقدم معرفة حقيقية صادقة :

> **تواجه فكرة وجود منهج علمى يتضمن مبادئ صارمة لا تتغير وملزمة إلزاما مطلقا صعوبات جمة عند مقارنتها بنتائج البحث التاريخى...إذ لا توجد قاعدة واحدة ، مهما**

بدت ممكنة ، أو مستندة إلى أسس ابستمولوجية راسخة إلا وتم تجاوزها فى وقت من الأوقات.
(Feyerabend, 1984, P.23)

ولايرى فيرابند أن تجاوز أو مخالفة قواعد المنهج العلمى أمراً عرضيا أو يحدث في حالات نادرة ، ولا هو نتيجة لنقص فى معارفنا أو لأمر يمكن تداركه أو التغلب عليه ، بل يرى على العكس أن هذا التجاوز ضرورى لتقدم العلم(Feyerabend, 1984, P.23) .

ويمضى فيرابند فى ضرب أمثلة عديدة من تاريخ العلم ليبرهن بها على مقولته السابقة وليبرهن على أنه:

مهما بدت لنا قواعد المنهج التى " يتشدق " بها فلاسفة العلم ضرورية وأساسية فهناك دائما ظروف تستدعى ليس فقط تجاهل هذه القواعد ، وإنما تبنى عكسها. (Feyerabend, 1984, P.23)

ولكن إذا كان الأمر كذلك فما هى معايير التقدم العلمى ؟ وكيف يمضى العلماء فى أبحاثهم وكشوفهم ؟ يرى فيرابند أنه لا توجد معايير أو مقاييس ترشد العلماء خلال مراحل نمو النظريات العلمية. وعلى العلماء أن يتبعوا خيالهم ، أو بحسب تعبيره ما يبدو لهم " هاما " ومثيرا"(Kleiner, 1979, P.286) والسبب فى عدم إمكان القول أو الأخذ بمنهج علمى محدد يعود ، فى رأيه ، إلى أن العلم ليس نشاطا عقلانيا خالصا. فالتقدم العلمى هو إزاحة لنظريات قائمة لتحل محلها نظريات جديدة ، وغالبا ما تتضمن هذه العملية عناصر " لاعقلانية " لا يمكن تبريرها . والعلماء الذين ينجحون فى إحراز أى تقدم هم أولئك الذين يفكرون بطريقة تخالف الحدس أو ماهو

مألوف ، أى تختلف طريقتهم فى التفكير عن معايير الفكر السائدة فى فـــترة من الفترات.

وهكذا نجد أن معارضى جاليليو أتهموه " باللاعقلانية "حين حاول أن يدافع عن نظرية كوبرنيقس ، فى حين لم يتهمهم أحد بنفس التهمـــــة لأنهـم نظروا إلى الأمر من وجهة النظر الأرسطية التقليدية السائدة فـــى الفيزيـــاء والكوزمولوجيا. وكانت نظرية أرسطو تعتمد أساسا على " الحس المشترك " فى البرهنة على افتراضاتها الأساسية. فالأرض لا يبدو أنها تدور ، من ثـــم فهى ثابتة ، وافتراض عكس ذلك يعد من قبيل اللامعقـــول ، وعندمـــا جـــاء جاليليو ليعارض هذا الرأى لم يكن أمامه لإثبات صدق حجته سوى أن يلجـــأ إلى الدعاية أو البروباجندا **propaganda** والحيل السيكولوجية على حد تعبير فيرابند **(Oldroyd,1986, P.336)**

ويدافع فيرابند عن معارضى جاليليو حيث يرى أنهم كانوا أكثر منـــه اتساقا. فقوانين الطبيعة تختلف ، طبقا لنظرية أرســـطو ، بـــإختلاف أجـــزاء الكون. ومن هنا فقد أعتقد أتباع أرسطو فى اختـــــلاف القوانيـــن الفيزيائيـــة الخاصة بما يدور فى المنطقة التى تعلو سطح القمـــر The superlunary realm عن تلك التى تسود مجال ما تحت سطح القمر sublunary realm . فالحركة الطبيعية للأجسام الكائنة أعلى سطح القمر دائريـــــة تختلـــف عـــن الحركة التى نصادفها فى خبرتنا اليومية فى مجالنا الأرضى. وهكذا عندمـــــا حاول جاليليو أن يؤيد باستخدام التلسكوب فرض كوبرنيقس الشمســـــمركزى heliocentric hypotheses من خلال ملاحظاته عن أوجه كوكب الزهرة، وجبال القمر ، وتوابع المشترى ، فإن العلماء الذين أخذوا بنظريـــة أرســـطو ظنوا أن المشاهدات التى قد يجمعها الشخص بإستخدام التلسكوب عن الأجرام السماوية لا تتلاءم بالضرورة مع المشاهدات التى تتعلـــق بحركـــة الأرض ،

لإختلاف المجالين ، كما سبق أن نوهنا. ومن هنا فقد رأى الأرسطيون أن الأدلة التى جمعها جاليليو باستخدام التلسكوب " لاعقلانية " ، بل ورفضوا النظر فى تلك الأدلة التى لا تعبر عن قوانين السماء فى رأيهم. فما الذى يحملهم على أن يضيعوا وقتهم وجهدهم بحثاً عن أدلة لا علاقة لها أصلاً بالمشكلة ؟ وينتهى فيرابند من هذا التحليل إلى أننا لا نستطيع وصف هؤلاء المعارضين باللاعقلانية ، وإنما نستطيع وصف جاليليو بهذه الصفة !

ومن القواعد المنهجية الأخرى التى يهاجمها فيرابند التمييز التقليدى بين سياق الكشف وسياق التبرير The Context of discovery vs. the context of justification. فدراسة المنهج العلمي ، وفقا لوجهة النظر السائدة في مجال فلسفة العلم ، تشمل مجالين مختلفين. يتعلق الجانب الأول منها بمحاولة اكتشاف قواعد وتقنيات أو وسائل تستخدم فى الكشف عن النظريات. أما الجانب الثانى فيختص بدراسة المبادئ الموضوعية لتبرير وتقييم النظريات المتنافسة فى ضوء الأدلة المتاحة. وقد كان الاتجاه الأول موضع شك ورفض من معظم مدارس فلسفة العلم المعاصرة. فقد رأى هؤلاء الفلاسفة ، على اختلاف توجهاتهم ، أنه بينما يمكن اعتبار دراسات موضوع التبرير مشروعة وهامة ، فلا توجد لدينا دراسات منظمة أو مفيدة فى مجال الكشف. إذ تقع دراسة مثل هذه الموضوعات ضمن نطاق عمليات الحدس ، والإلهام ، والحظ أو عدم الحظ والتخمين وغيرها ، وكلها أمور يصعب إخضاعها للقوانين أو حتى للدراسة المنهجية. وهكذا نجد أن التمييز بين هذين السياقين كان أحد المبادئ الأساسية لمدرسة دائرة فيينا. يقول هربريت فيجل أحد أعلام هذه المدرسة:

ثمة فرق بين أن نقتفى الأصول التاريخية ، والنشأة السيكولوجية ، والظروف الاجتماعية والسياسية -

الاقتصادية لقبول أو رفض النظريات العلمية ؛ وبيـــن أن
نقدم إعادة بناء منطقـــى للبنـــاء التصـــورى ولاختبـــار
النظريات العلمية (Feigl, 1970, P.4)

ويشترك بوبر أيضا مع الوضعين فى القول بالتمييز بين سياق الكشف وسياق والتبرير. غير أن أول فيلسوف صاغ هذا التمييز فى صورة واضحة هو هانز ريشنباخ Reichenbach الذى استخدم تعبير سياق الكشف وسـياق التبرير لأول مـــرة فـــى كتابـــه الخـــبرة والتنبـــؤ Experience And Prediction عام ١٩٣٨ ، وقد أراد ريشنباخ من وراء التمييز الحاسم بيـــن هذين السياقين التأكيد على عدم وجود طريقة لاكتشاف النظريات ، وعلى أن عملية الكشف قد تكون موضع اهتمام علم النفس والتـــاريخ ، لا الفلســفة ، وأنتهى إلى أن نظرية المعرفة تهتم فقط بسياق التبرير.

ولم يكن فيرابند فى واقع الأمر هو الفيلسوف الوحيد الذى اعـــترض على التمييز الحاسم بين سياق الكشف وسياق التبرير ، فمعظـــم الاتجاهـــات النسبية المعاصرة فى فلسفه العلم لا تأخذ بهذا التمييز. ومن بين هؤلاء نجـــد فيلسوف العلم المعروف توماس كون ، وشابير Dudley Shapere الـــذى يعتقد أن سياق الكشف وسياق التبرير ليس سوى وجهـــان متقـــابلان لعملـــة واحدة ، أو يسيران جنباً إلى جنب على حد تعبير كارل همبل Hempel ومن هنا يرى أن :

من الأخطاء الجسيمة فصل سياق الكشـــف عـــن ســـياق
التبرير خاصة إذا كان هذا الفصل سيؤدى إلى الاســـتبعاد
الكامل لعملية الكشف من مناهج البحث.

It is a serious error to divorce the context of discovery from the context of justification if this means altogether excluding the former

from the methodology. (Nickles, 1977, P.576)

غير أن فيرابند يعتبر أول من عارض هذا التمييز بصورة واضحة لا لبس فيها ، ويعود اعتراضه على هذا التمييز إلى مقال كتبه عام ١٩٦١ بعنوان: **Knowledge Without Foundations.Oberlin College, 1961** . يرى فيرابند أن قبول نتائج أى تجربة عملية تختلط بعناصر ذاتية ونزعات شخصية لجماعات العلماء المختلفة. ومن هنا فالتمييز بين هذين السياقين غير حقيقى ومصطنع. إذ لا يمكن أن يكون الكشف مجرد خبط عشوائى ، وإنما يتضمن العديد من عناصر الاستدلال المنطقى. كما أن التبرير يتضمن العديد من العناصر الذاتية:

إن التمييز بين سياق الكشف وسياق التبرير غير حقيقى. "فالكشف" لا يكون أبدا قفزة فى الظلام ، أو حلما... كما أن "التبرير" لا يكون أبدا إجراءا "موضوعيا" تاما.
(Feyerabend, 1993, P.14)

ولم يكتفى فيرابند بإنكار التمييز بين سياقى الكشف والتبرير ، وإنما ذهب إلى عدم وجود تمييز بين العلوم الفيزيائية والعلوم الإنسانية. فالعلوم كلها إنسانيات بمعنى من المعانى ، كما أن الإنسانيات تتضمن معرفة لايمكن إنكارها.

وينتهى فيرابند فى نقده لقواعد المنهج العلمى إلى رفض فكرة وجود منهج علمى ، كما سبق ونوهنا ، والقاعدة الوحيدة التى يزعم فيرابند أنه يقبلها هى شعاره المثير للجدل كل شئ يمر Anything goes (كله ماشى) وهو بحسب تعبيره المبدأ الوحيد الذى يقبله والذى لا يعوق تقدم العلم.

وهكذا يتضح لنا أن فيرابند أكثر راديكالية فى نقده للعقلانية والمنهج العلمى التقليدى من **توماس كون**. فعلى الرغم من اتفاق أو تلاقى أفكار كون وفيرابند فى مواضع عديدة إلا أن هناك اختلافات جوهرية بينهما لا يمكن إنكارها. **فتوماس كون** وفيرابند يختلفان مع **كارل بوبر** فى تصوره لعقلانية التغير العلمى ، إذ لا يؤمن فيرابند بهذه العقلانية أساسا ، أما توماس كون فينظر إلى التغير العلمى من نموذج Paradigm إلى آخر باعتباره نقلة صوفية لا يمكن التحكم فيها من خلال قواعد عقلية ، وإنما تقع برمتها داخل إطار سيكولوجيا وسوسيولوجيا الكشف العلمى لا داخل منطق الكشف العلمى كما هو الحال عند بوبر. ومن هناك كان التغير العلمى عند **كون** لونا من ألوان التحول الدينى ، كما يقول **لاكاتوش**:

Scientific change is a kind of religious change. (Lakatos, 1970, P.93)

وتلعب العوامل الخارجية غير المنطقية دورا هاما عند **كون** حتى فيما يتصل بقبول أو رفض النظريات الجديدة ، غير أن **كون** يسلم على الأقل، وعلى خلاف فيرابند ، بوجود قواعد عامه يعتقد فيها مجتمع العلماء. نعم ربما يكون تطبيق هذه القواعد إشكاليا ، وربما لا ننجح فى تقديم تبرير موضوعى لها ، ولكنها موجودة على أية حال. أما فيرابند فيرى عدم وجود محتوى واقعى أو قوة يمكن تجريدها من الممارسة العلمية لتتحول إلى قواعد من هذا القبيل ، ومن هنا نراه يرفض محاولات تقييم النظريات موضوعيا على أساس المحتوى أو على أساس احتمال الصدق verisimilitude وذلك لاعتقاده فى لاقياسية النظريات. ويقصد فيرابند باللاقياسية incommensurability عدم إمكان المقارنة بين المعارف المتتابعة التى تنتمى إلى نماذج مختلفة. فمراحل العلم المتتابعة تخاطب مشكلات مختلفة ،

وقد لا تكون هناك مقاييس مشتركة لقياس نجاحها ، ومن هنا يطلق عليها فيرابند ، ويشترك معه **كون** ، اسم اللاقياسية [٦]. فمصطلح الكتلة mass عند نيوتن ، مثلا ، قد لا يعنى نفس المعنى عند أينشتين ، ومن هنا لا يمكن مقارنة النظريتين مقارنة تامة على الإطلاق. وقد قصد فيرابند من فكرة اللاقياسية نقد عملية التفسير والرد reduction التى كان (ولا يزال) يعتقد العديد من فلاسفة العلم أنها السمة الجوهرية التى تميز التغير العلمى. غير أن فيرابند لا يوافق على بسط هذا المفهوم إلى آفاق لم يقصدها أبدا:

> **إن توسعة هذا المفهوم (اللاقياسية) وتحويله إلى وحش ضخم مسئول بمفرده عن كل متاعب العلم والعالم ليس فقط أمرا ساذجا وإنما جريمة حقيقية. (Feyerabend, 1993, P.242)**

غير أن هذا الاتفاق بين فيرابند و**كون** حول بعض جوانب مفهوم اللاقياسية وغير ذلك من موضوعات لم يمنع فيرابند من أن يقول أن بعض أفكار كون هامة ولكنها للأسف غامضة وتحتوى على الكثير من اللغو والخلط ، بل وأساءت كثيرا إلى فلسفة العلم :

> **إذا كنت لاتصدقنى ، أنظر إلى المادة المنشورة. إذ لم يحدث أبداً من قبل أن سيطر على كتابات فلسفة العلم هذا الحشد من المؤلفين العجزة غير الأكفاء أو التافهين المتسلقين ، فتوماس كون يشجع أولئك الذين ليس لديهم أدنى فكرة عن سبب سقوط حجر من أعلى إلى أسفل أن يتحدثوا بثقة وتأكيد عن المنهج العلمى. وأنا لا أعترض على عدم الكفاءة وإنما يأتى اعتراضى حين تقترن عدم الكفاءة بالسأم والثقة العمياء فى الذات.(Feyerabend, 1987, P.160)**

أما نقد فيرابند **لكارل لبوبر** فيأخذ طابعاً هجوميا عدائيا كثيرا مـــا لا يكون له تبرير موضوعى. فقد بدأ فيرابند حياته الأكاديميـــة ، كمـــا سـبق وذكرت ، بالإعجاب الشديد بكارل بوبر ، بل وبالتسليم الأعمى بمبدأ القابلية للتكذيب فى "دائرة كرافت" التى أسسها. ثم أستأنف حياته العلمية والعملية مع كارل بوبر ، غير أنه سرعان ما انقلب انقلابا شديدا على أفكـــار وشـخصية بوبر ، حتى أنك لا تكاد تطالع أحد كتابات فـــيرابند الأخـــيرة دون أن تجـد هجوما شديدا ، ومبالغا فيه فى بعض الأحيان ، على أفكار بوبر. إذ يذهـــب فيرابند إلى أن الكثير من النظريات العلمية لا تقبل التكذيب بالطريقـــة التـــى يصفها بوبر. ويعترض أيضا على أن التفنيد – أحد أهم أفكار بوبر – يلعـــب دوراً أساسيا أو حاسما فى تاريخ العلم. فالعلماء لا يتخلون عـــن نظريـــاتهم لمجرد تعارض بعض الوقائع معها ، كما يزعم بوبر. فإذا كان بوبـــر يؤكـــد على رفض أو استبعاد النظريات فإن فكرة فيرابند الأساســية هـــى اســتبقاء النظريات والإكثار منها. وإذا كان فيرابند لا يتحدث عـــن "النمـــوذج" كمـــا يتحدث توماس كون فإنه يشير إلى أن النظرية قد تطوق بعـــدد كبـــير مـــن النظريات المساعدة القديمة أو المفندة التى يدعونا بوبر للتخلى عنها. ومن هنا قد تبدو لنا نظرية معينة كاذبة ، بينما يتضح لنا بعد فترة من خلال النظريات الأخرى المساعدة أنها ليست كذلك.

وينتهى فيرابند من نقده لبوبر إلى القول بأن قواعد بوبر المنهجية لا تساهم فى نمو المعرفة وإنما فى واقع الأمر تعوق هذا النمو. وهذه القواعد ، باختصار ، لا فائدة لها بالنسبة للعلم:

...(t)hey are useless as an aid to science. (Feyerabend, 1987, P.160)

ويدلل على حجيته السابقة بالقول بأنه:

لو تخيلنا أن كلا من كوبرنيقس وجاليليو طبقا ، بصـــورة متسقة أمينة ، قواعد بوبر المنهجية لكنا لا نزال نعيـــش فى مرحلة الفيزياء الأرسطية حتى الآن. Johansson, (1975, P.147)

ولا يكتفى فيرابند بنقد مناهج البحث عند كارل بوبر فقط بل يهـــاجم أيضا الفلسفة النقدية التى ينتمى إليها بوبر:

لا يوجد حدث هام واحد فى تاريخ العلم يمكن تفسيره من خلال منهج بوبر كما لا توجد محاولة واحدة لدى هـــؤلاء النقديين لرؤية العلم من منظور صحيح. إن هذه الفلســفة ليســـت ســـوى خـــادم مخلـــص غـــير فـــاهم للعلم.(Feyerabend, 1993, P.143)

ولعل سبب هجوم فيرابند على العقلانية النقديـــة وعلـــى مؤسســـها الحقيقى كارل بوبر يرجع إلىمعارضته لتزمت أصحاب هذه المدرسة الفكرية وتحويلهم لذلك التتجاه العقلانى الواعد إلى مدرسة دجماطيقية متزمتـــة. فقـــد توقع فيرابند أن يكون هؤلاء النقديون ممثلين لأصحاب العقول الحرة الذيـــن يكتبون أفكارهم باسلوب حر قوى ، ويعـــارضون محـــاولات العلمـــاء فـــى السيطرة على المجتمع ، بيد أنه لم يجد فيهم سوى :

شرزمة كئيبة من المفكرين يكتبون بطريقة جافة جامدة ، ويكررون بصورة تثير الغثيـــان مجموعـــة قليلـــة مـــن الإكليشيهات الأساسية ويهتمون بتطوير مفاهيم أقرب مـــا تكون إلى المسوخ الفكرية ، كـــالقول بزيـــادة محتـــوى النظريات أو درجة أقترابها من الصدق. وتفيض أعينهـــم بالخوف أو بالشر ... كما أنهم لا يمارسون النقد ؛ أعنى لا يخترعون طرقا جديدة لرؤية الأفكار من منظور خاص،

ويرفضون ما لا يناسبهم مــن أفكــار.(Feyerabend, 1993, P.146)

وينتهى فيرابند من نقده للوضعيين وبوبر وكافة الاتجاهات الأخــرى فى فلسفة العلم إلى النتيجة التى سبق وصرح بها مـــرارا وهـــى أنـــه مـــن المستحيل القول بأية قواعد منهجية عامة للبحث العلمى:

إذا تأملنا التاريخ الماضى ، فسوف نجد أنه فى مقابل كل قاعدة نريد الدفاع عنها ، توجد ظروف يتحقق فيها التقدم بكسر هذه القاعدة. وهذا يعنى أن مناهج البحث تقدم لنـــا فى أحسن الأحوال قائمة مشوشة من القواعـــد التقريبيـــة وأن المبدأ الوحيد الذى يمكن أن نثق فيه فى كل الظروف هو كل شئ يمر.(Colodny, 1970, P.278)

وإذا كان فيرابند يصرح بعدم وجود قواعد منهجية ، أو بعدم جدوى هذه القواعد ، فأنه يبدى أحياناً استعداداً للدفاع عن بعـــض المبـــادئ الأقـــل تطرفـــاً وحدة. استمع إليه حين يقول:

ليس غرضى هو استبدال مجموعة مـــن القواعـــد العامـــة بمجموعة أخرى مختلفة ، وإنما غرضى هو إقناع القـــارئ بأن مناهج البحث برمتها ، حتى أكثرها وضوحاً له حدوده. (Kleiner. 19, P.287)

من هنا نجد أن فيرابند يتحدث أحيانا عـــن قبـــول بعـــض القواعـــد المنهجية المساعدة أو السماح للنظريات بمساحة للتنفس ، أن صح التعبير، أو فرصة لأن تتبلور فى صورة تسمح لها بالتقدم. من هنا تجده يســلم بمبدأيـــن أساسيين ويأمل فى أن يأخذ العلماء بهما من أجل تقدم العلم. المبدأ الأول هو وفرة النظريات **The principle of proliferation** والثـــانى هـــو مبـــدأ

التشبث The principle of tenacity يتمثل المبدأ الأول ، على حد تعبير فيرابند ، فى:

> **اختراع وتطوير نظريات لا تتسق مع وجهات النظر المقبولة ، حتى وإن كانت هذه النظريات المقبولة عالية التأييد وتحظى بقبول عام.(Feyerabend,1965, P.223)**

أما مبدأ التشبث فيتمثل فى:

> **... النصح باختيار نظرية تعد بالوصول إلى أفضل النتائج المثمرة ، والتشبث بها حتى إذا كانت تواجه صعوبات كبيرة.(Feyerabend , 1970, P.203)**

من الواضح أن المبدأين السابقين يتفقان فى روحهما مع مبادئ فيرابند التى سبق وتحدثنا عنها. ومن هنا نجده يوصى بضرورة الأخذ بأكبر عدد من النظريات حتى إذا كانت هذه النظريات غير متسقة مع بعضها البعض ، بحيث يكون لكل واحدة منها أنصار ومدافعين يعتقدون فى صدقها ، ويحاولون التغلب على الانحرافات التى تصادفها. ويجب أن نشير هنا إلى أن فيرابند يستخدم كلمة نظرية بصورة شديدة العمومية لتشمل أمورا كثيرة :

> **عندما أتحدث عن النظريات فأنا أعنى أنها تتضمن الأساطير والأفكار السياسية ، والمذاهب الدينية ، كما أرى أن تعبير "وجهة نظر" ، ينطبق على الأقل على بعض جوانب كل ماهو موجود . (Feyerabend,1965,P.252)**

من هنا يرى فيرابند أن وفرة النظريات المتنافسة والمتعارضة ، أو غير المتسقة ، وليس الشذوذ أو الانحرافات كما هو الحال عند كون ، هى التى تقود إلى ما يطلق عليه كون مرحلة الأزمة crisis. ويسوق فيرابند أمثلة

عديدة يدافع فيها عن النظريات غير المتسقة ، فيقول أن قانون جاليليو في سقوط الأجسام لم يكن متسقا مع نظرية نيوتن في الجاذبية (لأن التسارع عند الاقتراب من الأرض يكون ثابتا عند جاليليو، بينما لا يكون ثابتا عند نيوتن). كما أن قوانين كبلر تختلف عن نظرية نيوتن في تفسير تحرك الكواكب في مدارات اهليلجية. وينتهي الأمر بفيرابند إلى رفض فكرة الاتساق ذاتها ، حيث يتساءل قائلا ما الخطأ في القول باللااتساق ؟

What is wrong with inconsistency?

فكل شئ ، في تصوره ، ينبع من اللااتساق. ولابد أن هناك خللاً ما في المنطق يجعلنا نشك في أن اللا اتساق يعوق تقدم العلم !! غير أننا نتساءل نحن بدورنا تساؤلا مضادا لتساؤل فيرابند ونقول هل إذا كان اللااتساق يحقق أحيانا ، وفي ظروف استثنائية بعض التقدم ، أن نأخذه كقاعدة أو معيار، أو أن ذلك يدعونا لأن نراجع قواعد المنطق التي تعارفنا عليها ، أو أن نتخلى عن قانون عدم التناقض مثلاً ؟!

يبدو واضحا تهافت فكرة فيرابند في ضرورة الأخذ بالنظريات اللامتسقة وجعلها القاعدة الأساسية عند قبول أو رفض النظريات العلمية. فالاتساق ليس أمراً يخص كارل بوبر أو فيرابند أو أي فيلسوف وإنما هو بتعبير أحد الفلاسفة:

أحد الاعتقادات الراسخة في الحس المشترك والتي تقوم على الحدس القائل بأن أي تفسير غير مترابط أو متسق يفشل في التفسير. (O'gorman, 1989, P.56)

ويبقى في النهاية سؤال أساسي حول فلسفة فيرابند ذاتها ؛ فإذا كان فيرابند نفسه يتردد كثيرا ويعارض أفكاره التي صرح بها من قبل ، ويصف نفسه بصفات سرعان ما يتنصل منها ، إذ نراه تارة يقول أنه فوضوي ،

وتارة أخرى نسبى ، ثم يصرح بأنه لا هذا ولا ذاك بل هـــو دادى[٧] Dadist ويدافع أحيانا عن التنجيم ، ثم يعود ليقول أن أكثر ما يثير الملل لديـــه هـــو التنجيم ، فكيف يمكن لنا وصف هذا الفيلسوف ، وإلى أى المذاهـــب ينتمـــى فكره ؟

من الصعب بمكان الإجابة على السؤال السابق ، وإن كنا سنحاول أن نضع إجابة من خلال أعماله خاصة المتأخر منها. فهو لا يستقر فى معظـــم كتاباته على مبدأ معين ، أو فكره محددة ، وإنما تجـــده يدافـــع فـــى بعـــض المقالات عن فكرة معينة ثم يعود ليهاجمها فى مقال آخـــر. وقـــد أدى ذلـــك ببعض المعلقين إلى وصفه بأنه فيلسوف نسبى. غير أن فيرابند سارع بـــالرد بأن معظم الحوار الدائر الآن حول المذهب النسبى سطحى وعاطفى وبعيـــد عن العقلانية. ومن هنا نجد أن بعض المثقفين الذين يخشون على أدوارهم فى المجتمع يسرعون بإبلاغنا ، بطريقة دجماطيقية ، بخطورة هذا المذهب وبأن الأخذ به سيؤدى بنا إلى فوضى أخلاقية وسياسية لامحيص عنها.

ويميز فيرابند بين النسبية الفلسفية ، ومذهب الشـــك ، والفوضويـــة الســـاذجة **naive anarchism** والفوضويـــة الابســـتمولوجية ، والنســـبية البروتاجورية (نسبه إلى براتوجوراس) وهو يرفـــض معظـــم الأوصـــاف السابقة ، وإن كان يمتدح أحيانا الفوضوية المعرفية والنسبية البراتوجوريـــة. فهو يذهب إلى أن الفوضوية المعرفية ليست سوى علاجا ممتـــازاً لنظريـــة المعرفة العليلة ولفلسفة العلم على وجه العموم. فنظرية المعرفة فـــى رأيـــه مريض يحتاج إلى العلاج ، وهذا العلاج يتمثل فى الفوضوية المعرفية ، وبعد أن يستجيب المريض للدواء ويبرأ من أسقامه فقد ينتهـــى عندهـــا المـــرض وتنتهى الحاجة إلى العلاج. من هنا فهو لا يعنى أن تصبـــح فلســـفة العلـــم

فوضوية بلا قيد أو شرط. إذ بعد مرحلة العلاج والشفاء يمكن أن تعود فلسفة العلم إلى لون من ألوان العقلانية الأكثر تنورا وتحررا.

ويحدد فيرابند الفارق بين النسبية الفلسفية والفوضوية المعرفية بالقول بأن الأولى هى القول بأن كل التراث التقليدى أو النظريات صادقة أو كاذبة بنسب متساوية. أما الفوضوى فهو من:

يؤكد أمورا سخيفة على أمل أن يقود ذلك إلى صور جديدة من صور الحياة. **(Feyerabend, 1993, P.210)**

غير أننا نميل إلى القول بأن فيرابند ينتمى بفكره إلى تراث الشكاك من الفلاسفة. فهو لا يخفى إعجابه بقول بروتاجوراس أن الإنسان مقياس الأشياء جميعا. كما أنه يلجأ إلى نسبية بروتاجوراس عندما يقرر أن التراث التقليدى ليس فى حد ذاته جيدا أو رديئا ، وإنما فقط موجود ، وأنه لا يمكن القول أن له أو ليس له خصائص مفضلة مرغوب فيها عند مقارنته بتراث آخر. كما أن فيرابند يمتدح نسبية بروتاجوراس لأنها تهتم اهتماما كبيرا ومشكوراً بفكرة تعدد القيم والتقاليد دون أن تفترض أن رؤية الفرد الذاتية أو عاداته وتقاليده هى الوحيدة الصادقة ، وهى أحد الأفكار المحورية التى ما فتئ يرددها فى كتاباته **(Feyerabend,1993, P.58)**

نستطيع من ثم أن نقول أن فيرابند يستمد أصوله الشكية من التراث الشكى عند اليونان. فعندما يواجه الشاك فكرة أو اعتقادا فإنه يحاول اثباتها وتفنيدها فى نفس الوقت ويمضى فى ذلك حتى تتساوى لديه أسباب قبولها ورفضها ، وعند الوصول إلى هذا القدر من التكافؤ يجد نفسه مجبرا على التوقف عن الحكم. حقاً أن فيرابند لم يتوقف عن الحكم ، بل أن معظم مشكلاته مع معارضيه نشأت من وفرة أحكامه وتطرفها ، غير أن النزعة الشكية تتبدى عنده من خلال هجومه ودفاعه عن نفس المبدأ فى كثير من

الأحيان. بل كثيرا ما يستخدم عبارات تذكرنا على الفور بالشكاك الأوائل. استمع إليه حين يقول:

المعرفة الكلية غير ضرورية وغير متاحة وكل ماهو متاح وجهات نظر مختلفة ، تكون صادقة من بعض الجهات فقط. ولا وجود لأى أراء لا ترتبط بتقليد معين.
(Feyerabend,1987,P.61)

من هنا أستطيع أن أقول أن فوضوية فيرابند المعرفية ليست سوى صورة جديدة من صور النزعة النسبية التى تستمد أصولها من التراث الشكى عند اليونان ، وترتبط الفوضوية عادة بالسياسة لا بنظرية المعرفة أو بفلسفة العلم غير أن فيرابند لا يتحمس كثيرا للفوضوية كفلسفة سياسية. فالفوضوية المعاصرة لا تأبه كثيرا للسعادة الإنسانية أو حتى للحياة ذاتها. أما فوضوية فيرابند فيمكن تلخيصها بقول فيرابند "أن لكل القواعد حدود كما لاتوجد عقلانية شاملة"(**Feyerabend, 1978, P. 32**)

ويذهب بعض المحللين إلى أن فلسفة فيرابند تقترب من المذهب المعروف فى الفن باسم الدادية أكثر من اقترابها من الفوضوية السياسية. فالفوضوى السياسى يرغب فى تحطيم أو تنحية بعض الجوانب السائدة فى الحياة ، بينما يرغب الدادى فى ابتكار أشكال جديدة من الحياة الهامة والتافهة أيضا. كما أن الدادى ليس له برنامج فكرى محدد ، وأنى يكون له ذلك وهو ضد كل البرامج. ومن هنا فالدادى الحقيقى يكون أحيانا ضد الدادية ذاتها! **(O'gorman, 1989, P.54)** . غير أن دادية فيرابند لا يمكن اختزالها أو ردها إلى هذه الحركة الفنية الضيقة لأن هذا ينطوى على ظلم كبير لأفكار فيرابند ، وإنما يمكن القول أن الدادية تشكل مع العناصر الأخرى ، وأهمها التراث الشكى عند اليونان ، اللبنات الأساسية فى البناء الفكرى عند فيرابند.

ثالثاً: الدفاع عن المجتمع ضد السلطوية .

يذهب فيرابند إلى أن العلم لا يتمتع بأى ميزة أو مكانه تجعله يتفوق على الأنشطة والفعاليات الفكرية الإنسانية المختلفة. من هنا نراه يدافع عن المجتمع ضد كل الأيدلوجيات ، والعلم من بينها بل قل هو على رأسها. وهو يرى أننا يجب ألا نتعامل مع هذه الأيدلوجيات باهتمام كبير أو نعطيها قدراً أو حجماً أكبر مما تستحق ، بل ينبغى أن نقرأها كما نقرأ الحكايات الخيالية. نعم لقد كان العلم فى مقدمة الحرب ضد السلطوية وديكتاتورية التخلف والخرافة. ونحن ندين للعلم بتحرير الجنس البشرى من نير الاستبداد وطغيان أصحاب الأفكار القديمة البالية. كما ندين له أيضا بالحرية الفكرية المتزايدة ، حتى أضحى العلم والتنوير صنوين أو اسمين لشىء واحد. غير أن هناك مفارقة محزنة فى الأمر ينبهنا إليها فيرابند. فنحن (يقصد بنحن هنا من يعيشون فى المجتمعات الغربية الديمقراطية بالطبع) الآن نستطيع أن ننتقد ما نشاء وكيفما نشاء باستثناء العلم. فكروبتكن Kropotkin ، على سبيل المثال، يريد التخلص من كافة المؤسسات التقليدية وكل أنواع الاعتقادات غير أنه يستثنى العلم من ذلك. كما ينتقد إبسن Ibsen أهم أيدلوجيات القرن التاسع عشر ماعدا العلم. بل وحتى ليفى شتراوس Levi-Strauss الذي جعلنا ندرك أن الفكر الغربى ليس هو القمة المتفردة للإنجازات الإنسانية ، كما كان الغرب يعتقد ، استثنى العلم أيضا من هذه النسبية الأيدلوجية. **Feyerabend, (1984, P.302)**

ويرى فيرابند أن أى أيدلوجيا تحطم النظام الشمولى للفكر تساهم بذلك فى تحرير الإنسان. كما أن أيدلوجيا تقود الإنسان إلى الشك فى المعتقدات الموروثة تكون عونا للتنوير. إن الحقيقة التى تسود دون اختبار

وفحص ومقارنة تشبه الطاغية الذى يجب الإطاحة به ، بل والكذب أو الزيف الذى قد يساعدنا فى الإطاحة به لهو محل ترحيب عند فيرابند.(Feyerabend, 1987, P.156) . ولا عجب فى هجوم فيرابند على كل ما يجور على المساواة بين الثقافات فى كافة المجالات ، والمجتمع الحر فى رأيه ليس هو المجتمع الذى يحاول فرض قيمه الثقافية على الثقافات الأخرى المستضعفة وإنما هو:

المجتمع الذى يكون فيه لكل التقاليد والثقافات حقوق متساوية بغض النظر عن تصور الثقافات الأخرى لها.
(Feyerabend, 1993, P.128)

وإذا كنا نسلم بأن العلم الذى ساد فى القرنين السابع عشر والثامن عشر كان بحق أداة للتنوير والتحرر ، فمن غير الملزم أن العلم سيظل دائماً أداة للتحرر أو التنوير. فليس ثمة سمة موروثة فى العلم ، أو فى أى أيدلوجيا أخرى ، تجعله أداة دائمة للتحرر والتنوير. فالعلم ، شأنه فى ذلك شأن أى أيدلوجيا أخرى ، قد يؤدى إلى الخراب ، والتدمير ، ومن ثم قد يتحول إلى ديانة غبية جاهلة. ويدعونا فيرابند إلى النظر فى مناهج العلم التى يتم تدريسها اليوم. "فحقائق" العلم يتم تلقينها فى مرحلة مبكرة بنفس الطريقة التى كانت تلقن بها "حقائق" الدين منذ قرن مضى فى أوربا. ولا توجد محاولة لإيقاظ القدرات النقدية عند التلاميذ كى يستطيعوا أن يروا الأمور من منظور خاص بهم. والأمر فى الجامعات ، فى رأى فيرابند ، أكثر سوءاً. فالتلقين فى الجامعات يأخذ طابعاً أكثر تنظيما ونمطية. ولا يزعم فيرابند غياب النقد بالكامل ، فالنقد موجود ولكن له حدود فأنت تستطيع أن تنتقد أمورا كثيرة من بينها النظام السياسى ومؤسسات المجتمع المختلفة ، ولكن كما سبق وذكرنا ، يستثنى من ذلك العلم.

وتقابل أقوال العلماء وتصريحاتهم فى المجتمع ، غالبا ، بنفس التوقير والاحترام الذى كانت تلقاه أحكام رجال الدين والفقهاء منذ أمد ليس ببعيد. واليوم أصبح العلم يماثل فى استبداده الأيدلوجيات التى جاء أصلا ليحاربها ويخلصنا منها. ولكن ما السبب فى هذه المعاملة الخاصة جدا التى يلقاها العلم على الرغم من كونه مجرد أيدلوجيا بين أيدلوجيات عديدة لا يتفوق عليها فى شئ ؟ يرى فيرابند أن السبب يكمن فى الاعتقاد (الخاطئ) بأن العلم ليس مجرد أيدلوجيا وإنما ينظر إليه باعتباره مقياس "موضوعى" للحكم على كافة الأيدلوجيات الأخرى ، وهى فكرة ما فتئ فيرابند يكرر عدم صوابها فى العديد من كتاباته. إذ لا يمتلك العلم منهجا خاصا به يضمن له النجاح أو حتى احتمال النجاح. والسبب الحقيقى فى نجاح العلماء أحيانا فى حل المشكلات لا يرجع إلى امتلاكهم عصا سحرية يطلق عليها مناهج البحث، أو نظرية محددة فى العقلانية ، وإنما يكمن سر نجاحهم فى أنهم يدرسون المشكلات المطروحة دراسة كافية ولفترات زمنية طويلة ، ولأنهم يعرفون الموقف الذى أمامهم ويحيطون بتفاصيله إحاطة شاملة.

وإذا كان الأمر كذلك فكيف نتعامل مع النظريات العلمية ؟ يصدمنا فيرابند مرة أخرى باقتراح عجيب لا يملك المرء إلا أن يرفضه. إذ يذهب إلى أن أفضل طريقة للتعامل مع النظريات العلمية هى أن نعطى الناس الفرصة لأن يدلوا برأيهم فيها عن طريق الاقتراع الحر فى انتخابات نزيهة !! فنحن ، على حد قوله ، نقبل القوانين والوقائع العلمية ، ونعلمها فى مدارسنا ونجعل منها أساسا لاتخاذ القرارات السياسية الهامة، لكن دون أن نخضعها أبدا للتصويت ، وربما كان من الأفضل أن أضع أمام القارئ نص كلمات فيرابند:

> **We accept scientific laws and scientific facts, we teach them in our schools, we make them the basis of important political decisions, but without ever having subjected them to vote. (Feyerabend, 1984, P. 301)**

فالمجتمع الحديث ، فى رأيه ، كوبرنيقى " ليس لأن الكوبرنيقية تـم وضعها موضع الاختيار الحر عن طريق أخذ الأصوات ، أو لأنها خضعت لحوار ديمقراطى تم فى نهايته التصويت عليها وحازت على أصوات الأغلبية، وإنما هو كذلك لأن العلماء وحدهم يؤمنون بنظرية كوبرنيقس ولأن الناس يقبلون ما يقوله العلماء بصوره غير نقدية لا تختلف كثيرا عن الطريقة التى كانوا يقبلون بها من قبل أراء الأساقفة ورجال الدين.

ولا يستطيع المرء بالطبع إلا أن يعارض فيرابند فى اقتراحه العجيب بأخذ الأصوات عند قبول أو رفض النظريات العلمية ، وليس لنا ، فى اعتقادى ، أن ننظر إليه إلا باعتباره دعابة ثقيلة من الدعابات التى يطلقها فيرابند أحيانا ربما بقصد إلقاء بعض الأحجار فى بحر فلسفة العلوم الراكد. ويذكرنا ذلك أيضا بمحاولة فيرابند المساواة بين منجزات الطب الحديث ومنجزات الطب التقليدى ، كالوخز بالإبر الصينية والمداواة بالسحر وغيرها، وهى مقارنة ظالمة للطرفين على الرغم من دفاع فيرابند المجيد عنها.

ومن الأمور الأخرى التى نعارض فيرابند فيها والتى يدافع عنها بحرارة هو تأكيده على أهمية الأساطير فى مقابل النظريات العلمية وزعمه أن الأساطير أكثر صدقا من أكثر النظريات العلمية تقدما. فنحن لا ننكر أهمية الأسطورة كأحد المنابع الأساسية لكافة الأيدلوجيات ، بما فيها العلم ، غير أن فيرابند لا يساوى فقط بين أهمية الأسطورة والعلم ، وإنما يذهب إلى أن:

إنجازات واضعى الأسطورة فى العصور السابقة أفضل من إنجازات العلماء فى كافة العصور وأن مخترعى الأسطورة الأوائل بدءوا الحضارة بينما اكتفى العلمـــاء بتغييرهـــا ، وليـــس إلـــى الأفضـــل دائمـــا. (Feyerabend,1993, P.113)

ولا غرابة بعد كل هذا أن يحوز فيرابند على لقب ألد أعداء العلـــم ، وأن يعاديه الكثيرون. ولكننا نتساءل بدورنا هل حقا فيرابند عدو حقيقى للعلم؟ أعتقد أن الإجابة أصبحت الآن أكثر وضوحا أمام القارئ الكريم. إن نســـبة كبيرة من كتابات فيرابند تتضمن حجج منطقية ومعرفية منظمة تقبل المناقشة والرد ، وبعضها حجج لها وجاهتها ومنطقها القوى ، غير أن هـــذه الحجـــج تتوارى أحيانا أمام شعارات فيرابند الشاذة وعباراته المستفزة العدائية، تلـــك العبارات التى جلبت له المتاعب من قبل الفلاسفة والعلماء ، والتى لـــم يكـــن يقصد من وراءها سوى أن تكون بمثابة وصفة علاجية لمداواة أمراض فلسفة العلم ، خاصة إذا كان هذا الهجوم سيجعلنا نعيد النظر فى العلاقـــة الجدليـــة السائدة بين رؤية الفلاسفة المثالية إلى العلم وبين خبرة المشتغلين به. كما أننا إذا قرأنا فيرابند بعناية فسنجد أنه على الرغم من شـــعاره أو قولـــه برفـــض قواعد المنهج العلمى ، إلا أننا سنكتشف أنه يقصد ألا نقبل أية قواعد بطريقة قبلية a priori ، وإنما ينبغى أن يكون متاحاً لنا نقد هذه القواعد ومراجعتهـــا لا مجرد تحديدها سلفاً من خلال دراسة حالات معينه. وأخيرا فـــإن وفـــرة النظريات وتنوعها التى يحدثنا عنهما فيرابند قد يكون لهما حقاً فائدة بالنســـبة للعلم بينما لا يكون للاطراد والنمطية التى يرفضهما سوى مضارهمـــا فـــى تشويه قدرة العلم النقدية وإمكانية تقدمه ، تلك الإمكانية التى لـــم يعارضهـــا فيرابند أو يشكك فيها.

ملاحظات

[١] اعتمدنا فى عرض بعض جوانب حياة فيرابند على التأبين الذى كتبه هيون بعد وفاته بعنوان : Paul Hoyningen - Huene : Obituary of Paul K. Feyrabende (1924-1994) Erkenntnis, 1994, P.289.

[٢] مبدأ التتمة أو التكامل يقصد به استخدام النظريتين الموجية والجسيمية معاً مع التأكيد على أن صدق إحداهما لا يؤدى بالضرورة إلى كذب الأخرى .

[٣] النزعة الردية : هناك معان عديدة لكلمة الرد تختلف باختلاف المذهب الفلسفى الذى يتحدث عنها . لمزيد من التفاصيل حول مفهوم الرد ارجع إلى : د . محمد مهران ، فلسفة برتراند رسل . دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٩ ص ص ٣٣٦-٣٤١

[٤] انظر فى ذلك مقال أجاسى : Agassi , J., As You Like It : hate is never justified حيث يعترض أجاسى على هجوم فيرابند غير المبرر (فى رأيه) وعلى بعض التلميحات التى قد يفهم منها إعجاب فيرابند بهتلر ، والمقال منشور فى كتاب Agassi, J., The Gentle Art of Philosophical Polemics, Open Court, La Salle 1988

[٥] لا أعنى بهذا القول تعارض آراء رسل أو بوبر فى المجالات المختلفة ، غير أننى أزعم أنهما لم يعالجا المشكلات السياسية والاجتماعية والبيئية وغيرها فى نفس سياق معالجتهم لمشكلات فلسفة العلم كما يفعل فيرابند .

[٦] يجب الإشارة إلى أن هناك اختلافات جوهرية بين تصور كل من توماس كون وبول فيرابند لمفهوم اللاقياسية . لمزيد من التفاصيل ارجع إلى : Feyerabend, P., 'Reply to Criticism' In Boston Studies in the Philosophy of Science , 1965

[٧] الدادية حركة أدبية فنية عالمية راجت فى أوائل القرن العشرين ١٩١٥-١٩٢٢ كان من أهم مبادئ الدادية القول بأن الفن والأدب لا يعتمد على أية قواعد ، وأن القانون الوحيد المقبول هو الصدفة والحقيقة الوحيدة المقبولة هى الخيال . ولا عجب إذن أن يتبنى فيرابند أفكار هذه الحركة لاقترابها من فلسفته . لمزيد من التفاصيل ارجع إلى Mothewell, R., Ed. , The Dada Painters and Poets. 1989

المراجع

أولا : المراجع العربية:

الدكتور صلاح قنصوه : فلسفة العلم ، دار الثقافة للنشـــر ، القــاهرة ١٩٨٧

الدكتور ماهر عبد القادر : نظرية المعرفة العلمية ، دار النهضـــة العربيـــة ، بيروت ١٩٨٥

الدكتور محمد مهران : فلسفة برتراند رسل ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٩

كارل بوبر : منطقة الكشف العلمي ، ترجمة د. ماهر عبدالقادر ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨٦ .

هانز رينشنباخ : نشـــأة الفلســفة العلميــة ، ترجمـــة د . فــؤاد زكريـــا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٩ .

ثانياً : المراجع الأجنبية:

Feigle,H.,(1970)'The Orthodox View of Theories'.In Radner,M.,ed. Analysis of Theories And Methods of Physics and Psychology. University of Minnesota Press.Minneapolis.

Feyerabend,P,K.,(1965)Reply To Criticism.In Boston Studies in the Philosophy of Science. Vol.2.

Feyerabend,P,K.,(1968) How To Be a Good Empiricist: A Plea for Tolerance in Matters Epistemological.In Nidditch,P.H. ed. The Philosophy of Science.Oxford University Press.

Feyerabend,P,K.,(1970)Consolation To The Specialist. In Lakatos,I.,Criticism And The Growth of Knowledge.Cambridge.

Feyerabend,P,K.,(1978)Science in Free Society. Verso, New York.

Feyerabend,P,K.,(1983)Empiricism,Rationality,And Scientific Method: Problems of Empiricism, Cambridge University Press.
Feyerabend,P,K.,(1984)Against Method: Outline of an anarchistic Theory of Knowledge.Verso, New York.
Feyerabend, P, K.,(1987a) 'How To Defend Society Against Science'.Hacking.,ed.Scientific..Revolutions.Oxford University Press.
Feyerabend,P,K., (1987b) Farewell To Reason.Verso.N.Y.
Feyerabend,P,K.,(1993) Three Dialogues of Knowledge.Basil Blackwell, London.
Hoyningen-Huene,P.,(1994)Obituary of Paul.K. Feyerabend (1924-1994).Erkenntnis Vol.40.no.3.
Johanson,I.,(1975)A Critique of Karl Popper's Methodology. Scandinavian University Books.Sweden.
Kleiner,S,A.,(1979) Feyerabend,Galileo And Darwin:How To Make the Best Out of you Have- or Think You Can Get.Studies of History and Philosophy of Science.Vol.10.
Kuhn,T.S.,(1970)The Structure of Scientific Revolutions. Chicago University Press.Chicago.
Newton-Smith,W,H.,(1981)The Rationality of Science. Routledge and Kegan Paul.London.
Nickles,T.,(1977)Heuristic and Justification in Scientific Research: Comments on Shapere.In Suppe,F., The Structure of Scientific Theories.Chicago,University of Illinois Press.
O'gorman.F.P., (1989) Rationality and Relativity: The Quest for Objective Knowledge.Avebury,Aldershot,USA.
Oldroyd,D.,(1986) The Arch of Knowledge. Methuen,N.Y.
Popper,K.,R (1965) Conjectures And Refutations: The Grwth of Scientific Knowledge.Basic Books,New York.
Stewart,R.,(1987) Philosophy And Sociology of Science. Basil Blackwell. London.

Paul Feyerabend

Three Dialogues Of Knowledge

1993

ثلاث محاورات في المعرفة

تأليف

بول فيرابند

ترجمة

د. محمد أحمد السيد

المحاورة الأولي

١٩٩٠

تقع أحداث المحاورة فى جامعة معروفة. نجد أمامنا قاعة صغيرة قديمة تتوسطها منضدة وبعض المقاعد. عندما تنظر من نافذة القاعة تطالعك الأشجار والطيور والسيارات المتراصة وحفاران يحاولان عمل فتحة كبيرة فى باطن الأرض. سرعان ما تمتلئ القاعة بالعديد من الأفراد ، فهذا "أرنولد" الذى يبدو جاداً مرتدياً نظارته ومتأبطا كتبه وقد ارتسمت على وجهه نظرة ازدراء ، وهذه "مورين"، فتاة ذات شعر أحمر جذاب تبدو مضطربة بعض الشيء ، ثم "ليزلى" شخص غير مهندم أو على الأقل غريب الأطوار – هناك طالب آخر فى القاعة يبدو على نفس هذه الهيئة – وهو يبدو على استعداد لمغادرة الدرس فى أى لحظة ، ثم " دونالد" وهو شخص يصعب وصفه يمسك فى إحدى يديه كراسة محاضرات وقلماً جاهزا للكتابة ، و " تشارلز " طالب كورى ذى نظرة ساخرة تلمحها من وراء نظارته اللامعة ، و"سيدنبرج" طالب أوربى يتحدث الإنجليزية بلكنة أوربية ثقيلة تبدو غير مريحة بعض الشيء فى هذا المكان ، و"لى فينج" طالب صينى ، متخصص على الأرجح فى الفيزياء أو الرياضيات كما يتبين من الكتب التى يصفها أمامه ، و" جاتينيو" ، طالب خجول صغير السن ، يبدو على هيئة من يقرضون الشعر ، و "جاك" دارس المنطق وهو شخص ذو عادات غير مألوفة وصاحب مجادلات دقيقة حول وظيفة المنطق من وجهة نظر أمريكية ويتأبط عادة حقيبة كبيرة. يدخل الدكتور "كول" ، الأستاذ المحاضر ، يبلغ من العمر ٣٢عاما على وجه التقريب ، وهو عضو جديد من أعضاء الجامعة ، يبدو أنه يتمتع ببعض الذكاء ، وقد سبق أن أنهى رسالته للدكتوراه عن مذهب الشك بإشراف البروفسير دونالد دافيدسون **Davidson** ويبدو مستعداً للمحاضرة ونشر المعرفة كما يفهمها.

يشرع **الدكتور كول** فى الحديث.

(يزأر الحفار الأول)

(ثم يزأر الحفار الثانى)

يعلق **ليزلى** على ذلك ضاحكاً ، يفهم **دونالد** السبب ويبدو عليه الاستياء.

يغادر **الدكتور كول** القاعة لحل المشكلة.

زئير مزدوج من الحفارين يصم الآذان.

يعود **الدكتور كول** بعد عشر دقائق ، يومئ للطلاب تجاه باب الخروج ، ثـم يغادر القاعة ويتبعه الطلاب وفى أعينهم نظرة احتجاج.

فى الطريق تسأل "**مورين**" "**آرنولد**": هل يتعلق هـذا الكـورس بموضـوع "طهى ما بعد الحداثة " Postmodern Cooking

ليزلى (يقهقه عاليا عند سماعه السؤال ويقول) : نعم حقاً هذا هـو الـدرس الخاص بذلك.

أرنولد : كلا ، الأمر ليس كذلك. هذا "سمنيار" خاص بنظرية المعرفة.

ليزلى : وما الفارق بين الأمرين ؛ دعها تنتظر.

مورين : غير أننى حقا أريد ...

يشير **دكتور كول** إلى قاعة أخرى قائلاً: هنا من فضلكم.

(نحن الآن فى قاعة ضخمة لا نوافذ لها ، تحتوى على منضدة وبعض المقاعد الجديدة غير المريحة).

يجلس **الدكتور كول** على رأس المنضدة قائلاً أعتذر لكم عن التـأخير والفوضى التى حدثت. نستطيع أخيراً أن نبدأ حديثنا عـن نظريـة المعرفـة Epistemology .

يطرق كلاً من "**ديفيد**" و "**بروس**" الباب متسائلين هل هـذه هـى محـاضرة الفلسفة ؟

يرد **دكتور كول** ببعض الضيق: هـذه أحـد محـاضرات الفلسـفة ، هنـاك محاضرات أخرى ...

ينظر "**ديفيد**" فى جدول المحاضرات قائلا: ... أعنى المحـاضرة الخاصـة بنظرية ... نظرية

بروس : نظرية المعرفة.

ديفيد : نعم تلك هى المحاضرة التى أعنيها.

دكتور كول (وقد ازداد ضيقه) : أتمنى أن تعرفا ما تريدان. اجلسا من فضلكما. (يجلس هو شخصيا ، ويفتح حقيبته ، ثم يخرج منها بعض المذكرات ونسخة من محاورة ثيتاتوس Theatetetus) حسنا ، أريد أن أقول لكم إنه من الأفضل أن يكون لحوارنا بؤرة اهتمام محددة بدلاً من مجرد النقاش دون تحديد ، ومن هنا أقترح أن نناقش اليوم محاورة ثيتاتوس لأفلاطون.

جاك : ألا يعد هذا أمراً رجعيا متخلفاً بعض الشيء ؟

دكتور كول : ماذا تعنى ؟

جاك : يخرج نسخة من المحاورة من حقيبته قائلا : لقد عاش ذلك الشخص (يقصد أفلاطون) منذ نحو ألف عام مضت ، ولم يكن لديه فكرة عن المنطق الحديث ولا العلم المعاصر ، فما الذى يمكن أن نتعلمه من أفلاطون عن المعرفة؟

بروس : وهل تعتقد يا **جاك** أن العلماء يعرفون ما هى المعرفة؟

جاك : العلماء لا يتحدثون عن المعرفة ، إنهم ينتجون المعرفة .

بروس : لا أدرى عن أى علم تتحدث ، بيد أن النزاع فى علم الاجتماع ، الذى هو مجال تخصصى ، ما زال قائما حول "المنهج الصحيح". فهم يقولون لنا بعدم إمكان قيام أى معرفة دون علم الإحصاء statistics. غير أن باحثين آخرين يعتقدون ، من ناحية أخرى ، بإمكان " استشعار" مجال الدراسة ، وهكذا فنحن ندرس حالات فردية مفصلة ثم يكتب الواحد منا عنها على طريقة كتاب الروايات. لقد أثيرت ضجة بسيطة حول كتاب " التحولات الاجتماعية فى الطب الامريكى" The social Transformation of American Medicine

والذى عالج فيه المؤلف بول ستار Paul Starr بعض الظواهر الطبية الهامة ، وقدم أدلة عديدة ، ولكن عازته الأرقام والإحصاءات ؛ ولهذا لم يهتم به العديد من علماء الاجتماع البارزين ؛ غير أن بعض علماء الاجتماع اهتموا بالكتاب ودافعوا عن رؤية مؤلفه وانتقدوا الطريقة التى يستخدم بها علم

الإحصاء. وفى مجال علم النفس هناك اتجاهات متباينة، فهناك السلوكيين ، وأصحاب مذهب الاستبطان ، وعلم نفس الأمراض العصابية ، وعلم النفس الإكلينيكي...

بروس : ألا تعد هذه المذاهب علوماً؟

جاك : هل لدى أحد (من أصحاب هذه المذاهب) نظرية تعادل فى بساطتها وجمالها نظرية نيوتن؟

ديفيد : كلا بالطبع ! فالإنسان أكثر تعقيداً من الكواكب ! لماذا ؟ لأن علومكم الطبيعية الرائعة لا تستطيع حتى أن تتنبأ بحالة الطقس ...

آرثر (الذى كان يسترق السمع من الخارج ثم دلف الى القاعة مخاطباً **جاك**): معذرة ، لم أستطع منع نفسى من سماع حديثك المرتفع ، أنا وظيفتى مؤرخ علوم. أعتقد أن فكرتك عن نيوتن مفرطة فى التبسيط إلى حد بعيد. إن ما نطلق عليه " بسيط وجميل " ليس هو نفس ما نطلق عليه كلمة "ناجح " - على الأقل فيما يختص بنظرية نيوتن. "فالبساطة والجمال" مبادئ أساسية عند نيوتن. أما " النجاح " فهى الطريقة التى يطبق بها نيوتن البساطة والجمال. وهنا نراه يستخدم مجموعة غير متسقة من الافتراضات الجديدة ، من بينها القول بأن الله يتدخل أحيانا ليمنع سقوط الكواكب. كما أن نيوتن كان فيلسوفا.

ولهذا فقد افترض عدة مبادئ تفسر الطريقة الصحيحة للتقدم ، ووضع مبادئ خاصة بالبحث وكان مصراً على التمسك بها. غير أن المشكلة تكمن فى مخالفته لتلك المبادئ عند شروعه فى عملية البحث. وينطبق هذا الأمر على العديد من علماء الفيزياء ، أعنى أن العلماء بمعنى من المعانى لا يعرفون ما يفعلون ...

جاك : نعم نعم ، يحدث هذا عندما يتحولون إلى التفلسف. وأنا أفهم سبب ارتباكهم عند انتقالهم إلى هذا المجال المحير(الفلسفة).

آرثر : وهل تظل أبحاثهم بمنأى عن هذا الخلط والارتباك ؟

جاك : حسناً ، إذا كانت الفلسفة تربك أبحاث العلماء ، فأن هذا يضيف سببا جديدا لضرورة إبعادها عن العلم.

آرثر : وكيف يتسنى لك ذلك ؟

جاك : بأن تبقى ما أمكنك مستعدا لاستخدام الملاحظات !

آرثر : وماذا عن التجارب ؟

جاك : أعنى الملاحظات والتجارب بالطبع !

آرثر : ولماذا التجارب ؟

جاك : لأن الملاحظات بالعين المجردة وحدها لا تكون دائماً محل ثقة.

آرثر : وكيف لك أن تعرف ذلك ؟

جاك : عن طريق استخدام ملاحظات أخرى .

آرثر : أتعنى أن ملاحظة معينة تخبرك ألا تثق فى ملاحظة أخرى؟ كيف يكون ذلك ؟

جاك : ألا تعرف ذلك ؟ حسناً – عندما تغمر عصا فى الماء – يبدو لك منحنيا. بيد أنك تعلم عن طريق اللمس أنه مستقيم.

آرثر : وكيف يتسنى لك معرفة ذلك ؟ إن الشعور باستقامة العصا قد يكون مزيفاً.

جاك : العصى لا تنحنى بمجرد غمرها فى الماء.

آرثر : ألا يحدث هذا ؟ اللهم إلا إذا لم اتبع الملاحظة التى نصحتنى باستخدامها ، أنظر (يأخذ كوبا من الماء كان أمام **دكتور كول** ويغمر فيه قلما) .

جاك : ولكن ماذا تشعر عندما تلمس القلم ؟

آرثر : لكى أكون أمينا معك فإنني أشعر ببرودة الماء ، ولست واثقاً من الحكم على شكل القلم. حتى إذا استطعت ذلك ، فإن كل ما أستطيعه ، وفقا لافتراضك ، هو أن أقرر الآتي: قلم منحنى عند النظر إليه مغمورا فى الماء، قلم مستقيم عند لمسه مغمورا فى الماء ، قلم لا يمكن مشاهدته عندما أغلق عينى ... الخ

جاك : هذا هراء ـــ هاك القلم !

آرثر : حسناً ، أنت تريد أن تتحدث عن شئ تظل خصائصه ثابتة حتى إذا لم يكن هناك من ينظر إليه – يمكنك ذلك ، ولكن عليك هنا أن تتجاوز الملاحظات.

جاك : أنا أتفق معك. ولكن هذا أمر بديهى ، لا يمت للفلسفة بصلة.

آرثر : كلا ، بل له صلة بالفلسفة ! فكثير من النقاش الفلسفى ، بما فى ذلك الحديث الذى يدور فى المحاورة التى أمامنا (ثيتاتوس) يتعلق تماماً بهذا الموضوع !

جاك : إذا كانت هذه هى الفلسفة فهنيئا لكم بها. أما أنا فأرى أن الافتراض بأن الأشياء ليست مجرد قائمة من الملاحظات وإنما كيانات تتمتع بخصائص معينة مجرد أمر بديهي – ولا تنسى أن العلماء أنفسهم يتبعون البديهي أو الحس المشترك.

آرثر : العلماء لا يفعلون ذلك ، على الأقل فيما يختص بالحس المشترك الذى تقصده ! يقول هيزنبرج Heisenberg فى أحد أبحاثه المبكرة أنه إذا كان كل ما لدينا خطوط طيف معينة ، ودرجة تكرار وشدة هذه الخطوط – دعنا نبحث عندئذ عن خطة تبين لنا كيفية ارتباط هذه الأمور دون افتراض أية موضوعات تحتية خارجية. ثم يقدم بعد ذلك مقاييس ، فى صورة قوائم معقدة.

جاك : أوافقك – فالعلماء يستعينون بالحس المشترك – طالما لم يتعارض ذلك مع التجربة. ولكن مازلنا لسنا بحاجة إلى الفلسفة.

آرثر : الأمور ليست بهذه البساطة ، فعندما نقول "تجربة" فنحن نعنى بذلك النتائج المعقدة للتجارب.

جاك : نعم.

آرثر : وكثيراً ما تحتوى التجارب المعقدة على مشكلات داخلية ، خاصة عندما نخوض غمار مجال بحثى جديد. فثمة مشكلات عملية – كأن لا تعمل الأجهزة بالطريقة المفترضة – ومشكلات نظرية – مثل إغفال بعض العوامل، أو تقديرها بطريقة خاطئة.

جاك : نحن نستخدم الكمبيوتر فى تقديراتنا.

آرثر : حتى مع استخدام الكمبيوتر لن تكون فى مأمن. فأجهزة الكمبيوتر تتم برمجتها لتقدم نتائج تقريبية قد تتراكم بطريقة تشوه النتائج. كمـــا أن هنـــاك مشكلات أخرى كثيرة. تأمل فقط المحاولات العديدة التى جرت للعثور علـــى الأقطاب المغناطيسية أو الكوارك المعزولquarks وغيرها. فقد نجح بعـــض العلماء فى العثور عليها ، بينما فشل البعض الآخر ، وهناك مـــن هـــم بيـــن بين...

جاك : ما علاقة كل هذا بالفلسفة ؟

آرثر : سأخبرك بعد برهة ! هل توافق على أنه من غير الحكمة افتراض أن كل التجارب فى ميدان بحثى جديد تقدم لنا على الفور نتائج متشابهة؟

جاك (متشككا) : نعم.

آرثر : إذن ، فقد تواجه النظرية الجيدة متاعب بسبب هذه الظاهرة. وأعنـــى بتعبير النظرية "الجيدة" تلك التى تتفق مع التجارب الدقيقة. وطالما أن إصلاح عيوب أى نظرية قد يستغرق أعواما ، بل وربما قرونا ، فنحن فى حاجة إلى طريقة للإبقاء على النظريات على قيد الحياة على الرغم من حقيقة تعارضها مع الأدلة.

جاك : قرون ؟

آرثر : بالتأكيد. تأمل النظرية الذرية ! لقد قدمها ديمقريطس منذ أمد بعيـــد. وتعرضت منذ ذلك التاريخ لانتقادات عديدة ولأسباب وجيهة ، وفقا للمعرفـــة المتاحة فى كل عصر. لقد اعتبر أحد المفكرين الأوربيين فى أواخر القـــرن الماضى هذه النظرية وحشاً بدائياً ليس له مكان فى العلم. وعلى الرغم مـــن ذلك فقد تم الإبقاء عليها وكان هذا أمرا حكيما. إذ أن الأفكار المســـتمدة مـــن النظرية الذرية قدمت كثيرا من الإسهامات الهامة للعلم. أو تأمل فكرة حركـــة دوران الأرض ! فقد وجدت تلك الفكرة منذ زمن سحيق ، وقد أنتقدها أرسطو انتقادا حادا ومعقولا تماماً. ولكن الفكرة استمرت وكان لهـــا أهميتهـــا عنـــد كوبرنيقس الذى تبناها وتحولت على يديه إلى فكرة ناجحة تماما. وهكذا فمن

الأفضل الإبقاء على النظريات المفندة ! ومن الأفضل أيضاً ألا تسترشد بالخبرة الحسية والتجربة فقط !

جاك : إذن ماذا سيرشدنا ؟ الإيمان ؟

آرثر : كلا – فنحن علماء ، ومن ثم يجب أن نحاول أن نستخدم الحجج والبراهين. وتعتمد البراهين التى نريدها أساسا على الملاحظات ، غير أنها لا تمنح هذه الملاحظات سلطة مطلقة نهائية. فالبراهين تفترض عالما مستقلا عن العالم الذى تحدثنا عنه الملاحظات المتاحة وإن كانت تلك الملاحظات تؤيد فى الآن عينه وجهة نظر ثم تفنيدها.

جاك : ولكن هذا لون من ألوان الميتافيزيقا !

آرثر : تماما ! إذ يجب عليك أن تختار – فإذا أردت أن تمارس العلم بطريقة مثمرة فإما أن تعتمد على الإيمان ، أو على العقل. فإذا انحزت إلى جانب العقل وجب عليك أن تكون ميتافيزيقيا ، لأن الميتافيزيقا تعرف بأنها دراسة لا تعتمد على الملاحظات وإنما تدرس مستقلة عن تقارير الملاحظات. بعبارة أخرى ، العلم الجيد يحتاج الميتافيزيقا ليستمر ، وما كان للعلم أن يبلغ ما بلغه دون الاستعانة بهذا البعد الفلسفى ...

جاك : حسنا ، يجب أن أفكر مليا فى ذلك ! وإن كان مثل هذا اللون من الفلسفة يجب أن يكون لصيقا بالبحث العلمى – ولكن السؤال هنا هل ينطبق هذا الأمر على محاورة أفلاطون (يشير إلي كتابه) ؟ – وهى محاورة تكاد تشبه المسلسلات التلفزيونية الهابطة ، مجرد سلسلة من الثرثرة ...

جاتينيو : لقد كان أفلاطون شاعراً ...

جاك : حسناً ، هذا يؤيد وجهة نظرى ، فهذا ليس بالتأكيد نمط الفلسفة الذى نتطلع إليه !

آرنولد (مخاطبا **جاتينيو**) : لا أعتقد أنك تستطيع أن تقول أن أفلاطون كان شاعراً ! إذ أن لأفلاطون انتقادات مريرة للشعر. بل إنه تحدث عن معركة طويلة أبدية بين الشعر والفلسفة ، وقد انحاز إلى صف الفلاسفة فى هذه المعركة.

جاك (يعود إلي أسلوبه الهجومى) : إن الأمور أسوأ مما كنت أعتقد! فأفلاطون لم يكن يحب الشعر ولم يعرف كيف يكتب مقالا جيدا ، ومن ثم فقد لجأ إلى نوع من الشعر مثير للملل...

آرنولد : رويدك ! رويدك ! دعنى أوضح لك ! نعم كان أفلاطون معادياً للشعر ، ولكنه كان أيضا معادياً لما يمكن أن نطلق عليه اسم النثر العلمي وقد ذكر ذلك صراحة...

مورين : هل نجد ما تتحدثون عنه فى هذه المحاورة ؟

آرنولد : كلا ، ولكنه ذكر فى محاورة أخرى أسمها "فيدروس" أن المقال العلمى لون من ألوان الخداع والزيف.

بروس : أليس هناك بحث منشور بنفس هذا العنوان : "هل البحث العلمى مزيف؟"

آرثر : بلى ، أنت على حق ، لقد كتب Medawar الحائز على جائزة نوبل مقالا بهذا العنوان.

آرنولد : على أية حال – كان أفلاطون مهموما بأن المقال يقدم نتائج ، وقد يحتوى على بعض البراهين ، بيد أن مشكلته تكمن فى أنه يكرر نفس الأشياء مرات ومرات.

آرثر : حسنا ، المحاورة المكتوبة أيضا تكرر نفس الأشياء مرات عديدة ، والاختلاف الوحيد يكمن فى أن الخط الأساسى فى المحاورات يتفوه به أشخاص متعددون لا فرد واحد. أما الأبحاث العلمية فتقدم لنا حكاية خيالية Fairytale. عندما أجرى توماس كون Kuhn مقابلات مع بعض ممن بقوا على قيد الحياة من العلماء الذين ساهموا فى ثورة "الكوانتم" فإنهم رددوا أمامه ما سبق وصدر لهم مطبوعاً. غير أنه كان قد أعد نفسه لذلك إعداداً جيدا ، فتلى عليهم رسائل وتقارير غير رسمية تتعارض مع ما ذكروه فبدءوا عند ذلك يتذكرون ببطء ما حدث بالفعل. وينطبق نفس ما ذكرته آنفا أيضا على نيوتن Newton. فالقيام بالأبحاث العلمية يعنى التفاعل مع موضوعات لها خصوصيتها ...

جاك : لدينا أجهزة تجريب قياسية تقوم بذلك.

آرثر : ما أقل معرفتكم أيها المنطقيون بما يدور فى المعامل والمراصد ! إن الأجهزة القياسية مقبولة بالنسبة للتجارب العادية: غير أنها لا تصلح بالنسبة للبحث الذى يروم السعى نحو آفاق جديدة. ففى مثل هذه الحالات يتعين على الباحث أن يستخدم أجهزة قياسية بطريقة غير قياسية ، أو أن يبتدع أشياء جديدة تماما لا يكون على دراية بأعراضها الجانبية، وهكذا فعلى الباحث أن يتعرف على أجهزته كما لو كان يتعرف على شخص معين الخ - كل هذه الأمور غير موجودة فى التفسيرات التقليدية المنشورة ، وهذا الموضوع تجرى مناقشته الآن فى المؤتمرات العلمية وحلقات البحث. وهذا الضرب من المناقشات التى يتم فيها تحديد الموضوع ثم يترك مصيره للحوار يعد أمرا ضروريا للمعرفة العلمية ، وتزداد هذه الأهمية فى المجالات التى تتقدم بسرعة كبيرة. إن العالم فى مجال الرياضيات وفيزياء الطاقة وبيولوجيا الجزئيات الذى يكتفى فقط بمعرفة معظم المقالات البحثية الحديثة فى مجال تخصصه لا يعتبر فقط متخلفا عدة أشهر عن أحدث شئ ، بل لا يفهم حتى ما تدور حوله الأبحاث المنشورة ؛ ومن هنا قد يصيبه اليأس والإحباط. لقد قرأت ، أيضا ، محاورة "فيدروس" ويبدو لى إن هذا هو عين ما كان يقصده أفلاطون ، فقد كان يعنى ما يطلق عليه اسم "تبادل حى" ، وهذا التبادل الحى برمته ، وليس مجرد جزء مقتطع منه ، هو الذى يحدد المعرفة. وكان من الطبيعى أن يستخدم أفلاطون فى ذلك أسلوب المحاورة لا النثر العلمى الذى كان معروفا ومتطورا فى عصره. ويبقى مع ذلك أن المحاورة لا تتضمن معرفة ، وإنما تكمن المعرفة فى أسلوب الحوار وفى ما يتذكره أولئك الذين يقرئون المحاورة. ومن هنا فأنا أريد أن أقول أن أفلاطون كان عصريا من هذه الجهة على الأقل !

دونالد (فى صوت منخفض) : هل نستطيع أن نبدأ بأفلاطون الآن ؟ إن أمامنا نص محدد - وكل هذا الحديث عن العلم يقع بعيدا عن مجال اهتماماتي

، فضلا عن أنه لا يمت بصلة لحلقة دراسية تدور حول نظرية المعرفة. نحن موجودون هنا لنحدد ماهية المعرفة...

مورين : لقد اختلط الأمر على أنا أيضا ، هل هذه المحاضرة تختص بـــ...

ليزلى : أهى تختص بطهى ما بعد الحداثة ؟ نعم هى كذلك ! ولكن أنتم على حق. أريد أن أسمع المزيد عن أفلاطون. لقد نظرت للتو فى الصفحة الأخيرة (يأخذ نسخة من المحاورة من **دونالد** ويشير إلى فقرة محـــددة) ووجـــدت الأمر غريبا. إذ بعد أن ينتهى كل شئ ينصرف سقراط من المحكمة. ألم يتـــم إعدام سقراط ؟

دكتور كول : حسنا ، أعتقد أننا ينبغى أن نستهل الأمر منذ البداية.

سيدبنرج : أتسمحون لى أن أقول شيئا ؟

دكتور كول (ينظر إلى السقف فى يأس).

سيدنبرج : كلا ، أعتقد أنه أمر هام. لقد ظننت فى بداية الأمر أن هذا الســـيد (يشير إلى **ليزلى**) ليس له اهتمام كبير بالفلسفة...

ليزلى: يمكنك أن تؤكد ما قلت مرة أخرى ...

سيدنبرج : كلا ، كلا ، أنت كذلك. أنظر ! لقد نظرت فى الصفحة الأخـــيرة وفجأة أصبحت مهتماً.

ليزلى : إن فى الأمر بعض الغرابة ...

سيدنبرج : لا غرابة البتة ! لقد أتهم سقراط فعلاً بالجحود وكـــان عليـــه أن يواجه المحاكمة. وكان أحد الاحتمالات أن يحكم عليه بالإعدام. ونحن نـــراه فى محاورة فيدون Phaedo وقد صدر عليه حكم الإعدام بالفعل ، وكان من المفترض أن يتجرع السم عند غروب الشمس ، وقد فعل ذلك واسلم الروح ، فى نهاية المحاورة.

مورين (تبدأ الأمور لها أقل خلطاً ومن ثم تبدى اهتماماً): أتعنى أن سقراط كان يتفلسف ، وهو يعلم أنه سيواجه الموت ؟

ليزلى : يا للغرابة ! أستاذ يواصل الحديث وهو يدرك أن الجلاديـــن الذيـــن سيعدمونه خارج القاعة. كيف يمكن تصور كل هذه الأمور؟

سيدنبرج (في اهتمام شديد) : ليس هذا فقط. بل إن الشخصيتين الرئيسيتين في المحاورة التى يريد **الدكتور كول** قراءتها معنا وهما ثيتاتوس وثيودورس، كانا شخصان حقيقيان من الناحية التاريخية ، فقد كانا من العلماء الأفذاذ في الرياضيات. يقول أفلاطون في مقدمة المحاورة أن ثيتاتوس أصيب بجرح نافذ في أحد المعارك ثم مات بعد فترة وجيزة مصابا بالدوسنتاريا. ومن هنا يمكن القول أن المحاورة كتبت تخليدا لذكراه ، أعنى لتأبين عالم رياضيات عظيم ومقاتل مغوار. إننا نقف أمام أمور هامة جدا. أولا جاء هذا العمل في صورة محاورة ؛ أى لا صلة لها بالشعر بالمعنى الظاهرى أى الكلام الجميل المنمق ؛ فهى تنبثق من مفهوم خاص للمعرفة – وهو مفهوم مازال سائداً بيننا حتى اليوم ، كما قال آرثر ، ليس فقط في "الموضوعات المتخلفة" (**يحدج جاك** بنظرة ذات مغزى) ، وإنما في أكثر العلوم احتراماً وأسرعها تطوراً كالرياضيات وفيزياء الطاقة. ثانياً ، يوجد ما يمكن أن نطلق عليه اسم "بعد وجودى" – وهو يتمثل في الطريقة التى صيغ بها النقاش واختلاطه بمواقف متطرفة من واقع الحياة. وأنا أشعر أن هذا الأمر يختلف عن الكثير من جوانب الفلسفة الحديثة التى نقوم فيها فقط بتحليل الخصائص المنطقية للتصورات ثم نعتقد أن ذلك هو غاية المراد.

ديفيد (بتردد) : لقد قرأت المحاورة حتى أكون على استعداد لفهم المحاضرة. وقد تعجبت أيضا من نهايتها. بيد أنى لا أظن أن لها تأثيرا على الحوار. فالحوار يماثل أحد دروس الفلسفة التى حضرتها ، فثمة شخص (فيلسوف) يذكر أن المعرفة هى الخبرة الحسية ...

دكتور كول : تقصد الإدراك الحسى.

ديفيد: ... حسناً ، المعرفة هى الإدراك الحسى ، ويقدم فيلسوفٌ آخر أمثلة معارضة لذلك وهلم جراً. حقاً ، المحاورة طويلة ومملة بعض الشىء – ولكن لا يلاحظ أحد فيها أى بادرة عن موضوع الموت. وفجأة في النهاية نجد سقراط يقول أن عليه أن يذهب إلى المحكمة. ولعله ذكر أيضاً أنه جائع ويرغب في تناول طعام الغذاء. على أية حال ، يبدو أن أفلاطون أضاف هذه

الأشياء لتضفى نوعاً من التأثير على المحاورة ، وإن كانت لا تقدم أى بعـــد وجودى للتصورات ...

سيدنبرج : ولكنه فى محاورة فيدون ...

تشارلز : المحاورة معى الآن (يرفع محاورة فيدون إلى أعلى) وأعتقد أنها أسوأ من المحاورة الأولى. كيف تبدأ هذه المحاورة ؟ إنها تبدأ بسقراط وحوله بعض حوارييه. ثم هناك زوجته (يقرأ من المحاورة) وهـــى تحمـــل علـــى ذراعيها ابن سقراط الصغير ، ثم تـــنتحب وتقول ســـيتحدث الآن أصدقـــاؤك إليك للمرة الأخيرة يا سقراط . وطبقاً لأقوال فيدون المتحامل ، وهو المتحدث الرئيسى فى تلك المحاورة ، فإن زوجة سقراط قالت كل ما يمكن أن تقولـــه امرأة فى مثل هذه المناسبة الحزينة ، ولكن ماذا فعل ســـقراط ؟ لقـــد ســـأل تلاميذه أن يصحبوها إلى المنزل حتى يتمكن من الحديث عن أمور أسمى من ذلك الهراء. وهذا فى اعتقادى منتهى القسوة.

مورين : ولكنه كان سيموت !

تشارلز : لماذا نتسامح مع أى شخص وندعه يتصرف برعونة لمجرد أنـــه على وشك الموت ؟

بروس : وعلى الرغم من أنه المخطئ ؟

مورين : ماذا تعنى ؟

بروس: ألم يكن من المفروض أن يخاطب الجمعية العامة التى أدانته وأتاحت له الفرصة ليدافع عن نفسه ؟ وبدلاً من ذلك سخر من أعضاءها - اقرأ فـــى ذلك محاورة الدفاع ! لقد أدانه بعد ذلك أكبر عدد ممكن من أعضاء الجمعية. إن عدم توقيره لأعضاء المحكمة لا يفوقه سوى عدم احترامه لزوجته وابنه.

مورين : ولكنه مات مؤمناً بآرائه ولم يتنازل عنها.

تشارلز: إن الأمر ينطبق على جورنج Goering فى محاكمات النازية. يقول جورنج إن "القوة" هى التى تحدد أى أمر - وأن الحياة تطيب لنا ما استمرت لدينا القوة. لقد انتحر بعد ذلك ، تماماً كما فعل سقراط.

سيدنبرج : لا أعتقد أن بمقدورك مقارنة الأشخاص بهذه الطريقة.

ليزلى : ولم لا ؟ فكلاهما ينتميان إلى الجنس البشرى ! إن **تشارلز** على حق. فالموت فى سبيل مبادئ تقتنع بها لا يدخلك آلياً فى زمرة القديسين. أنظر هنا إلى ما يقول – لقد عثرت على الفقرة. ماذا تعنى هذه الأرقام، هناك رقم 173 فى الهامش ...

دكتور كول (يهم بالكلام)

آرنولد (أسرع منه) : تلك هى أرقام الصفحات للطبعات القياسية المعتمدة السائدة التى يشير إليها المتخصصون ...

ليزلى: يا للعجب !

آرنولد : كلا ، فالمسألة عملية تماماً. إذ لدينا طبعات عديدة ، وترجمات كثيرة وهلم جراً ، وهى تختلف فيما بينها. ومن هنا فبدلاً من الإشارة إلى ترجمة يكتنفها الغموض ولا يعرفها أحد فانك تذكر لها رقما محددا من الطبعة القياسية ...

ليزلى: إن سقراط يريد أن يقول هنا أن ثمة فارقا بين المواطن العادى والفيلسوف. وأنا أوافق على ما قاله عن الفيلسوف – فهو يقول أنه يتنقل على هواه من موضوع إلى موضوع ثان ، ومن ثان إلى ثالث – وهذه الطريقة تشبه تلك التى نتحدث بها الآن وهذا هو سبب تواجدى بينكم هنا حتى الآن. ولكنه يذكر بعد ذلك أن "المحامى" يكون دائما على عجلة من أمره ، كما توجد قيود وضوابط للوقت فى المحكمة. ثم يهزأ من المحامى لأنه دائماً على عجلة من أمره وكأن "السباق يدور حول حياته نفسها". إن لدى انطباعاً أنه لم يكن يقصد بذلك المحامين فقط ، وإنما يقصد أيضا المواطن العادى. فليس لدى سواد الناس الثروة التى كانت لأفلاطون ، هذا فضلا عن أن عليهم أن يرعوا أسرهم ، وأطفالهم. كما أن الحياة الفكرية التى قد تستغرق زمنا برمته لحل مشكلات بسيطة لا تعنيهم – لأنها ستؤدى بهم إلى الفاقة وشظف العيش. ومن هنا فعليهم أن يفكروا بطريقة مختلفة. والآن يأتى سقراط ليسخر منهم ويحتقرهم كما احتقر أعضاء المحكمة بدلا من أن يرثى لحالهم ويحاول تقييم الحلول التى يقدمونها لمشكلاتهم.

دكتور كول : حسناً ، لاحظوا أنكم تتحدثوا عن أفلاطون لا عن سقراط.

ليزلي (في شئ من الغضب) : أفلاطون ، أو سقراط ، الأمــــر لا يعنينـــي كثيرا. إن لدينا فكرة فلسفية ، تقع أحداثهـــا فـــي هـــذه المحـــاورة "ببعدهـــا الوجودى"، كما تتضمن المحاورة أن أفكار الناس ونضالهم من أجل أنفســـهم وأسرهم يستحق أن نعامله باحتقار.

جاتينيو : أعتقد أنك على صواب (يخرج كتاباً من حقيبته). معى هنا ترجمة ألمانية لمحاورة فيدون كتب لها المقدمة أولف جيجون Olof Gigon ، وهـــو باحث كلاسيكى ذى باع طويل ! أصغ إليه يعلق على ما فعله سقراط عندمـــا طرد زوجته وابنه الصغير. ماذا يقول جيحون ؟: " إنهما (الزوجة والابـــن) يمثلان عالم البراءة الإنسانية الخالية من الفلسفة التى تستوجب الاحترام ولكن كان عليهما الانسحاب عندما تتبوأ الفلسفة مسرح الأحداث – إن هـــذا القـــول يعنى أن الناس العاديين الذين ليس لديهم الحاسة الفلسفية ليس لهم مكان عندما يتحدث الفيلسوف الذى قد يتصادف أن يكون زوجاً فى نفس الوقت "

مورين : إذن فكل هذا الحديث عن الموت مجرد لغو.

جاتينيو: كلا ، لا أظن ذلك. لقد أراد أفلاطون أن يضفى طابعا دراميـــاً لمـــا ظن أنه المعرفة الصحيحة وذلك بعقد صلة بينها وبين رؤية جديدة للموت. لقد كان لديه على الأقل أفق أرحب من أولئك العلماء الذين تتشدق بهم (ينظـــــر إلى جاك).

تشارلز: إن كل الفاشستيين يمتلكون ما تسميه الأفق الرحب ، فالعلم بالنســـبة للفاشستي مجرد جزء من كل أكبر ، أو من كل ما يقوله النـــاس فـــي هـــذا الصدد...

سيدنبرج (بتردد) : ينتابنى بعض القلق من طريقة حديثكم عن أفلاطـــون. فأنا أعلم أن احترام التعليم أصبح اليوم (موضة قديمة) ، بل وكثيرا ما يساء استغلال التعليم. وأنا اعتقد أيها السادة أنكم شططتم بعيدا بعض الشيء . فأنا أنتمى إلى جيل يعتقد اعتقاداً كبيراً فى المعرفة والتنوير. فكل شـــخص فـــى جيلى كان يدرك مكانة العلماء ويجلهم ، ولا أستثنى من ذلك الفقراء. فالمثقفين

والفلاسفة والشعراء فى اعتقادنا هم الذين أضاءوا لنا الطريق ، وبينوا لنـــا أن هناك ما هو أسمى من تلك الحياة البائسة التى نحياها. انظروا إلى ، فأنا انتمى إلى عائلة فقيرة مطحونة ، أى إلى "سواد الناس" ، الذين تتحدثون عنهم ؛ وإن كنت لا أعتقد أنكم حقا تعرفونهم ، فأنتم على الأقل ، لا تعرفون فقراء البلـــد التى نزحت منها. لقد قال والدى: " ينبغى أن يحصل ابننا على ما حرمنا نحن منه ، أعنى التعليم ، وينبغى أن يقرأ الكتب التى كنا نكتفى بالفرجة عليها من بعيد والتى ما كنا لنفهمها لو حصلنا عليها ". وهكـــذا كــافحت أســرتى ؛ واقتصدت حتى تتمكن من تعليمي. وأنا نفس عملت كصبى مساعد فى مطبعة لتجليد الكتب. وذات يوم ، وقعت تحت يدى طبعة من أربعة عشر مجلداً من أعمال أفلاطون ، وكانت فى حالة رثة متهالكة وكان على أن أعد لها أغلفـــة جديدة. ولا يمكنك أن تتخيل ما شعرت به آنذاك. لقد كنت كـــالأرض البكــر الموعودة – ولكن المعوقات كانت عديدة. فلم يكن فى مقدرتى شـــراء تلــك الكتب والاحتفاظ بها. وحتى على افتراض أننى استطعت ذلك ، فهـــل كــان بوسعى فهمها ؟ لقد فتحت أحد تلك المجلدات وقــرأت فقــرة يتحــدث فيهـــا سقراط. لا أتذكر ما قاله الآن ، ولكنى أتذكر جيداً أنى شعرت كما لو كـــان سقراط يتحدث إلى شخصيا ، فى أسلوب رقيق عـــذب وإن غلفتـــه بعـض السخرية. ثم جاء النازيون. لقد كان هنـــاك مـــن الطـــلاب مـــن يؤيدهـــم ، وأعذرونى عندما أقول أنهم كانوا أشخاصاً لهم احترامهم – يتحدثون مثلكـــم برنة احتقار. لقد أعلنوا أننا نمر بعهد جديد ، ومن ثم فعلينا أن ننســـى كـــل أولئك الكتاب الأقدمين ! أنا اعترف بأن أفلاطون كثيرا مـــا كـــان يتحاشـــى الموضوعات التافهة ونادراً ما يسخر منها. غير أنى لا أعتقد أنه سخر مـــن أولئك الذين كانوا جزءا من هذه الموضوعات ؛ ولكنه سخر من السفسطائيين وطريقتهم الدجماطيقية فى الحكم على الأمور. أما الناس العاديين ، على الأقل أولئك الذين أعرفهم ، فليسوا كذلك. فهم يأملون فى حياة أفضل ، إن لم تكـــن من أجل أنفسهم ، فعلى الأقل من أجل أطفالهم. هل تعرفون أن هنـــاك أمـــرا هاما يتعلق بتاريخ المحاورات. فالمحاورة الأولى التى كتبها أفلاطون بعد وفاة

سقراط ليس لها أدنى علاقة بهذه الواقعة. وإنما جاء ذلك في محاورات كوميدية مثل أوثيديموس Euthydemus أو إيون Ion التي حفلت بالسخرية والتهكم. أما محاورات الدفاع وفيدون وثيتاتوس فمن المفترض أنها كتبت في وقت لاحق بعد أن استوعب النظرية الفيثاغورية في الحياة بعد الموت.

وهكذا أصبح للموت عنده جانب مختلف ، فالموت بداية وليس نهاية. حقا إن سقراط ، أعني سقراط الحقيقي ، لم يستوعب معنى الديمقراطية. لقد أدرك أن هناك مشكلات ، ونسبت إليه آراء يسخر فيها من الديمقراطية كمؤسسة يمكن أن يتحول فيها الحمار إلى حصان إذا صوت عدد كاف من الناس لصالحه. حسنا ، أليست هذه مشكلة نواجه مثلها اليوم ؟ فمتى كنا نناقش دور العلم في المجتمع ، خاصة في المجتمعات الديمقراطية ؟ فليس كل شئ يمكن إقراره بالاقتراع – ولكن أين الحدود ومن الذي سيرسم معالمها ؟ لقد كانت إجابة أفلاطون واضحة: يرسم الحدود أولئك الذين درسوا الأمر أي الحكماء من الرجال ! لقد آمنت أنا كما آمن والدي بنفس هذا الأمر. لقد توافر لأفلاطون بالطبع الوقت والمال الذي لم يتوافرا لنا –ولكن هل نلومه على ذلك ! فهو على الأقل لم يبعثر المال في الغراميات ، وسباق الخيل والمغامرات السياسية شأن نظراءه من أبناء الطبقة الثرية – وإنما كان مولعا بسقراط الفقير القبيح صاحب الأطوار الغريبة. وقد كتب عنه ليس لمجرد التكريم ، وإنما ليضع أساساً لحياة أفضل بصورة تكاد تماثل نضال حركات السلام المعاصرة في بحثها عن حياة أفضل. ودعنا لا ننسى أن تلك الأحداث وقعت إبان الحرب البلوبونيزية ، والاغتيالات السياسية ؛ وهي فترة أطيح فيها بالديمقراطية ثم تم استردادها ، والتآمر عليها مرة أخرى. كل ما أردت أن أقوله هو أننا ينبغي أن نذكر هؤلاء الفلاسفة بالعرفان لا أن نسخر منهم ...

لي فينج : أنا أعي ما تريد أن تقول يا سيدي ، وأنا متعاطف معك تماما ، ولا يرجع تعاطفي فقط لاعتقادي أن أي مجتمع أو أمة تحتاج إلى رجال حكماء وإنما أيضا لاعتقادي أن أي حياة ليس فيها مسحة من احترام لأي شئ لهي حياة ضحلة خاوية. بيد أنني أرى أننا سنواجه مشكلة إذا لم يتوازن هذا

الاحترام والتوقير بشيء من الشك البناء. كما أعتقد أن التــــاريخ المعــاصر لبلدى خير مثال على ذلك ...

جاتينيو : ولكن لدينا مشكلات هنا بين ظهرانينا ؛ ربما تبدو هذه المشـــكلات تافهة مقارنة بما كنت تتحدث عنه ، غير أنى أعتقد أنها السبب فى رد الفعــل العنيف الذى أبداه **ليزلى وتشارلز**. إن بعض الأساتذة وطلاب الدراسات العليا هنا يتحدثون عن العلامات المضيئة فى حياتهم المهنية كما لو كانت آلهــــة ؛ ويعجزون عن خط سطر واحد دون الاستشهاد بنيتـــــشة ، أو هيدجـــر ، أو دريدا ، كما أن حياتهم العلمية تتمحور فى التأرجح يمينا ويسارا بين مجموعة قليلة من الأشخاص والمذاهب. ويبدو مرجحا يا سيدى (يوجه حديثـــه إلـــى **سيدنبرج**) أنك عشت حياتك فى زمن ومجتمع كان للناس فيه علاقة شخصية مع الحكماء وما يقولونه. ولا أظن أن مثل هذه العلاقة الشـــخصية الحميمــة موجودة الآن. فنحن نحاول الآن أن نتكيف مع ضغوط معينة ، وهكذا قبـــدلا من الحوار الحى الذى يبغيه أفلاطون فإن ما لدينا مجـــرد عبـــارات جوفـــاء مرصوصة بطريقة منظمة. إنها ظاهرة كريهة – ومـــن العجـــب أن **لـــيزلى وتشارلز** انتابهما الغضب حين شاهدا أمراً مشابهاً ، أو قل يتشابه مــــع ذلـــك ظاهريا عند مؤلف قديم. وهناك بعد ذلك أمرا آخر – الطريقة الديمقراطية فى التعامل مع الناس – وأعنى بها الطريقة التى يبدو أن أهل اثينا عــــاملوا بهـــا سقراط . إذ يبدو أنهم قالوا : "نعم" إن سقراط هذا معروف لنا ؛ فهو ســـخيف إلى حد ما ، كما إنه لا يحسن سوى التسكع ومضايقة الناس – ولكنـــــه فـــى حقيقة الأمر ليس بالإنسان السئ فهو يتفوه أحيانا بأشياء فى غاية الذكاء. لقد أغرقوا فى الضحك عندما شاهدوه على خشبة المسرح – فى مسرحية *السحب* لأريستوفان – ويبدو أن سقراط نفسه شاركهم الضحك. لقـــد امـــتزج عنـــده الاحترام بالشك ، بل وأحيانا الاحترام بالسخرية. بل ونستطيع أن نذهب إلـــى أبعد من كل هذا. فإذا كنا نثق فى أقوال هيرقليطس ، فإن أهل أفسوس قـــالوا كلاما من قبيل: نحن لا نريد أن يكون بيننا شخص هو الأفضل – دعوا مثـــل هذا الشخص يعيش بعيدا فى مكان آخر وبين قوم آخرين. وأنا أعتقد أن مثل

هذا الاتجاه له مغزى هام. فهو لا يعنى أن كل صاحب معرفة يتم إقصاؤه من المجتمع – وإنما يتم فقط استبعاد أولئك الذين يرغبون بفضل معرفتهم المتميزة أن يحصلوا على معاملة خاصة ! على أية حال ، السخرية أفضل ألف مرة من القتل أو النقد الهدام المدمر الذى يرفع من قدر الناقد ويسمو به إلى مكانة الشخص المنتقد – وغنى عن البيان أنك لا تصبح عظيما من نقد الجهلة الأغبياء. وينتابنى الشك فى أن هذا هو السر فى أن غير الموهوبين من الكتاب يصرون على الاهتمام باضطرابهم من غير الموهوبين.

دكتور كول : أعتقد أننا شططنا بعيدا عن موضوعنا. إذ لا يمكنكم الحكم على كاتب ما من خلال قراءة بضعة سطور منتزعة من سياقها. هيا بنا إذن نبدأ قراءة المحاورة بطريقة أكثر اتساقا ثم نحكم بعد ذلك عليها ؟ إن لأفلاطون آراءا هامة جدا فى موضوع المعرفة – على سبيل المثال له آراء عن المذهب النسبى. لابد أنكم دون شك سمعتم عن المذهب النسبى.

تشارلز: هل تعنى بذلك فيرابند ؟

دكتوركول (مصدوما) : كلا ، كلا بالتأكيد. ولكنى أقصد مفكرين أكفاء يعتقدون أن لديهم حججا تثبت أن أى شئ تقوله وأى أسباب وحجج تسوقها للتدليل على ما تقول تعتمد على "السياق الثقافى" أى تتوقف على نمط الحياة التى تحياها.

لى فينج : هل يعنى ذلك أن القوانين العلمية ليست كلية الصدق ؟ أى صادقة فى كل مكان ؟

دكتور كول : بلى ! فإذا كنت تنتمى إلى الحضارة الغربية فهى صحيحة، أى إنها تكون صحيحة بالنسبة إلى الإجراءات والمقاييس التى تطورت فى ظل تلك الحضارة – ولكنها بالنسبة لحضارة أخرى لا تكون فقط غير صادقة وإنما أيضا لا معنى لها.

جاك : لأن الناس فى تلك الحضارات لا تفهمهما.

دكتور كول : كلا ، ليس لهذا السبب فقط ، وإنما لاختلاف معايير تقييم ما له معنى وما ليس له معنى من الأشياء. فإذا افترضنا أن قوانين كبلر تم عرضها

لمثل أولئك الناس فهم لن يسألوا فقط " ماذا تعنى هـذه القوانيـن؟" – وإنما سيقولون "هذا لغو بلا معنى".

بروس : هل وجه أحد إليهم مثل هذا السؤال ؟

دكتور كول : لا أعرف – ولكن هذا أمر لا يتعلق بـالموضوع ، فأصحـاب المذهب النسبى يقدمون لنا هنا حجة منطقية وجيهة.

جاك : أنت تعنى أن أصحاب حضارة معينه كالافار Afar لا يقولـون عـن نظرية نيوتن "هذه نظرية لا معنى لها" وإنما يقولون " إذا حكمنا عليهـا مـن خلال المعايير المتضمنة فى نسق الفكر الذى طورناه تكون بلا معنى".

دكتور كول : نعم.

جاك : وهذا يعنى أن **الآفار** ، أو أى ثقافة أخرى تمتلك "نسقا فكريا" يمكن أن يستخدم لإصدار مثل هذه الأحكام.

دكتور كول : نعم.

جاك : ولكن هل حقا لديهم ذلك ؟ أليس هذا سؤالا امبريقياً ؟ ومن الذى أختبر هذا السؤال الامبريقى ؟

دكتور كول : علماء اللغة وعلماء الاجتماع.

جاك : ولكن إذا كانت نظرية نيوتن لا معنى لها بالنسبة لثقافة ما ، أو فـترة زمنية معينة ، فكيف يتسنى لأصحاب هذه الثقافة أن يتعلموهـا بـل وكيـف جاءت النظرية أصلاً إلى الوجود ؟

بروس : هناك ثورات تحدث – ألم تقرأ كتاب **كون**[1] ؟ إن التحـولات التـى تحدث بين أنماط مختلفة من التفكير تؤدى إلى ثورة فى المقاييس، والمبـادئ الأساسية والأشخاص.

جاك : هذا مجرد رأى فقط! أنا لا أعرف فكر "كون" بدرجة كافية وأتسـاءل كيف تتقدم مثل هذه الثورات. ألا يتحاور الناس خلال الثورات؟

بروس : نعم يحدث ذلك.

---

[1] يقصد كتاب توماس كون **بنية الثورات العلمية**(المترجم)

جاك : وهل يكون لهذا الحوار معنى ؟
دكتور كول : بمعنى من المعانى ، لا.
تشارلز (بازدراء) : وأنت تعنى بتعبير "بمعنى من المعانى" : أن البراهين يكون لها معنى فقط نسبة الى مذهب معين.
دكتور كول : نعم.
تشارلز : ولكن جاك شكك فى هذا الأمر ، ومن ثم لا يمكنك استخدامه للإجابة عن سؤاله ، أعنى عن السؤال : هل هناك معنى للبراهين الانتقالية ؟ ويتعين عليك البحث عن الإجابة بصورة مختلفة.
دكتور كول : كيف ؟
تشارلز : من خلال فحص كيفية استجابة الناس لهذه البراهين مثلا.
دكتور كول : حسنا ، أحد الأمور التى نتعلمها من التاريخ هى أن هناك باستمرار جماعات جديدة تنشأ ، وأخرى قديمة تضمحل ...
تشارلز : تقصد أن هذا يبرهن على أن الحجج الانتقالية لا يكون لها تأثير؟
دكتور كول : لم يعد الأمر يتعلق بالحجج ، وإنما هى مسألة اعتناق. فالمجموعات الجديدة التى تتشكل تعتنق مقاييس جديدة.
تشارلز : رويدك ! أولا ، الوقائع التى تسوقها ليست صحيحة ، فالعديد من الأرسطيين أصبحوا ، على سبيل المثال ، كوبرنيقيين عندما قرؤوا كوبرنيقس، أو استمعوا لحديث جاليليو.نعم كانت هناك جماعات جديدة ولكن هذه الجماعات نحت معتقداتها القديمة جانبا باستخدام إجراءات مازالت تستخدمها. ولم يكن الأمر تغييرا كاملاً للنسق. ثانيا ، حتى إذا افترضنا أن الأمر مجرد اعتناق أو تحول – فما الذي تحول إليه أولئك الناس ؟ فإما أن النسق موجود بالفعل ، ومن ثم ليس هناك تحول ، أو هو غير موجود ، وهنا يكون التحول إلى لا شئ. كلا ، إن الأمور ليست بهذه البساطة. أعنى أن براهين التحول معقولة ، وإن كان ذلك ليس متاحا للجميع ، فليس ثمة براهين معقولة للناس كلها ، وإنما هى معقولة للبعض مما يعنى أن الرأى القائل بوجود " أنساق " وأن هذه الأنساق وحدها تعطى معنى لما يقال رأى خاطئ.

جاك : هذا عين ما أردت أن أقوله. فقوة أى حجة تعتمد على مقاييس معينة ويمكن لأى ثورة أن تغير من هذه المقاييس. وهكذا يبدو أن أى ثورة لا يمكن أن تتأسس على الحجج ، أو أن قوة الحجج لا تعتمد على " نسق فكرى " – وإذا صح هذا القول الأخير ، فإن المذهب النسبى يكون كاذبا. أما إذا كان المذهب النسبى صحيحا فأننا نكون قد أخذنا إلى الأبد بمذهب لا يمكن التزحزح عنه إلى مذهب آخر إلا بمعجزة ، وعندها نكون قد آمنا بالمذهب الجديد. يا لها من وجهة نظر غريبة !

دونالد : هل ناقش أفلاطون هذا الأمر ؟

دكتور كول : بل ناقش أفلاطون واحدا من أوائل النسبيين فى تاريخ الحضارة الغربية ، بروتاجوراس.

بروس : حسنا ، ألم يتقدم المذهب النسبى قليلا منذ تلك الحقبة ؟

دكتور كول : نعم ولا. فالموقف الأساسى لا يزال مماثلا لموقف بروتاجوراس ، ولكن توجد الآن وسائل حماية عديدة تجعل الأمر أكثر صعوبة مما هو عليه فى الواقع.

بروس : أنت تعنى أن بروتاجوراس ذكر نفس ما يقوله النسبيون المعاصرون ، ولكن فى صورة أكثر بساطة.

دكتور كول : أنت محق فيما تقول. ولكن دعونا أخيرا نبدأ المحاورة !

لى فينج : أين ، من فضلك ؟

دكتور كول : هنا ، فى رقم 146 ... حيث يطلب سقراط من ثيتاتوس أن يحدد ماهية المعرفة.

آرثر : هذا أمر سخيف.

جاك : ماذا تعنى ؟

آرثر : أعنى محاولة تحديد المعرفة.

جاك : إن هذا إجراءا قياسيا ، متبعاً فى العلم وفى غيره. فعندما يكون لديك تعبير مطولٌ غير ملائم ، ومن ثم تقرر اختصاره ، فهنا تكون العبارة التى تقول لك " ماذا يختصرُ ماذا " بمثابة التعريف.

آرثر : ولكن الموقف الذى أمامنا نقيض ما تصف ! فالمعرفة موجودة بالفعل، إذ توجد الفنون ، والصناعات ، والمهـــن المختلفـــة ، كمـــا أن لثيـــودورس وثيتاتوس قدرا لا بأس به من المعرفة بالرياضيات ومن المفترض أن يقـــوم ثيتاتوس بتحديد هذا المركب الهائل المتخم فى صيغة واحـــدة مقتضبـــة. إن الأمر ليس مجرد اختصار صيغة مطولة ، وإنما العثور على خاصية مشتركة لعناصر معقدة متنوعة ، دائمة التغير.

جاك : حسنا يجب علينا أن نرسم خطا محددا خاصة فى وقتنا الراهن الذى يحاول فيه البعض إحياء التنجيم ، والسحر ، والشعوذة. فهناك أشياء تعد مـــن قبيل المعرفة ، وأشياء أخرى ليست معرفة – هل توافقون على ما أقول ؟

آرثر : بكل تأكيد. غير أننى لا أعتقد أن بإمكانك ، باستخدام صيغة بسيطة ، أن ترسم خطا فاصلا على نحو قاطع جازم. بل لا أعتقد أنك تستطيع رســـم مثل هذا الخط على الإطلاق ، كما لو كان قانونا مـــن قوانيـــن المـــرور. إن الحدود تنشأ ثم تتلاشى باعتبارها جزءا من عملية تاريخية فى غاية التعقيد...

جاك : إن الأمر ليس كذلك. فكثيرا ما رســـم الفلاســـفة الحـــدود ، وحـــددوا المعرفة ...

آرثر : ... ومن الذى يلجأ إلى تعريفاتهم ؟ أنظر لقد رسم نيوتن خطا عندمـــا دافع عن أبحاثه فى علم البصريات ولكن سرعان ما تجاوز هو نفســـه هـــذا الخط. إن الأبحاث أكثر تعقيدا من مجرد اقتفاء أثر خطوط بسيطة. لقد أدرك ثيتاتوس ذلك الأمر ! فعندما تساءل سقراط : مـــا هـــى المعرفـــة ؟ أجابـــه ثيتاتوس...

دونالد : أين ؟

آرثر : فى مكان ما فى منتصف رقم 146. أجاب ثيتاتوس " إن المعرفة هى كل العلوم التى تعلمتها على يدى ثيودورس – بما فى ذلك الهندسة والعلـــوم التى سبق وذكرتها " – كان يتحدث عن علم الفلك وعن الانسجام فـــى علـــم الحساب. ويستمر قائلا " وأضيف الى ذلك فن صناعة الأحذية وغـــيره مـــن الفنون ، فهذه الفنون فى مجملها وتفاصيلها معرفة ". وأنا لدى إجابـــة جيـــدة

على نفس السؤال: المعرفة في رأيي هي أحد الموضوعات المعقدة ، تختلف باختلاف الميادين ومن ثم فأفضل إجابة على السؤال القائل "ما هي المعرفة؟" يجب أن يأتي في صورة قائمة من الأشياء. وأنا شخصيا عندما أجيب على مثل هذا السؤال فإنني أضيف تفاصيل جديدة وأذكر المدارس المختلفة التي توجد في إطار كل موضوع. على أية حال ، إن الفكرة القائلة بإمكان وضع العلم ، ومن ثم المعرفة ، في صيغة واحدة بسيطة فكرة خرافية متهافتة.

آرنولد : إنها ليست فكرة خرافية ، لقد سبق التوصل إليها. فلدينا ، على سبيل المثال ، تحديد للمعرفة باعتبارها ما يقبل النقد.

بروس : ولكن النقد ليس مقصورا على المعرفة ، وإنما يمكننا نقد كل شئ .

آرنولد : حسنا ، ينبغي أن أكون أكثر تحديدا: يمكننا فقط قبول أي دعوى معرفية إذا استطاع صاحب الدعوى أن يحدد سلفا الشروط التي يتخلى فيها عن دعواه.

ليزلي : ولكن هذا ليس تعريفا " للمعرفة " وإنما " لدعوى المعرفة ".

آرثر : هذا ليس بالأمر الهام ، يمكنني الآن أن أضع اعتراضي في صورة أوضح: إن معظم النظريات العلمية ، وفقا لتعريفك السابق ، لا تعد دعاوى معرفية ، إذ حين يعالج العلماء نظرية معقدة ، نادرا ما يعرفون مسبقا الشروط التي تجعلهم يتخلون عن تلك النظرية. فكثيرا ما تتضمن النظريات افتراضات خفية لا يكون العالم على وعي بها. كما أن التطورات الجديدة التي تطرأ عليها كفيلة بوضع هذه الافتراضات في دائرة الضوء – وهنا يمكن أن يبدأ النقد.

لي فينج : هل لديك مثال على ذلك ؟

بروس : نعم – لم يصبح الافتراض الخاص بالإشارات الضوئية غير المحدودة معروفا إلا من خلال نظرية النسبية الخاصة. فطبقا لتعريفك السابق يصبح ممكنا أن تعرف عام ١٦٩٠ ما سيطرأ على نظرية نيوتن عام ١٩١٩ – وهذا هراء. وهو يشبه نفس الهراء المتضمن في افتراضك حاجتنا إلى صك تعريف " للمعرفة ". إذ أن هناك موضوعات جديدة تنشأ باستمرار ، كما

أن الموضوعات القديمة تتغير ، مما يعنى أن التعريف سيأتى طويلا ، حافلا بالعديد من الخصائص المميزة ، وعرضة للتغيير.

آرنولد : ولكن يجب أن يكون لديك معيارا تميز به بين الموضوعات الأصيلة الحقيقية والموضوعات الزائفة كما ينبغى أن تصغ هذا المعيار بصورة مستقلة عن الموضوعات القائمة – هل لديك طريقة أخرى للحكم على الموضوعات بطريقة موضوعية ؟

آرثر : " بطريقة موضوعية " – يالها من كلمات جوفاء. ألا تعتقد بوجوب اختبار وفحص موضوع حاسم كمعيار تحديد المعرفة ؟ وهب أننا فحصنا أو اختبرنا هذه المعايير ، فسوف يكون لدينا عندئذ بحث يتعلق بالمعايير ويسترشد بدوره بمعايير أخرى خارجية - الأمر إذن ببساطة يتلخص فى أنك لا تستطيع أن تنأى بنفسك خارج دائرة البحث والمعرفة. وحتى إذا افترضت أن لديك معيارا بالفعل فإن هذا المعيار بمفرده لا يكفى. إذ ينبغى أن يتوافر لديك ما يتوافق مع هذا المعيار - وإلا غدا معيارا فارغا. إذ من النادر اليوم أن تجد من يضيع وقته فى محاولة العثور على التعريف الصحيح " لوحيد القرن ".

آرنولد : أنا على استعداد تام للاعتراف بأن معيارى قد يقود إلى اعتبار أن كل شئ مزيف ...

بروس : حسنا ، ألا يحدث أن نستخدم أحيانا أشياءا زائفة ونميز بينها وبين غيرها من الأشياء الزائفة ؟ ألا يحدث ، مثلا ، أن تثق فى طبيب معين ولا تثق فى غيره ، أو أن تثق فى عالم الفلك الذى تنبأ بكسوف معين للشمس فى حين لا تثق فى المنجم الذى نجح فى التكهن بوقوع زلزال معين ؟ إذا كنت تفعل ذلك ، فمعيارك نفسه عرضة لأن يكون معيارا زائفا ؛ وإذا كنت لا تفعل فسوف تموت فى القريب العاجل.

ديفيد : ولكننا نحتاج بالفعل إلى بعض التعريفات الخاصة بالأغراض القانونية. وأحد الأمثلة على ذلك القوانين التى تفصل الكنيسة عن الدولة والتى تذهب إلى وجوب تدريس العلوم بدلا من الآراء الدينية فى المدارس العامة.

ألم يحاول الأصوليون المتطرفون أن يقحموا بعض أفكارهم على برامج تعليم المدارس الابتدائية باعتبارها نظريات علمية؟

آرثر: نعم ، حدث ذلك فى أركانسا Arkansas[1] . لقد أدلى الخبراء برأيهم فى الموضوع ، وقدموا بعض التعريفات المبسطة ، وتم حسم القضية.

تشارلز : وهذا يوضح لنا الحاجة إلى تحسين وتطوير الممارسات القانونية.

دونالد : هل لنا أن نعود إلى المحاورة ؟ أنتم تقولون أن القائمة مناسبة، ولكن سقراط يعترض على ذلك !

آرثر : وما وجه اعتراضه ؟

مورين : سقراط يريد شيئا واحدا لا أشياء عديدة.

بروس : هذا هو عين ما كنا نتحدث عنه – إن سقراط لا يستطيع أن يجمع بين تعريفه وبين أى شئ جوهرى.

مورين : ولكن لدينا تلك الكلمة ، معرفة ، إذن لم لا يكون لدينا شيئ واحد ؟

آرنولد: إن كلمة دائرة تعد كلمة واحدة ، ولكن هناك دائرة هندسية ، ودائرة الأصدقاء الذين لا يتطلب وصفهم بهذه الكلمة أن يجلسوا على هيئة دائرة ، وهناك الدور فى التفكير ، وأعنى به التفكير الذى يفترض عين المطلوب إثباته دون الاستعانة بفكرة الدائرة الهندسية.

مورين : حسنا ، الأمر هنا مختلف ! إذ أن هناك دائرة حقيقية ، أما غيرها من الدوائر فهى ما قد نطلق عليه اسم ...

جاتينيو : استعارة ؟

لى فينج : تشبيه ؟

ليزلى : لا أهمية لذلك – أى أننا نقصد كلمة واحدة ، ومعانى متعددة. إن سقراط يزعم أن هذه الأشياء لم تحدث أبدا ...

جاتينيو : بالإضافة الى ذلك ، فلديك فى الفقرة التى تسبق السؤال ...

ليزلى : أين ذلك ؟

---

[1] أحد الولايات الأمريكية.

جاتينيو : بالقرب من نهاية رقم 145 – وإن كنت لن تجدهـا فـى الطبعـة الإنجليزية – ويجب عليك أن تلجأ إلى الطبعة اليونانية – سـتجده يستخدم بالفعل ثلاث كلمات ، معرفة episteme (والفعل المصاحب لهـا) وكلمـة حكمة sophia(وهو يستخدم أيضا صورتين إضافيتين من نفس جذر كلمـة صوفيا أى حكمة) ثم كلمةmanthanein.

ليزلى (فى سخرية رقيقة من سيدنبرج) : يا لأفلاطونكم العظيم الحكيم !

لى فينج : ولكن ثيتاتوس نفسه قدم اقتراحا يبين فيه كيفية توحيـد المعرفـة. حقا، إن ما يقوله سقراط لا يعد فقط دوجماطيقيا وإنما أيضـا غـير متسـق. والآن يحاول ثيتاتوس بطريقة مشوقة أن يجعل حديث سقراط مفهوما لنا. وفى محاولة منه لشرح هذا الاقتراح يعرض لنا كشفا رياضيا سبق أن توصل إليه مع صديق له منذ فترة مضت.

دونالد : لقد حاولت ، دون جدوى ، أن أفهم تلك الفقرة.

لى فينج : إنها فقرة فى غاية البساطة. دعنا نبدأ من رقم 147 أو على وجـه الدقة من رقم 147 d3 .

ليزلى : ماذا يعنى هذا الرقم ؟

آرنولد : يعنى الصفحة رقم 147 من الطبعة القياسية – لا تنسى ذلك ؟ – ثم الجزء d من تلك الصفحة (إذ أن كل صفحات الطبعة القياسية مقسـم إلـى أجزاء للتيسير) ثم رقم 3 يعنى السطر الثالث.

لى فينج (يقرأ) : كان ثيودورس يرسم خطوطا بيانية كى يوضح لنا أمـراً خاصاً بالمربعات ...

دونالد : هذا الكلام غير موجود فى النسخة التى معى ...

ليزلى : أنا أيضا لا أجد ذلك. فالنسخة التى معى تقول فى هذا الموضع: كان ثيودورس يكتب لنا شيئا يختص بالجذور ...

دكتور كول : حسنا ، هذه مشكلة كنـا سـنواجهها إن آجـلاً وإن عـاجلاً – فالترجمات المختلفة للمحاورات لا تقول نفس الشيء.

دونالد : ألا يعرف المترجمون اللغة اليونانية ؟

دكتور كول : يعرفونها ولا يعرفونها. فاللغة اليونانية التى كتب بها أفلاطون مؤلفاته ليست لغة حية ، ومن هنا فعلينا الاعتماد على المصادر. بيد أن المؤلفين المختلفين يستخدمون نفس الكلمات بطرق متباينة ، ولعل هذا يفسر وجود معاجم لا تختص فقط باللغة اليونانية وحدها ، وإنما معاجم خاصة بكتابات هوميروس ، وهيرودوت ، وأفلاطون ، وأرسطو وغيرهم. وفضلا عن هذا ، نحن نتعامل هنا مع مقال فى الرياضيات كما أن المتحدث نفسه عالم رياضيات. والرياضيون كثيرا ما يستخدمون مصطلحات عادية لتعبر عن معاني فنية محددة وكثيرا ما لا يكون المعنى واضحا. فكلمة ديناميه dynamis ، التى ترجمت فى النص الذى أمامكم بكلمة "جذر" عادة ما تعنى قوة ، أو سلطة ، وهى تستخدم أيضا بهذا المعنى فى علم الاقتصاد. لقد أنفق الباحثون وقتا طويلا لكى يصلوا إلى أن اقرب معنى لهذه الكلمة فى هذا السياق هى كلمة مربع. سوف نصادف مشكلات من هذا القبيل فى كل الفقرات الصعبة القادمة.

دونالد : وماذا يمكننا أن نصنع ؟

دكتور كول : تتعلموا اللغة اليونانية.

دونالد : نتعلم اللغة اليونانية ؟

دكتور كول : نعم ، أو لتكونوا مستعدين لأن تسلموا بأن ما تحصلون عليه ليس إلا تفسيرا منقحا لما يحدث "بالفعل". يبدو أن الترجمة التى معك (يوجه حديثة إلى **لى فينج**) قام بها شخص على دراية بالصعوبات التى نواجهها ...

لى فينج (ناظرا إلى نسخته) : مترجمها هو ماكدويل Mcdwell .

دكتور كول : تعنى جون ماكدويل – إنه مترجم يعرف ما يقوم بعمله ، على الأقل فى ما يختص بهذه النقطة. استمر!

لى فينج : كان ثيودورس يخط رسما بيانيا ليشرح لنا أمراً عن المربعات – وهو أن مربع ثلاثة أقدام مربعة ومربع خمسة أقدام مربعة غير متكافئان ، وبالنسبة لطول الضلع ، نجد أن مربع قدم مربع هو ...

دونالد : ماذا تعنى كلمة متكافئ ؟

لى فينج : افترض أن لديك مربعا مساحته ثلاثة أقدام مربعة. لا تستطيع أن تعبر عن ضلع هذا المربع باستخدام كسر عشرى متناه الصغر ، أو ببساطة ، لا تستطيع ذلك باستخدام كسر يكون بسطه عددا صحيحا ، وباستخدام عدد صحيح آخر ، مهما كان كبيرا فى المقام .

دونالد : كيف عرفت ذلك ؟

دكتور كول: ثمة برهان على هذا ...

آرثر : هناك فى واقع الأمر براهين عديدة ...

دكتور كول : ... لقد عرف القدماء بعض هذه البراهين. إنها براهين فى غاية البساطة ، وإن كنت لا أعتقد أننا يجب أن نستعرض هذه البراهين وإنما يجب فقط أن تسلموا بوجودها ، وبأنها كانت معروفة ليثيودورس وأن ثيودورس كان يوضحها باستخدام الرسوم البيانية .

لى فينج (يستكمل) : "... ومربع مساحته قدماً مربعاً واحدا ، وهكذا يتم اختيار كل حالة على حده ، ويمكن أن تصل حتى سبع عشرة قدماً مربعا "

جاك : هل يعنى هذا أن لديه برهانا مختلفا يقابل كل واحد من هذه الأعداد المختلفة ؟

دكتور كول : نعم. فهو يقدم لنا ، كما فعل ثيتاتوس فى موضوع المعرفة ، قائمة من الأعداد الصماء يبدأها من الجذر التربيعى للعدد ثلاثة ، ويرتبط عنده كل عدد ببرهان يختلف عن السابق.

جاك : إذن ، فإذا توافر له برهان واحد ، ينطبق على أى عدد ، ويبين عند تطبيقه أن العدد المختبر أصم أم لا ، لاعتبر هذا البرهان معيارا عاما للأعداد الصماء.

لى فينج : هذا هو المقصود. ولكن ثيتاتوس قام بعمل شئ مختلف. فهو يقسم كل الأعداد إلى فئتين ، بحيث تحتوى الفئة الأولى على أعداد تأخذ الصورة: "(أ) تساوى (أ)" ، والفئة الثانية تأخذ الأعداد فيها الصورة:" (ب) تساوى (ب)" ، وتختلف فيها (أ) عن (ب) ، وتعتبر (أ) و (ب) أعداداً صحيحة ، وهو يطلق

على الفئة الأولى اسم الأعداد المربعة ويطلق على الثانية اسم الأعداد المستطيلة.

جاك : نعم ، وأضلاع المربع الذى مساحته عدد مربع ...

لى فينج : يطلق عليها اسم " أطوال " ...

جاك : ... أعداد صماء ، وأضلاع المربع الذى يعتمد فى مساحته على أعداد مستطيلة ...

لى فينج : يطلق عليها اسم مقادير.

جاك : ... وهى أعداد صماء. وهكذا ، فإن الأعداد الصماء ، وفقاً لهذا الاصطلاح ، تصنف كمقادير ، ولا يتم عدها واحدا بعد الآخر ، يا له من اختراع عبقرى أصيل.

ليزلى : هل يريد سقراط أن يطبق نفس الأمر على موضوع المعرفة ؟

دكتور كول : نعم. يريد ذلك.

بروس : ولكن المعرفة تختلف عن الأعداد.

دكتور كول : هذا هو عين ما يقوله له ثيتاتوس.

بروس : إن ثيتاتوس على حق. فالأرقام بسيطة جدا ، كما أنهما واضحة لا تتغير. أما المعرفة فقد تكون فى غاية التعقيد ، ودائمة التغير كما أن الأشخاص المختلفين يتحدثون عنها بطرق متباينة. ويمكننا القول إن الاختلاف بين الأعداد والمعرفة يماثل الاختلاف بين الفيزياء الأساسية ، التى تتميز بوجود قوانين عامة بسيطة ، وبين علم الأرصاد ، الذى تجرب فيه اليوم طريقة معينة ، وغداً طريقة أخرى مختلفة. كما إن المعرفة ليست شيئا قائما هناك فى الخارج نحصل عليه ، وإنما المعرفة يصنعها الناس ، وهى تشبه فى ذلك العمل الفنى ...

ديفيد : أتعنى أن المعرفة أحد العلوم الاجتماعية ...

بروس : كلا ليست أحد العلوم الاجتماعية ، وإنما هى ظاهرة اجتماعية. يبدو الآن أن سقراط يرغب فى أن تصبح كل مجالات المعرفة كالرياضيات التى

يكون لدينا عنها تصورات عامة تتضمن حالات متباينة ومبرهنات عديدة تعالج هذه الحالات حسنا ، ولكن كيف رد سقراط على ثيتاتوس ؟

ديفيد (ناظرا إلى النص) يتحدث سقراط كثيرا عن القابلات انتظر لحظة - لقد وضع أخيرا ثيتاتوس في المكان الذى أراده له ، وأجبره على أن يقدم لنا في النهاية تعريفا : المعرفة هي الإدراك الحسي.

مورين : ألا يوجد نزاع حول هذا التعريف ؟

ديفيد (ينظر مرة أخرى إلى النص) : كلا ، لقد أصر سقراط على الحصول على تعريف ، وفي النهاية يقدم ثيتاتوس تعريفا.

آرنولد : لا تكن قاسيا متحاملا على ثيتاتوس ، إذ من المفترض أن عمره كان ستة عشر ربيعا حين وقعت أحداث هذه المحاورة.

بروس : لا أقصد ثيتاتوس ، فقد كنت أتحدث عن سقراط. فهو لم يناقش المشكلة ، وإنما يسلم تسليما بأن المعرفة برمتها ، وليس الجانب الرياضي منها فقط ، تشبه الرياضيات ...

دكتور كول : الأمر ليس كذلك على وجه الدقة . فإذا تصادف وتمكنا من الوصول إلى نهاية المحاورة فسنكتشف أنها تنتهي دون تقديم تعريف محدد ، فقد تم اقتراح ثلاثة تعريفات ، ثم تم تفنيدها وهنا كان على سقراط أن يذهب إلى المحكمة. ولعل هذا هو سبب اعتبار بعض الفلاسفة اللاحقين أفلاطون من الشكاك. لقد كان كاريندس أحد القادة اللاحقين لهذه المدرسة ، واحدا من أولئك الشكاك.

ليزلي : ولكن أليست محاورة ثيتاتوس جاءت من الناحية الزمنية بعد محاورة الجمهورية ؟

دكتور كول : نعم. أنت على حق . هذا هو الافتراض العام. لقد تم حل مشكلة المعرفة في محاورة الجمهورية بصورة من الصور غير أن المشكلة تعود للظهور مرة أخرى في محاورة ثيتاتوس ، ثم يعود في محاورة طيماوس ليعتبر النظرية التي وردت في محاورة الجمهورية مجرد خطة ينبغي إعادة فحصها في إطار التطور الإنساني الذى لا يكتمل في المجتمعات والكون

بأسره. من هنا يجب علينا إلا نقنع بالنظر فى محاورة واحدة ، وإنما يجب أن نقرأ المحاورات كلها.

مورين : هل تم التوصل الى أى نتيجة فى المحاورة التى أمامنا ؟

دكتور كول : تم التوصل إلى بعض الأمور ، كموضوع المذهب النسبى على سبيل المثال.

تشارلز : هل تعنى بذلك بروتاجوراس ؟

دكتور كول : نعم.

تشارلز : ولكن هذه بداية سيئة. فيثتاتوس يقول " المعرفة هى الإدراك الحسى"، ويرد عليه سقراط قائلا " هذا هو رأى بروتاجوراس " ، ثم يستشهد بقول بروتاجوراس: " الإنسان مقياس كل شئ ، فهو مقياس ما هو موجود وما هو غير موجود ..."

دونالد : لماذا لا تلتزم بالنص ؟ فهو عندى هنا يقول إنه (أى الإنسان) مقياس وجود الأشياء الموجودة.

دكتور كول : لا تنسى أن الأمر مجرد ترجمة ! وأن المترجم هنا يقدم لنا صياغة جديدة ...

دونالد : صياغة جديدة ؟

دكتور كول : حسنا ، أعنى أن المترجم لم يترجم الكلمات حرفيا وإلا لجاء وقعها وجرسها سقيما فى اللغة الإنجليزية ، وإنما قام باستخدام طريقة بارعة فى التعبير عن موضوعاته. إن الكثير من المترجمين يفعلون نفس الشيء ؛ فأفلاطون يستخدم أحيانا أوصافا مطولة مسهبة لأشياء يعتقد المترجمون إمكان اختزالها فى مصطلحات بسيطة. غير أن المصطلح المناسب لم يكن أحيانا متاحا لأفلاطون نفسه ، ومن هنا حفلت الترجمات المختلفة بمفارقات تاريخية علاوة على كونها مجرد إعادة صياغة للأصل. لكل هذه الأسباب ينبغى أن نكون أكثر حذرا عند التعامل مع عبارات من قبيل " قال أفلاطون هذا الشيء أو ذاك "...

تشارلز : ولكن أفلاطون نفسه لم يكن حذرا. فأنا أعتقد أن بروتاجوراس عندما يتحدث عن أن الرجل " مقياس كل شئ " فهو يعنى بذلك أى إنسان.
دكتور كول : نعم ، لأن كلمة إنسان تختلف فى اللغة اليونانية عنها فى اللغة اللاتينية – فكلمة إنسان فى اللغة اليونانية هى anthropos ، وفى اللاتينية homo ، أما كلمة رجل فتقابل فى اللغةاليونانية كلمة aner ، وفى اللغة اللاتينية vir .
تشارلز : إنه يقول أن الإنسان مقياس الأشياء جميعا – ولكنه لم يبين كيف يمكنه القياس – ربما تحقق ذلك بالإدراك الحسى ، أو الحدس ، أو باستخدام الخبرات السابقة.
آرنولد : لكن لدينا بالاضافة إلى ما سبق بعض الاتجاهات الأخرى. فأرسطو ، مثلا ، يقول إن الدائرة ، طبقا لرأى بروتاجوراس ، لا يقطعها الخط المماس فى نقطة واحدة فقط ، وإنما فى أكثر من نقطة ، وهذا القول يوحى باعتماده على الإدراك الحسى.
تشارلز : أى باحث فى نظرية الكوانتم سوف يقول نفس الشيء ولن يكون مرجع هذا القول خبراته الحسيه ، أنظروا أيضا الى رقم 167 ، حيث نجد سقراط يسمح لبروتاجوراس بشرح أفكاره بالتفصيل. وهنا يقوم بروتاجوراس "السقراطى" بعقد مقارنة بين المعلم والطبيب. فهو يقول إن الطبيب يعالج المرضى باستخدام الدواء ، كما يدرك المريض حقا أنه على غير ما يرام ويقول ، وفقا لرأى بروتاجوراس ، إنه مريض. وهنا يقوم الطبيب بتغيير الحالة السيئة للمريض إلى حالة أفضل – وهو هنا لم يغير الصدق إلى كذب ، إذ أن حكم المريض ، الذى هو مقياس كل شئ ، يكون دائما حكما صادقا. وهكذا فالخطيب المفوه ، طبقا لرأى بروتاجوراس ، "يقنع أهل المدينة أن الخير لا الشر هو العدل" ، ولكن الخير والشر ، والعدل والظلم ليست مصطلحات خاصة بالإدراك الحسى – فالناس يحكمون على الخير والشر بطرق تتباين تباينا شديدا ، ولكنهم يحكمون عليها ، ومن ثم فهم مقياس هذه الأشياء. وهكذا فإن أفلاطون نفسه يقدم تفسيرا لبروتاجوراس يتناقض مع

توحيد المبدأ القائل بأن الإنسان مقياس كل شئ مع فكـرة أن المعرفـة هـى الإدراك الحسى. إن عملية مسخ فكر بروتاجوراس وتحويله إلـى فيلسـوف تجريبى ساذج ليست ببساطة شديدة سوى تشويه لفلسفته.

ليزلى : أمامى المثال الذى يتحدث عن الرياح التى تبدو باردة لشخص معين وساخنة لشخص آخر ...

مورين : قد يكون هذا مجرد مثال واحد.

ليزلى : وأيضا الفكرة القائلة بأن كل شئ دائم التغير ...

تشارلز : لا تلزم هذه الأقوال عن قول بروتاجوراس بأن الإنسان مقيـاس كل شئ. بل على العكس من ذلك ، عندما "يقيس" الناس ما يحيط بهـم مـن أشياء يجدون أنها تظل دائما كما كانت ومن ثم يصابون بالملل...

مورين : كما أن العلوم ، التى هى نتاج إنسـانى ، تكشـف عـن التكـرار والاطراد.

آرنولد : ولأفلاطون محاورة أخرى ، هـى بروتـاجوراس ، يظهـر فيهـا بروتاجوراس شخصيا ويوصى بإعدام أولئك الذين ينتهكون قوانين المدينـة. لقد "رأت" المدينة أن التغيرات الكثيرة تسبب الضرر ، ومن هنا قررت سـن القوانين التى تضمن نوعا من الاستقرار ودافعت عن تلك القوانين ، لدرجـة تصل الى إعدام من يعاود انتهاكها إذا اقتضت الضرورة.

ليزلى : ويطلقون على مثل هذا الشخص فيلسوف نسبى ؟

دكتور كول : حسنا ، يجب أن تكونوا فى غاية الحذر مع المصطلحات العامة من قبيل "نسبى" ، و"عقلانى" ، و"تجريبى"– وما شابه ذلك.

دونالد : ولكن من المعقول أن نعقد صلة بين بروتـاجوراس وبيـن القـول بالتغير فالإنسان هو المقياس ، ولكن الإنسان دائم التغير ...

تشارلز : ليس طبقا لذاتى أنا فأنا أقيس ما يجرى داخلى وما يدور حولـى ! وبالطبع يعترينى بين الفينة والأخرى شئ من التغير ، ولكنى قد أستبقى بعض الأفكار دون تغيير ، وأطورها ، وأعثر على حجج أفضل فى الدفاع عنها ...

آرنولد : ومن الذى يقرر ذلك ؟

تشارلز : أنا ، بالطبع ، وفقا لرأى بروتاجوراس.

جاك : لا أعتقد أن الأمر بهذه البساطة. أنت تقول أن أفلاطون يعقـد صلـة متعسفة بين بروتاجوراس ونظرية التغير. لكن أنظر الى المثال الـوارد فـى رقم 154 ...

دونالد : مثال زهر النرد ؟

جاك : نعم.

دونالد: الآن لا أفهم شيئا على الإطلاق !

جاك : ستفهم إذا نظرت إلى الأمر وفى ذهنك افتراضات معينة. لنفترض أن لدينا ستة من زهر النرد – فأنها تكون أكثر من أربعة وأقل من ثنتا عشـر. والآن وعلى الرغم من أننا لم ننقص شيئا من الزهرات الست ، فانها بقيـت كما هى ولكنها أصبحت أيضا أقل.

دونالد : هذا أمر تافه – إذ أن الكلمات من قبيـل "أقـل" و "أكـثر" مجـرد علاقات.

جاك : آه! إذن لدينا أشياء ثابتة ، فلدينا ستة من زهر النرد هنا ، وأربعـة وعشرة هناك ، ثم علاقات مختلفة بينها. إن نظريـة بروتـاجوراس فـى أن الإنسان هو المقياس تقدم لنا أيضا علاقة بين ما هو كائن وبين عملية القياس ذاتها. بيد أنه لا توجد لدينا كيانات ثابتة بينها علاقات ، وإنما على العكس من ذلك ، فكل شئ لدينا يتحدد بعلاقة معينة: أى أن عملية القياس تجعله موجودا. ومن ثم فأنا أعتقد أن كل ما يقوله سقراط فى رقم 153d FF ملائـم تمامـا. فانت لا تستطيع أن تقرر عند رؤية شئ معين هل اللون الذى تراه فى عينيك أم فى الخارج ، أو فى أى مكان آخر ، ومن هنا يتعين عليـك أن تقـول أن اللون ومكانه يظهران إلى الوجود خلال عملية الإدراك الحسى – فهمـا إذن بمثابة جزء من قالب واحد لا ينقسم يوحد بين ما هو كائن وبيـن مـا يتـم إدراكه.

لى فينج : أتقصد بذلك معامل أينشتين – بودولسـكى – روزن؟ Einstein-Podolsky-Rosen correlation

دونالد : ماذا ؟

لى فينج : هذا على وجه الدقة عين ما تقوله نظرية الكوانتم عن عملية القياس. لقد أراد أينشتين ومساعدوه إثبات تجربة خيالية ، وهى تجربة تماثل تماما ما حاول أفلاطون أن يثبته ، ومؤدى تلك الفكرة أن للأشياء خصائص محددة حتى قبل قياسها. لقد تخيلوا موقفا خاصا يكون لدينا فيه جزيئين نعرف مجموع كمية تحركهما ومقدار الاختلاف بين موضعيهما ...

دونالد : أنا لا افهم كلمة واحدة مما تقول – ثم ما علاقة هذا بأفلاطون ؟

تشارلز : حسنا ، يتوقف الأمر على الطريقة التى تريد أن تناقش بها فكر فيلسوف معين. فهل ترغب فقط فى معرفة كيف كان يتعامل مع معارضيه فى ظل المعرفة السائدة فى عصره ، أم أنك تريد أن تعرف إلى أى مدى تكررت أفكاره مرة أخرى فى عصر لاحق ؟ الاتجاه الأول له أهميته بيد أن الاتجاه الثانى فى اعتقادى أكثر أهمية. إن البراهين ، أولا وأخيرا ، كالمعارك التى قد ينهزم فيها فريق معين مستخدما سلاح عصره. ولكن الأسلحة تتغير باستمرار. فنحن ، من جهة ، نتعلم أشياء جديدة ، وتتعقد أمامنا المعالجات الرياضية ، ولكنها، من جهة أخرى ، تصبح أكثر بساطة – فالأمر الذى كان يستغرق من قبل صفحات وصفحات من البراهين تتم اليوم معالجته فى سطر أو سطرين – كما أن أجهزة التجارب تتغير، الخ. وهكذا فالفكرة التى تخبو اليوم قد تعود غدا لتثبت كفاءتها – ولنتأمل فى هذا المقام فكرة دوران الأرض. ومن ثم فمن الأمور المثيرة للتأمل أن أفلاطون فى محاولته لدحض آراء بروتاجوراس قدم لنا نظرية فى الإدراك الحسى تبين إلى أى مدى استبقت نظرية بروتاجوراس أحد نظريات القرن العشرين.

دونالد : أى نظرية من نظريات القرن العشرين تعنى ؟

لى فينج : حسنا ، إنها نظرية تكتنفها بعض الصعوبة – ولكنى دعنى أحاول شرحها. لابد أنك سمعت عن العلاقات غير اليقينية.

ليزلى : نعم ، تقصد مبدأ هازنبرج Hasenberg

لى فينج : كلا ، هيزنبرج Heisenberg . يقول هذا المبـدأ فـى صورتـه المبسـطة بعـدم إمكـان معرفـة كـلا مـن الوضـع position وكميـة التحرك momentum فى نفس الوقت ...

دونالد : ماذا تعنى بكمية التحرك ؟

لى فينج : هى شئ أشبه بالسرعة – يمكنك أن تعتبرها كذلك. على أية حال ، أنت لا تستطيع أن تعرف فى نفس الوقت وضع وكمية تحرك جـزئ معيـن بدقة مطلقة. إذ عندما تعرف واحدا منها بدقة متناهية ، يصبح الآخـر أكـثر غموضا والعكس صحيح. غير أنك تستطيع أن تفسر هذه العلاقـات بطـرق متباينة. إذ تستطيع ، مثلا ، أن تقول : يكون الجزيء دائما فى وضع معيـن وسرعة معينة ولكنك لا تستطيع أن تعرفهما معا لأن قياس أحدهما سـيغير من معرفتك بالآخر.

آرنولد: أنت تقول ، إذن ، إذا كنت أعرف وضع جزئ معين بدقة وحـاولت أن أقيس سرعته ، فإن هذه المحاولة تؤثر فى معرفتى لوضع الجزئ.

لى فينج : نعم ، يمكنك أن تقول ذلك .

ليزلى : يا للعجب !

لى فينج : بيد أن هناك تفسيرا آخر لمبدأ اللاتعين. يتلخص هذا التفسير فى أن الجزئ ذاته ، وليس معرفتنا به ، هى التى تصبـح بـلا تحديـد. فحتـى إذا تمكنت، على سبيل المثال ، أن تحدد باستخدام حيلة معينة كمية تحرك الجزئ بدقة مطلقة ، فلن تعرف عندئذ أى شئ عن موضع الجزيء ، بل ولن يوجد أصلا موضع للجزئ فى هذه الحالة لكى تعرفه.

دونالد : إذن ، فهو ليس جزئ.

لى فينج : يمكنك اعتباره كذلك. وينطبق ما سبق وذكرته لكم عن الموضـع والحركة على الكثير من المقادير الفيزيائية الأخرى ، فهى ، مثلا ، تنطبـق على X و Y من مكونات حركة الجزئ. فأى مقدارين أو كتلتين لا يتواءمان بدقة يطلق عليهما مقدارين متتامين. وبهذا المعنى فالوضع وكميـة التحـرك متتامين. لقد قام أينشتين ومساعدوه بدراسة ...

تشارلز: أتعنى التجربة الخيالية ؟

لى فينج : نعم ، أعنى ذلك وقد قام بها أينشتين فى البداية – ثم تحولت بعـــد ذلك إلى تجربة حقيقية. لقد تخيل أينشتين حالة خاصة حاول أن يبين فيهـــا أن نظرية الكوانتم ذاتها ، بالإضافة إلى بعض الافتراضات الثانوية ، تتضمن أن المقادير المتنامة تكون ذات قيم متزامنة دقيقة. سأحاول أن أشرح لكم البرهان – ولكن يجب أن تنبهونى إذا أستغلق عليكم الأمر.

ليزلى : لا عليك ، سنفعل ذلك.

لى فينج : أفترض أينشتين وجود جزئيين (س) و (ص) ، كما أفترض أننـــا نعرف المسافة بينهما وحاصل جمع كمية تحركهما.

دونالد : ولكننا لا نستطيع أن نعلم وضعهما وكمية تحركهما معا – لقد ســبق وذكرت لنا ذلك!

لى فينج : أنت محق تماما فى ذلك. ولكننا نستطيع أن نعرف بعض التركيبات الخاصة بهما ، كالفارق ، مثلا ، بين أوضاع جزئيين والذى يمثـــل المســـافة بينهما ، وأيضا مجموع كمية تحركهما.

ديفيد : كيف يتسنى لنا ذلك ؟

لى فينج : حسنا ، أفترض فقط أننا نستطيع ذلك – وإلا لـــن نتقـدم خطـــوة واحدة. والآن لنفترض أن (س) لا تتحرك وأن (ص) تتحرك بعيدا لدرجـــة لا تتأثر فيها بأى شئ نفعله فى محيط (س). ثم نقوم بعد ذلك بحساب وضـــع (س) – وهو أمر نستطيع القيام به بدقة مطلقة.

بروس : لا يوجد شئ أسمه دقة مطلقة فى القياس – فهناك دائمـــا فرصـــة للخطأ.

لى فينج : لا تنسى أن الأمر يتعلق بتجربة خيالية تتعلق بنظرية الكوانتم! وأنا أعنى بتعبير "الدقة المطلقة" هنا عدم حدوث أى تناقض خاص بـــأى قـــانون كوانتى نظرى quantum theoretical law عند تحقق هذه الدقة المطلقـــة.

وهكذا فنحن وفقا لهذا التفسير نستطيع أن نحسب موضع (س) – وأن نعرف المسافة بين (س) و (ص) وأن نستدل ليس فقط موضع (س) بعـــد عمليـــة

القياس المذكوره وإنما أيضا موضعها قبل هذا القياس مباشرة وذلك لأن (س) تكون بعيدة جدا عن (ص) بحيث أن القيام بعمليات قياس لـ (ص) لا تؤثر فيها على الاطلاق. ويمكننا ، وفقا لذلك ، أن نقول أن (س) لها موضع يمكن تحديده بدقة ، بغض النظر عن قياسنا لهذا الموضع ، وذلك لأن عملية القياس ذاتها يمكن أن تتم فى أى وقت. وإذا طبقنا نفس الحجة على موضوع السرعة فاننا نقول أن لـ (س) دائما كمية تحرك محددة تحديدا دقيقا – ومن ثم فلها دائما موضع محدد بدقة وكمية تحرك محددة بدقة ، ويخالف هذا القول التفسير الثانى لعلاقات مبدأ اللايقين الذى شرحته آنفا.

جاك : ينبغى إذن أن نتخلى عن ذلك التفسير.

لى فينج : لا نستطيع ذلك ! فذلك التفسير يخدم غرضا معينا. بل هو التفسير الوحيد الذى له قدرة على التوفيق بين نتائج التجارب المتعارضة ظاهريا.

ليزلى : حسنا ، ينبغى أن نقول ببساطة أن القياس يؤثر فى الموضوع حتى إذا كان هذا الموضوع بعيدا جدا ...

تشارلز: إن الأمر يشبه مثال زهر النرد – فالأشياء تتغير حتى إذا لم تتعرض لزيادة أو نقصان ...

لى فينج : اللهم الا إذا فعلت نفس ما توصلنا إليه من قبل – أعنى أن تقر بأن الموضع وكمية التحرك مجرد علاقات ، وليست خصائص متأصلة فى الجزيئات ، كما أنها ليست ببساطة علاقات بين أشياء ذات خصائص ثابتة منبتة الصلة بالعلاقات ذاتها وإنما علاقات بين أشياء تتحدد بعض خصائصها بنوع من التفاعل – تماما كما ورد فى نظرية الرؤية التى طورها أفلاطون ونسبها إلى بروتاجوراس. أعتقد أن هذا الأمر هام جدا إذ أنه يبين لنا إمكان تطبيق حجة أفلاطون ضد بروتاجوراس على ميكانيكا الكوانتم على الرغم من أنها حجة مؤسسة تأسيسا جيدا.

دونالد : ليس لدى بالتأكيد أدنى فكرة عن ما تتحدثون عنه! غير أننى قرأت المحاورات وأعتقد أن لسقراط تفنيدات قوية للفكرة التى تعقدون الصلة بينها وبين ميكانيكا الكوانتم. أكتفى بأن أذكر لكم واحدة منها: أعنى مقولة أن

"المعرفة هى الإدراك الحسى". فأنا الآن أنظر إليكم ، وأدرك وجودكم ، وأعى أنكم موجودون أمامى. ثم أغمض عينى ، لكنى أستمر فى الاعتقاد بأنكم موجودون على الرغم من عدم إدراكى الحسى لهذا الوجود. ومن ثم ينتهى سقراط إلى القول بأن " التوحيد بين المعرفة والإدراك الحسى يتضمن استحالة واضحة " ، ماذا تقولون فى هذا ؟

ديفيد (بحماس) : أقول أنك لم تقرأ النص بما فيه الكفاية. استمر فى القراءة بضعة سطور أخرى !

دونالد : أين ؟

ديفيد : بعد السطر الذى استشهدت به مباشرة ! ماذا يقول ؟

دونالد (يقرأ) : " نحن نتجنب الجدل ونصيح صيحة النصر ، دون أن يكون هناك نصر ، كالديك الذى لا يصلح لشئ " ، أنا لا أفهم هذا القول.

بروس : الأمر فى غاية البساطة. فهو يقول أن الحجج التى قدمها حتى الآن زائفة.

دونالد : ولماذا يفعل ذلك – فهو يقدم فى البداية العديد من الحجج المضادة ، لأن الحجة المقدمة ليست الحجة الوحيدة ، ثم يقول لنا بعد ذلك إنها حجج لا قيمة لها ؟

دكتور كول : لأن هذا عين ما كان يفعله السفسطائيين وقد أراد أن يفضح طريقتهم .

دونالد : أتعنى بذلك استخدامه للحجج المضادة ؟

دكتور كول : تماما.

دونالد : ولكن أليس هذا هو نفس ما نقوم به فى مجال العلم ، أعنى أننا نقترح فروضا معينة ثم نستخدم أمثلة مضادة لتكذيبها ؟

جاك : هذا الأمر محل نظر ! تأمل مثلا القول "كل الغربان سوداء". كيف يمكنك تفنيد مثل هذه القضية ؟

دونالد : يتم تفنيدها إذا عثرنا على غراب أبيض .

جاك : ماذا لو رأيت فى أحد أحلامى غرابا أبيض .

دونالد : لا أقصد ذلك ، وإنما أعنى غرابا حقيقيا.
جاك : سأقوم بطلاء غراب أسود باللون الأبيض.
دونالد: لا أعنى غرابا مطليا !
جاك : هذا عين ما يقوله سقراط. فعندما نغمض أعيننا لا تنقطع معرفتنا بالأشياء حتى وإن كنا لا ندركها حسيا ومن هنا لا يمكن أن تكون المعرفة هى الإدراك الحسى – هذا ملخص حجته. فإذا فحصنا غرابا مطليا فسوف نرى أنه غراب ولكنه ليس أسود ومن هنا نستنتج أن كل الغربان ليست سوداء ، ما الخطأ هنا ؟ نحن نسترشد بعملية الاتفاق أو الاختلاف حول الكلمات. ففي مثال الغربان ليس كافيا أن نكتشف أن غرابا تم وصفه بطريقة صحيحه بكلمة غراب "أبيض" ، إذ يتعين علينا أيضا أن نعرف نوع "البياض" الذى نقصده – وهذا ليس أمراً سهلاً (إذ يمكنك أن تتخيل مجموعة من الغربان التى فقدت لونها لإصابتها بمرض معين – كيف ستعالج هذا الأمر؟). أما فيما يختص بالمعرفة فلا يكفى أن نكتشف عدم وجود معرفة حسية ، وإنما ينبغى أن نحدد نوع المعرفة اللا- حسية التى نريدها. إن الفيلسوف الذى يطابق بين المعرفة والإدراك الحسى (وهناك شكوك فى أن بروتاجوراس قام بذلك) قد يكون لديه مفهوم فى غاية التعقيد عن الادراك الحسى ، ومن ثم يلزم علينا أن نفحص نظريته بشئ من العناية . فمن غير المحتمل بدرجة كبيرة أن يفترض أن الذاكرة (بمعناها البسيط) تعنى الإدراك الحسى لأنه فى هذه الحالة سيكون لديه نظرية فى الذاكره لا تقل تعقيدا عن نظريته فى الإدراك الحسى وهى النظرية التى يعقد "لى فينج" الصلة بينها وبين نظرية الكوانتم.
دونالد : هل يعنى هذا أن طريقة التكذيب falsification لا تصلح ؟
تشارلز : كلا ، بل تصلح ، ولكنها عملية معقدة. كما أن الأمثلة المضادة البسيطة لا تكفى – فقد تكون هذه الأمثلة مجرد وهم كما فى مثال الغربان المطلية بطلاء يختلف عن لونها الأصلي ، ولاحظ أن هذا مجرد أمر تصورى ! فنحن لا نتحدث هنا عن ملاحظات وإنما عن أنواع الكائنات

المرتبطة بالملاحظات ؛ إن حديثنا هنا ميتافزيقي ! كما أن أى تفنيد جيد يتضمن أحكاما ميتافيزيقية ! فما يقوله سقراط هو أن النظرية الجديدة ترتب الأشياء فى صوره جديدة ، ومن ثم فتفنيدها بمقارنتها بكلمات تتواءم مع النظم القديمة يعد نوعا جائرا من النقد. لقد كان النقد الموجه إلى أينشتين وبودولسكى وروزن نقدا ظالما بالمعنى السابق.

دونالد (فى حزن) : إذن فعلينا أن نبدأ من جديد.

دكتور كول : نعم ، يتعين علينا هذا (ينظر فى ساعته) – ولكنى أعتقد أننا ينبغى أن نمضى قدما بسرعة أكبر ، إذ لم يتبق لدينا الكثير من الوقت كما أننى أريد فى المرة القادمة أن ننتقل إلى مناقشة أفكار **جون سيرل** John Searl. دعونى ، إذن أحصى لكم القائمة الثانية من انتقادات سقراط ...

دونالد: هل هى انتقادات حقيقية أم زائفة كسابقتها ؟

دكتور كول : نعم حقيقية. يتعلق النقد الأول منها بموضوعات تتعلق بالمستقبل.

مورين : ولكن هذا النقد يأتى فى ترتيب متأخر.

دكتور كول : لكنى فضلت معالجته الآن ، لأنه نقد بسيط جدا. أنظروا فى رقم 177 ، فى نهايه الصفحة ، ثم أنظروا بعد ذلك فى 178 حيث يذهب بروتاجوراس إلى أن القوانين الصالحة هى القوانين التى يعتقد معظم المواطنين أنها صالحة ، غير أن المواطنين يعتقدون أيضا أن القوانين الصالحة هى القوانين التى تؤدى إلى ازدهار المدينة – وتلك هى علة سن هذه القوانين. ولكن ماذا يكون الأمر إذا اتضح أن القوانين التى تبدو صالحة فى أعين المشرعين ومن ثم تعمل لصالحهم كانت بمثابة كارثة ودمار بالنسبة للمدينة ؟

ليزلى : ماذا يحدث عندما تتحول القوانين الصالحة موضوعيا إلى دمار المدينة ؟

دونالد : ماذا تعنى بذلك ؟

ليزلى : من الواضح أن أفلاطون كـــان لديــه البديــل لذلــك. فقــد هــاجم بروتاجوراس لأنـــه اعتقــد أن الأفكــار الافلاطونيــة أفضــل مــن الآراء البروتاجورية. بيد أن الأفكار الافلاطونية (نظرية المثـــل) تواجــه نفــس المأزق. فأفكار أفلاطون تعد صادقة ، وصحيحة موضوعيا ، إذا جاز لنا أن نستخدم تلك الكلمة(موضوعى) التى يتلون معناها حين يســـتخدمها البعــض لإلجام الآخرين واسكاتهم دون الرغبة فى تحمل أى مسئولية شخصية وهنـــا تكون النتيجة بمثابة الكارثة.

دكتور كول : هب أننا سلمنا بأنك على حق وأن الأمر يعد مشـــكلة بالنســبة لأفلاطون. ألا تعتبر الأمر مشكلة أيضا بالنسبة لبروتاجوراس؟

جاك : لا أعتقد ذلك. فقد قال البعض منذ سنين مضت " إذا بــدت القوانيــن صالحة لنا ، إذن فهى صالحة لنا " وهم الآن يقولون " هذه القوانين تبدو سيئة لنا ، إذن فهى سيئة لنا ". وليس ثمة تناقض هنا ، تماما كما لا يوجد تنــاقض إذا قلت لك يوم الثلاثاء إننى أشعر بإحساس رائع ، إذن أنا فى حاله طيبة ، ثم قلت لك يوم الأربعاء " أشعر بإحساس غير طيب ، إذن فأنا فى حالــة غــير طيبة ".

آرنولد : ولكن إذا كان الأمر كذلك ، فأنا أرى مشــكلة أخــرى ، إذ كيــف يتسنى للناس أن يتحاوروا ؟ فلكى يتجادل الناس ينبغى أن يكــون الشــخص (س) قادرا على أن يناقض ما يقوله (ص) ، ويتضمن هذا أن ما يقوله كـــلا من (س) و (ص) يجب أن يكون مستقلا عن حالتهما الذهنية.

جاك : كلا. إذ يكفى لاقامة الحوار أو الجدل أن يبدو لــ (س) أن ما يقولـــه (ص) يختلف عما يقوله هو. كما أن هناك شرطا إضافيــا ضروريــا: فــإذا عارض (س) و (ص) بعضهما بطريقة "موضوعية" دون أن ينتبهـــا إلـــى ذلك ، فلا يتحقق الجدل بهذا المعنى. يجب أن يكون للمثل الافلاطونيه تــأثيرا فى العالم الذى نعيش فيه وإن كان تحقيق ذلك التأثير يتضمن أننا نستطيع أن نمضى دون حاجة إلي تلك المثل.

مورين : إذا كانت هذه طريقتك فى التفكير ، فكيف تشجع أى شخص ، بل لماذا نحتاج إلى تشجيع أو حث أى شخص أصلا ؟

جاك : أعتقد أن بروتاجوراس قدم لنا إجابة عن هذا السؤال عندما قارن بين الطبيب والخطيب ، وإن كان طبيبه يستخدم الكلمات لا الأدوية فى علاج مرضاه. أما الفيلسوف فعندما يصادف شخصا يظن أنه فى حاجة إلى معونته، فإنه يقترب منه ويتحدث إليه. فإذا نجح فى مهمته ، فإن حديثه يعمل عمل الدواء الناجع ويغير من أفكار وتوجهات ذلك الشخص الذى كان يبدو من قبل تائها مضللا.

مورين : ولكن عبارتك الأخيرة ، أقصد قولك " الحديث يعمل عمل الدواء " ، مجرد افتراض ، لا يتفق معك فيه أحد.

جاك : كلا ! فإذا نجح الفيلسوف فى مهمته ، فسيتضح له ولمريضه أن الدواء كان ناجحا ، كما سيتضح نفس الأمر لعالم الاجتماع الذى قد يختبر هذا الأمر – على الرغم من عدم الحاجة إليه إذ يستطيع الفيلسوف وتلميذه (المريض) أن يصلا إلى اتفاق دون الحاجة إلى مثل تلك المعلومات الإضافية.

مورين : أتعنى أن المعيار هو أن كليهما يشعران بشعور طيب ؟

بروس : نعم ، ألا ينطبق نفس الشىء على كل جدال أو حوار نظرى ؟ هب أن لدينا بعض النظريات عالية التجريد ، كفلسفة هيجل ، مثلا ، أو نظرية الجاذبية العظمى فى الفيزياء. وهب أن بعض الناس يتحدثون عن مثل هذه النظريات وأنك تتابع المحادثة من على بعد ، ولا تفهم شيئا مما يقولون ولكنك تحكم بأن الأمور تسير بينهم على ما يرام – ثم يختلف المتحدثون فيما بينهم ، ورغم ذلك فهم يبدون على دراية بما يقولون . وهكذا فعلى الرغم من أن الأمر لا يبدو لك أكثر من مجرد ثرثرة فارغة المضمون إلا أنك تلاحظ أنهم يعرفون جيدا ما يتحدثون عنه...

جاك : تستطيع أن تقول نفس الشىء عن النظريات الفيزيائية ، فهناك نظريات ، وتجارب ...

لى فينج : يمكن للكمبيوتر أن ينجز كل هذه الأمور ...

جاك : نعم ، ولكن يبقى السؤال – هل نحن بحاجة إلى كل هذه المعـــدات ؟ وهل تتوافق الأحكام الذاتية مع الإجابة على هذا السؤال ...

لى فينج : نعم ، أى خارج دائرة الموضوع ...

جاك : ليس المهم أين تقع – وإنما المهم أن تكون حاسمة ! فإذا سأم العلمـــاء فجأة ما يقومون به ، أو بدءوا فى الهذيان ، كل على طريقته الخاصة ، أو إذا تحول جمهور الناس إلى التصوف ، فسوف ينهار العلم كمـــا تنهـــار بيـــوت الرمال. وغالبا ما تكون الأحكام الذاتية فى مجال الفيزياء خفية وآليـــة حتـــى وإن بدت فى صورة تجارب وحسابات. وأنا أقول أن هذا النمط من التفكـــير هو الذى يقدم لنا انطباعا بالموضوعية. أعتقد أن هناك كتابـــا يتعلـــق بهـــذا الموضوع لعالم الفيزياء ...

آرثر : أتقصد كتاب "المعرفة الذاتية Personal Knowledge" لعالم الفيزياء مايكل بولانى Michael Polani ؟

مورين : لقد أصابنى الدوار من هذا النقاش. فكل شـــئ يبـــدو متوافقـــا مـــع إنطباعات الجميع هنا. ولكنى شخصيا لا أتعامل إلا مع ذاتى ...

آرنولد : هل تقصدين مذهب الأنا الوحيدة Solipsism ، أو الفكـــرة القائلـــة إنك الوحيدة الموجودة وماعدا ذلك ماهو إلا جزء حيوي من ذاتك ؟

مورين : نعم ، بيد أنه من غير المحتمل أن يمثل هذا القول كل الحقيقة.

ليزلى : هل أنت متأكدة من ذلك ؟

جاك : على أية حال – لم يكن بروتاجوراس ليوافق على مثل هذا المذهـــب ! بل كان سيقول ، باسطا يده ، أن تلك هى يده ، وأن يده تختلف عن فكرته عن اليد وأن يده وفكرته عنها تختلفان عن الشخص الواقف أمامه. غير أنه كـــان سيضيف إلى ذلك أنه عرف كل ذلك من خبرته الذاتية وليس لديـــه مصـــدر آخر لتلك المعرفة. لماذا ، لأنه حتى إذا قال "قرأت ذلك فى كتاب معيـــن" – لوجب عليه أن يعول على إنطباعاته عن الكتاب – وهكذا دواليك.

مورين : ولكن ألا يعنى هذا أنه يعرف فقط المظهر الخارجى للنـــاس – أى يعرف فقط ما يؤثر فيهم ...

جاتينيو : حسنا دعونا ننظر للأمر من جهة أخرى ! هل نحن نعرف أكثر من المظاهر الخارجية للناس ؟ دعنى أسألك هذا السؤال: هل حدث ولو مرة واحدة أن رأيت صديقا لك ، من على قرب أو بعد ، دون أن تدرك أنه صديقك ؟

مورين : نعم ، حدث هذا الموقف معى وكان مثيرا للارتباك والخجل ، فقد شاهدت ذات مرة صديقا حميما لى يقف على بعد داخل المكتبة وقلت لنفسى " يا له من شخص كريه المحيا ! " – ثم اكتشفت بعد ذلك إنه صديق لى.

جاتينيو : وماذا حدث بعد ذلك ؟

مورين : حسنا ، إن صديقى شخص فى غاية الرقة والكياسة – وهذا ما بدا لى عندما تحققت من شخصه.

جاتينيو : وماذا عن انطباعك الأول عنه ؟

مورين : لقد كان مجرد حدث عارض.

جاتينيو : هل تعنى ذلك لأنه استمر فترة قصيرة ؟

مورين : نعم.

جاتينيو : وهل أنت واثقة من أن الآخرين لن ينظروا أبدا إلى صديقك نفس نظرتك الأولى له ؟

مورين : لا أدرى ، لقد كان الأمر بالنسبة لى خبرة مزعجة !

جاتينيو : ولكن أليست هذه الخبرة ، مع مخزون خبراتك الأخرى ، هى كل ما لديك ؟

مورين : بلى.

دكتور كول : أعتقد أنه من الأفضل أن نعود إلى المحاورة ، فربما تعثرون فيها على إجابة على بعض تساؤلاتكم. أعتقد أن أفلاطون كان سيقول أن الناس لا يكونوا دائما قادرين على خلق النظام الملائم – فمثل هذه الأمور تحتاج إلى خبير. تلك هى فكرته المحورية. فالحكم على الأشياء ليس مهمة الجميع – ولكنه مهمة الخبراء. فعلى سبيل المثال (يقرأ من المحاورة)

"الطاهى الجيد أفضل حكماً على لذة الطعام الذى يقوم بإعداده من الضيف غير الخبير..."

ديفيد : يبدو أن ذلك الضيف لم يأكل فى مطاعم متنوعة ! لقد تناولت أمس الغذاء فى مطعم فرنسي. وقد سبق أن امتدح النقاد ذلك المطعم ، كما قرظه طهاة المطاعم الأخرى ، بل أن مجلة تايم Time زكته لقراءها ولكن ماذا حدث ؟ لقد كدت أتقيأ غثيانا من الطعام !

تشارلز : أتفق معك تماماً ! فهل الخبراء فى ذاتهم ، أفضل من غيرهم ؟ كلا. إنهم يحصلون على معاملة متميزة وعائد مادى مجزى لأن الكثير من الناس يصدقونهم. ومعظم الناس يفضلون أن يقول لهم الخبراء ماذا يفعلون .

ليزلى : يبدو ، إذن ، أن النقد الحقيقى ، ليس أفضل حالا من النقد الزائف.

دكتور كول : رويدكم قليلا – فنحن لم ننته من المحاورة بعد ! أتفق معكم فى أن بعض مقاله سقراط ليس مقنعا – غير أن هناك المزيد من الحجج ! فسقراط يعتقد أن مبدأ بروتاجوراس يدحض نفسه بنفسه.

جاك : ستواجهك صعوبات جمة إذا أخذت بهذه الحجة ! فسقراط يطلق عليها حجة متقنة ولكنى لا أرى فيها سوى خدعة ساذجة. انظروا إليها. يستشهد سقراط فى صفحة 170 ببروتاجوراس ، فهو يريد تفنيد حجته من خلال أقواله. يقتبس سقراط قول بروتاجوراس أن ما يبدو للشخص يكون أيضا موجودا بالنسبة له. ولاحظوا ، أنه لا يقول ما يبدو للشخص يكون موجودا ، وإنما يقول ما يبدو للشخص يكون موجودا بالنسبة لذلك الشخص.

دكتور كول : نعم ، هذا ما يقوله بروتاجوراس.

جاك : إذا كنت قد أصبت فى فهم حجة سقراط فأنا أعتقد أنه يشير إلى أن العديد من الناس لا يشاركون بروتاجوراس ذلك الاعتقاد. فهم لا يقولون " ما يتراءى لنا ، يكون موجودا بالنسبة لنا " ، وإنما يتجاهلون ما يتراءى لهم ، ولا يكون لهم فى غالب الأحيان رأى خاص بهم ، ومن هنا يقنعون بالأخذ برأى الخبراء.

ديفيد : لأنهم يعتقدون أن الخبراء يمتلكون الحقيقة.

جاك : كلا ، لست أقصد هذا. ولكنى أعنى أن معظم الناس إذا ما عرض لهم مبدأ بروتاجوراس فسيقولون مع سقراط أنهم ليسوا بالتأكيد مقياسا للأشـــياء ، وأن الخبراء وحدهم هم مقياس الأشياء كما أن الخبراء سيقولون نعم ، نحن ولا أحد غيرنا ، نعرف ما نتحدث عنه. أليس هذا ما يقوله سقراط ؟

دكتور كول : ليس بنص هذه الكلمات ، وإنما بنفس المعنى.

جاك : ويقول سقراط بعد ذلك قبيل نهاية المحاورة ، أن بروتاجوراس نفســه ينبغى أن يقر ، وفقا لمبدئه ، أن ذلك المبدأ كاذب – وعليك أن تلاحظ ، أنــه لن يكون كاذبا بالنسبة لأولئك الناس ، أو بالنسبة للخبراء ، كمــا ينبغــى أن يقول طبقا لنص كلمات المبدأ ذاتها ، وإنما ببساطة كاذب فقط. حســنا ، أنــا أكرر هنا ، أن هذا القول ليس حجة أو برهان ، وإنما مجرد خدعة زائفة .

سيدنبرج : لا يمكن أن يكون هذا هو التأويل الصحيح للحجة ! أنا لا أزعم أن أفلاطون لم يلجأ إلى الخداع على الإطلاق ، ولكنه إذا رغب فى أن تنطلـــى أحد ألاعيبه علينا ، كما تقولوا فى لغتكم أيها الأمريكيون ، فما كان ليصيغهــا فى هذه الصورة الساذجة. أصغوا إلىّ ! عندما قدم بروتاجوراس مبدأه للمرة الأولى كان حريصا على أن يضيف القول " بالنسبة إلى " فى الأمثلــة التــى أوردها. فالرياح باردة بالنسبة للشخص الذى يشعر ببرودتها ، وليست بــاردة بالنسبة لمن يشعر بالدفء ... الخ. وينطبق نفس ذلك القول على الفقرة التى تناقشها الآن. فهى تبدأ بالآتى : ما يبدو موجودا لشـــخص معيــن ، يكــون موجودا بالنسبة له. وهكذا ، فعندما يسقط تعبير "بالنسبة له" ، فلابد أن لديـــه سببا وجيها لذلك.

جاك : أتمنى أن أعرف ذلك السبب.

سيدنبرج : (مخاطبا **جاك**) دعنى أحاول شرحه لك. أنا أعـــترف بـأننى لا أملك معرفتك بالمنطق وربما أقع فى بعض الأخطاء ، ولكنى ســأحاول. إن بروتاجوراس يقول "ما يبدو موجودا لشخص معين يكون موجودا بالنسبة له"، أو بتعديل بسيط " ما يبدو صادقا " لشخص ما يكون "صادقاً بالنسبة له" ، هل توافقنى على ذلك ؟

جاك : نعم ، استمر.

سيدنبرج : يمكننا الآن أن نمضى قدماً ونجمع بين الأمرين ونقول أن بروتاجوراس يقول أن القضية: " يبدو لـ (س) أن (ص) صادقة " تكافئ القضية : " (ص) صادقة بالنسبة لـ (س) ". هل أنا على صواب ؟

دكتور كول : نعم أنت على صواب.

سيد نبرج (مخاطبا **جاك**) : أريد الآن أن أستعير طريقتكم أيها المناطقة فى التعبير – سأقول إن ذلك القول مكافئ لـ (ص) equivalence. والآن لنفترض أن شخصا ما ، وليكن سقراط مثلا ، أنكر القضية (ص).

جاك : إذا حدث ذلك فسوف يبدو له أن (لا ـ ص) صادقة ، ومن هنا ستكون (لا ـ ص) صادقة ، وهو أمر يتفق مع المبدأ السابق.

سيدنبرج : قد يكون الأمر كذلك. فهو يستطيع أن يقول أن (لا ـ ص) تتفق مع المبدأ – ولكنه إذا قال ذلك ، فسيكون قد أنكر المبدأ ، بغض النظر عن التوافق مع أى مبدأ. ولاحظوا ، إنه لا ينكر المبدأ كلية. فسقراط لا يقول " لا يمكن أبدا أن تكون (س) صادقة بالنسبة لى " ، ولا يقول " يكون كاذبا بالنسبة لكل القضايا (س) وكل الناس (ص) إذا بدت لـ (س) أن(ص) صادقة فتكون (ص) صادقة " – وإنما يقول ببساطة " (س) كاذبة بالنسبة لى " وهذا يعنى أن هناك بعض الجمل التى لا يقود مظهرها الصادق ، بالنسبة لشخص معين ، إلى صدقها بالنسبة لذلك الشخص. ولا ينكر سقراط بالتأكيد صدق (س) بالنسبة لقضايا المعطى الحسى – فإذا بدت القضية صادقة فى حالة المعطيات الحسية فإنها تكون صادقة حقا ، وهو يقول ذلك لنفسه.

جاك : وماذا بعد ذلك ؟

سيدنبرج: ما يبدو لشخص ما موجودا وفقا لرأى بروتاجوراس يعد موجودا بالنسبة لذلك الشخص. وهكذا فوفقا لرأى بروتاجوراس تختلف بعض المظاهر (بالنسبة لسقراط) عن الحقائق المطابقة لها (بالنسبة لسقراط أيضا). وهكذا فإن (س) وفقا لرأى بروتاجوراس تكون صادقة بالنسبة له ، أى لبروتاجوراس. والطريقة الوحيدة للخروج من هذا المأزق تتحقق بإنكار أن

يكون لشخصين مختلفين آراء متماثلة عن نفس القضية . لقد عبر أفلاطـــون عن ذلك الأمر بقوله أن مبدأ بروتاجوراس كاذب - ولكن كـــان بوســـعه أن يقول شيئا مختلفا ، إذ أن القول "صادق بالنسبة لـــ " ، ينفصل عـــن القـــول " يبدو بالنسبة لـــ " ، ومن ثم فلا محل لاستبقاء كلمة " بالنسبة لـــــــ "، لأنهـــا تستخدم فقط كلون من التشبيه أو الموازنة بين ما يبدو صادقا لشخص معيـــن وما يبدو موجودا بالنسبة لذلك الشخص: وهكذا فان الحجة تبدو لى حاسمة.

بروس : أنا غير مقتنع بهذا الكلام. أنا لا أقول أن تفســـيرك للحجـــة غـــير صحيح ، ولكنكما ، أنت وأفلاطون ، تستخدمان افتراضا عاما موســـعا. فقـــد افترضتما أنه إذا تم تطبيق مبدأ معين ، أو إجراء ما ، على ذاته ، وأدى ذلك التطبيق إلى نوع من التناقض أو اللامعنى لوجـــب التخلـــى عنـــه. إن هـــذا الافتراض يثير الكثير من الشك. ربما لم يكن بروتـــاجوراس لـــيرغب فـــى استخدام مبدأه بهذه الطريقة.

دكتور كول : لست متأكدا من هذا القول. لقد كان بروتـــاجوراس سفســـطائيا وكان السفسطائيون بارعين فى صياغة الحجج الخادعة.

تشارلز : دعنا إذن نميز بين مبدأ بروتاجوراس وبين تفســـير بروتـــاجوراس لذلك المبدأ. ماذا نفعل حيال ذلك المبدأ ؟ هل نقبل التفنيد الذى اســـتمعنا إلـــى الآن ؟

بروس : كلا ، إذ لا يجب علينا أن نقبل القاعدة التى تقول بضرورة التخلـــى عن المبدأ الذى يؤدى إلى صعوبات عند تطبيقه على نفســـه. انظـــروا إلـــى القضية الآتية :

الجملة الوحيدة المكتوبة هنا كاذبة

إذا قرأت هذه الجملة أستطيع أن أستدل أنها صادقة ، ولكنها إذا كانت صادقه تكون كاذبة وإذا كانت كاذبة تكون صادقة - وهكذا دواليك. نعبر هذه القضية عن مفارقة الكاذب Liar paradox. ومن هنا فقـــد انتهـــى البعـــض إلـــى ضرورة تجنب الإشارة إلى الذات ؟ إذ لا ينبغى أبدا للجملة أن تتحدث عـــن نفسها أو تنطبق على نفسها ؛ ومن ثم فلا ينبغى أن أقول ، مثلا ، أنا أتحـــدث

الآن برقة شديدة. لماذا ؟ لوجود افتراض يقــول أن كافــة الجمــل الممكنــة والخاصة بلغة معينة تم التفوه بها بالفعل ومن ثم أصبحت الآن نسقا مجــردا إن استخدام الإشارة إلى الذات فى مثل هذا النسق يؤدى بالطبع إلــــى خلــق صعوبات معينة. غير أن اللغات التى نستخدمها ليست هى الأنساق المقصودة. فعبارات هذه اللغات لم تكن قائمة بالفعل ، وإنما يتم خلقها ، جملــه جملــة ، أثناء الحديث ، وينشأ عن ذلك قواعد الحديث والكتابة. افــترضوا الآن أننــى قلت : " يصعد الجنون الأحمر إلى التلال المحيطة " ، هل هناك معنى لهــــذا القول ؟ ربما كنت أريد استعمال لون جديد من ألوان الشعر ، أو ربما كنــــت أقول هذه الجملة لأعبر للطبيب النفس الذى يعالجنى عن الحلم الذى شــاهدته فى منامى – ومن المحتمل بدرجة كبيرة أن يفهم الطبيب مغزى ما أقـــول – وربما كنت أقول تلك الجملة لتلميذة تدرس فن الطرب والغناء لأساعدها فـــى تنظيم النفس والصوت – وصدقونى إذا قلت لكم أن أساتذة الطرب يستخدمون بالفعل ، وبنجاح باهر ، عبارات من هذا القبيل ! إننا لا نكتفى فى الحــــالات السابقة بمجرد إتباع قواعد معينة وإنما نقوم بتقنين وتعديل هذه القواعد مـــــن خلال الطريقة التى نتقدم بها إلى الأمام.

جاتينيو: هذه آراء هامة جدا. فأنا أدرس نظرية الانسجام والتناغم فى التأليف الموسيقى. هناك أساتذة يضعون لنا القواعد ، ويقدمون مبررات يدافعون بهــا عن هذه القواعد. غير أنهم إذا تأملوا التاريخ فسيكتشفون استثناءات عديدة لما يقولون. فكثيرا ما يخالف المؤلفون الموسيقيون القواعد المكتوبة. ماذا تظـــن أولئك الأساتذة يقولون عن ذلك؟ إنهم إما ينتقدون المؤلــــف الموســيقى ، أو يجعلون القواعد أكثر تعقيدا وتركيبا. ويتخذ والتر بيستون Walter Piston فى نظريته فى الانسجام الموسيقى منحى مختلفا. ولن أنسى أبدا أحد العبارات التى صاغ فيها تلك النظرية يقول فيها " الموسيقى محصلة للتأليف الموسيقى، لا لتطبيق القواعد الموسيقية ". أنت تقول هنا أن اللغة تترتب على الكلام ، لا على تطبيق القواعد ؛ لا يستطيع أى شخص ، وفقا لذلك ، أن يحكم على لغة معينة إذا أجتث منها جزءا ووضعه فى الكمبيوتر.

آرثر : أريد أن أضيف إلى ما سبق أن العلم ما هو إلا محصلة لعملية البحث، وليس لاتباع قواعد معينة ، ومن هنا لا نستطيع الحكم على العلم باستخدام قواعد إبستمولوجية مجردة اللهم إلا إذا كانت هذه القواعد نتاجا لممارسات إبستمولوجية دائمة التغير.

جاك : ولكن ماذا يبقى لنا فى هذه الحالة من البراهين ، كبرهان **جودل** الناقص Godel's incomplete proof ، أو حتى البرهان البسيط الخاص باتساق حساب القضايا ؟

جاتينيو: لقد فكرت فى هذا الأمر. لا يتعلق هذا البرهان باللغة المنطوقة ، فهو لا يتعلق على سبيل المثال بلغة الأرقام ، وإنما يدور حول عملية إعادة بناء صورى لتلك اللغات ، وهو يبين لنا أن تلك العملية محدودة بالتأكيد. فإذا قررت أن تتمسك بقواعد معينة ، دون اعتبار لأى شئ آخر ، فسوف تصطدم بكل أنواع العقبات.

بروس : هذا تفسير رائع لما أردت أن أقول ! فنحن إذا أردنا تطبيق توجهات مؤلف موسيقى ، أو متحدث للغة معينة على مبدأ بروتاجوراس ، فسنعتبره قاعدة تقريبية ينشأ معناها من استخدامها وليست أمرا جامدا تم تحديده سلفا. من هنا أقول أن حجج سقراط لا تفند المذهب النسبى. وإنما تفند التعديل الأفلاطونى لذلك المذهب. إذ لا ترتبط القضايا فى ذلك التعديل بمنطوق كلماتها ، وإنما توجد مستقلة عن الكلام حتى أن القضية الجديدة قد تتعارض بطريقة هزلية مع سابقتها.

جاك : ولكن إذا قررت أن تعدل قضاياك باستمرار أثناء تقدمك ، فلن يستطيع أحد بالطبع أن يفندك.

آرثر : كلا ! لقد تغيرت مجموعة القضايا المعروفة باسم "نظرية نيوتن" على يد إيولر Euler ، وبرنوليس Bernoullis ولاجرانج lagrang و هاميلتون Hamilton ، وقد تغيرت تلك النظرية بطريقة تجعلها نفس النظرية بمعنى ما ، ونظرية أخرى مختلفة بمعنى آخر. وعلى الرغم من هذا فقد أشار هؤلاء العلماء إلى صعوبات محددة فى هذا البناء العلمى غير المستقر. إن أى

نظرية علمية يتم تفسيرها بطريقة حرفية مبسطة، تصطدم مع وقائع لا حصر لها. لقد كان أفلاطون على وعى بهذه الحقيقة ، ومن هنا انتقد ممارسة عملية الاستبعاد السهل للنظريات ، غير أنه وقع فى نفس الخطأ عندما استخدم نفس ذلك الإجراء الذى انتقده.

تشارلز: إن هذا يوجب علينا التفرقة بين المذهب النسبى وبين تفسير سقراط له بهدف التفنيد السهل ...

ليزلى : والتفرقة أيضا بين ذلك وبين ما صنعه بروتاجوراس بذلك المذهب على افتراض انه عالج المبدأ بطريقة منطقية.

بروس : أنتم على حق. أعتقد أنه من الأفضل لنا عند مناقشة المذهب النسبى أن نبدأ ببعض الأمور العملية من قبيل ما هى مقاصدنا ؟ وأستطيع أن أقول أن مقاصد الفيلسوف النسبى تتمثل فى حماية الأفراد ، والمجموعات ، والثقافات من أفعال أولئك الذين يظنون أنهم عثروا على الحقيقة. كما أود أن أؤكد هنا على أمرين: أولهما ، التسامح. ولا أعنى بذلك التسامح الذى يقول أصحابه " حسنا ، إن هؤلاء الحمقى لا يعرفون شيئا – غير أن لهم الحق فى الحياة التى يرونها مناسبة لهم – فدعهم وشأنهم " ، فهذا فى اعتقادي يعد نوعا وضيعا من التسامح. فتسامح من ينتسبون إلى المذهب النسبى يفترض وجود إنجازات هامة لمن يسامحهم وأنهم استمروا فى البقاء بسبب هذه الإنجازات. ومن الصعوبة بمكان تفسير مكونات هذه الإنجازات. نحن لا نستطيع بالتأكيد أن نتحدث عن "أنساق فكرية" أو "نظم للحياة" – إذ يبدو واضحا مدى سخافة مثل هذا الافتراض فى حوارنا. غير أننا مع ذلك نستطيع أن نعزل ، بصورة تقريبية ، مرحلة ثقافية معينة ونقارنها بمرحلة ثقافية أخرى مختلفة ونصل بذلك إلى نتيجة مؤداها إمكان وجود طرق مقبولة للحياة بدرجات متفاوتة فى الثقافتين. ويمكن بالطبع أن يشعر الشخص الذى ينتمى للثقافة الأولى (أ) بعدم الارتياح بصدد الحضارة الثانية (ب) ، وإن كان هذا ليس بالأمر الهام ، فاهتمامنا ينصب على أولئك الذين نشئوا فى ظل الحضارة الثقافية (ب) ثم تصادف أن تعرفوا على الثقافة (أ) ، واكتشفوا فيها مزايا وعيوب فى نفس

الوقت ، غير أنهم فى نهاية الأمر قد يفضلون ثقافة (أ) على ثقافتهم وحضارتهم وطرقهم الأصلية في الحياة – ربما تكون لهم أسباب وجيهة لذلك الاختيار. غير أن القول بأن من اختاروا الثقافة الجديدة اختاروا أيضا الكذب لا الصدق ، هو قول بلا معنى.

آرنولد : أنا لا أتفق مع ما تقول ! أنظر إلى أى قضية ، ستجد إنها إما صادقه أو كاذبة ، بغض النظر عن اعتقاد الناس فيها. نعم قد يكون الشخص الشرير سعيدا والعادل بائسا - بيد أن هذا الأمر لا يجعل من الشرير عادلا.

تشارلز : يمكن أن يكون قولك صحيحا إذا كان العالم لا يتغير طبقا للطريقة التى يتصرف بها الناس من مكان لآخر. ففى مثل هذه الحالة الأخيرة تستطيع أن تقول ، نعم ، لدى قضية ذات كيان ثابت ، كما أن هناك عالما نعيش فيه يشكل أيضا كيانا ثابتا ، وأن هناك علاقة موضوعية بين الأمرين ، وأن الواحد منهما قد يتوافق أو لا يتوافق مع الآخر ، على الرغم من أنه قد لا يتاح لى معرفة ذلك الأمر أبدا. ولكن لنفترض أن العالم ، أو **الوجود**Being، إذا استخدمنا مصطلحا أكثر عمومية ، يتفاعل مع الطريقة التى تسلك بها ، أو مع الطريقة التى تسير عليها حضارة كاملة ، أى أن الوجود يستجيب ويتفاعل بطريقة مختلفة مع التوجهات المختلفة وأنه لا توجد وسيلة للصلة بين هذه التفاعلات وبين أى جوهر كلى أو قانون عام. ولنفترض أيضا أن الوجود يتفاعل بصورة إيجابية ، أى بطريقة تدعم الحياة وتؤكد الحقائق لأكثر من توجه من التوجهات السائدة ، إن كل ما نستطيع أن نقوله فى مثل هذه الحالة هو إننا عندما نقترب من الوجود بطريقة علمية فإنه يقدم لنا عوالم مغلقة ، الواحد بعد الآخر ، كما يقدم لنا كونا أبدياً لا نهائيا ، ويقدم لنا الانفجار العظيم the Big Bang ، ومصفوفة هائلة من المجرات ، كما يقدم لنا على المستوى الأدنى ، عالما بارمنيديا (نسبة إلى بارمنيدس) لا يتغير ، وعالما من الذرات الديمقريطية (نسبة إلى ديمقريطس) ، الخ. حتى نصل إلى الكوارك quarks وهلم جرا. أما الاقتراب من الوجود بصورة روحية، فيقدم لنا الآلهة ، ولا أعنى بذلك مجرد أفكار عن الآلهة ، وإنما أعنى آلهة حقيقية عينية يمكن لك

أن نتبع تفاصيل أعمالها. وهكذا تستمر الحياة في كل تلك الأحوال ولا يمكنك أن تقول إن الآلهة في مثل هذا العالم مجرد أوهام – وإنما هي موجودة في الواقع ، حتى إن لم يكن ذلك بصوره مطلقة ، وإنما كرد فعل لممارسات معينة ، ولا نستطيع هنا أن نقول أن كل شئ يسير أو كان يسير وفقا لقوانين ميكانيكا الكوانتم ، فتلك القوانين أخذت مكانها أيضا بعد أن مرت بتطورات تاريخية معقدة ؛ ومن هنا نستطيع أن نقول أن الثقافات المتباينة والتيارات التاريخية المختلفة (بالمعنى التقريبي المحدد الذي سبق ذكره) لهما أساس واقعي كما نقول أن المعرفة "نسبية" بهذا المعنى.

لي فينج : هل تريد أن تقول إن الإنسان والثقافات جميعا تعد مقاييس وأن الوجود أيضا مقياس وأن العالم الذي نحيا فيه ما هو إلا محصلة لتفاعل هذه المقاييس ؟

تشارلز : نعم ، هذه صياغة بارعة لما أريد أن أقول. إن العديد من الناس يقعون في خطأ افتراض أن ما ينشأ كاستجابة لأفعالهم ، أو تاريخهم ، يتضمن في داخله كل الثقافات الأخرى ، وأن الآخرين لا يلاحظون ذلك لفرط غبائهم. غير أنه لا توجد طريقة للكشف عن الآلية التي تنبثق بها العوالم المختلفة عن الوجود.

لي فينج : أنا غير مقتنع بهذا الافتراض – فلم لا يكون ممكنا أن نكتشف مثل هذه الآلية في يوم من الأيام ؟

تشارلز : لأن الاكتشافات مجرد أحداث تاريخية – أي لا نستطيع التنبؤ بها. كما أن معرفة آلية التفاعل تعني إمكان التنبؤ بها – ومن ثم فلن يتسنى لنا أبدا معرفة مثل هذه الآليات. ويمكننا ، بعبارة أخرى ، أن نقول أن أي شخص يعيش حياة مستمرة في الزمان لا يستطيع أن يتنبأ بأفعال الطبيعة. فمثل هذا الشخص يستطيع أن يتنبأ بما يحدث داخل عالم محدد ، ولكنه لا يستطيع التنبؤ بالتغير الذي يحدث بين عالم وآخر.

جاك : أريد أن أعود إلى هواجس **لي فينج** – فلماذا لا يمكننا اكتشاف قوانين الوجود ذاتها. إذ من الميسور علينا تقديم نماذج لمواقف تبين لنا حدود

المعرفة ، حتى طبقا لقوانين عالمنا المحدود. فنحن نستطيع ، على سبيل المثال ، أن نقدم نموذجا للحالة الكوانتية الخالصة للمنضدة التى أمامنا. ولكى أعثر على مثل هذه القوانين يجب أن يتوافر لى جهاز للقياس أكبر من الكون برمته ، وحتى إذا امتلكت مثل هذا الجهاز ، فسوف يدمر ذلك الجهاز المنضدة ، بدلا من أن يقيسها. ونستطيع إذا اعتبرنا المخ الإنسانى جهاز كمبيوتر أن نضع بعض الافتراضات التى تتعلق بقدراته ـــ ولكن ستظل مع ذلك بعض الأمور بمنأى عن الفهم – طبقا للحقائق والقوانين التى نعرفها. فلماذا لا يتفاعل *الوجود* مع الأفعال الإنسانية فى ضوء القوانين والوقائع التى نعرفها ونقبلها فى عوالم مفهومة لنا جزئيا على الأقل حتى وإن كانت غير قابلة للفهم فى ذاتها.

آرنولد : أنت تتحدث كما لو أن الوجود صار شخصا.

تشارلز : ربما كان الأمر كذلك – أنا لا أتورع من اعتباره كذلك دون اللجوء إلى طريقة "اسبينوزا" المعقدة.

جاك : المذهب النسبى إذن يكافئ القول بعدم وجود طبيعة ثابتة ووجود حقيقة غير محددة ، لا يمكن معرفتها من حيث المبدأ ، وهو أمر يؤدى إلى رفض بعض الاتجاهات – وبقاء بعض الأفعال دون استجابات – وان كان يترك لنا مساحة للتفكير أكبر من المساحة التى يفترضها أفلاطون أو أينشتين.

تشارلز : نعم أعتقد ذلك. فنحن لدينا ثقافات متعددة ، لا تتشكل من مجرد حماقات أو أعمال خرقاء ، كما أنها لا تسير وفقا لصورة متطرفة من مبدأ بروتاجوراس النسبى ، وغاية ما هنالك أن الوجود يسمح بمداخل فكرية عديدة ويشجع على اتخاذ صورة عملية من المذهب النسبى – ويمكننا القول ببعض الترخيص أن الإنسان ، أو بعض الجوانب الثابتة بصفة مؤقتة للثقافات تعتبر مقاييس للأشياء ، بالدرجة التى يسمح بها الوجود لها أن تعمل كمقاييس. كما أن الوجود يسمح أيضا للأفراد أو الثقافات بدرجة الاستقلال المطلوبة كى يصبحوا مقاييس بهذا المعنى. وقد يستطيع شخص بدأ الطريق بمفرده أن يفهم بمعنى ما الوجود وأن يقدم لنا دافعا لعالم جديد تماما. إننا لا نستطيع ببساطة

أن نفرق بين دراسة المذهب النسبى والتسامح من جهة وبين الكوزمولوجيا أو الثيولوجيا (علم اللاهوت) من جهة أخرى – فدراسة مثل هذه الموضوعات دراسة منطقية محضة ليس فقط أمرا ساذجا وإنما لا معنى له أيضا.

دكتور كول : حسنا لقد كان لأفلاطون نفس هذا الرأى فى مرحلة لاحقة ، ففى محاورة طيماوس يقوم ببناء كوزمولوجيا كاملة كأساس لتفسير المعرفة...

(يدخل القاعة شخص يبدو أنه من أعضاء هيئة التدريس قائلا): معذرة ينبغى أن تبدأ محاضرتنا الآن فى هذه القاعة ...

دكتور كول : الآن ؟ لقد انتهينا بالكاد من نصف المحاورة فقط.

دونالد (فى صوت يغلفه الأسى) : وماذا كانت النتيجة ؟

تشارلز : هل تعنى أنك لم تتعلم أى شئ ؟

دونالد : كلا فقد حاولت أن أكتب بعض الملاحظات ، غير أنكم كنتم تقفزون من موضوع إلى آخر ، لقد كان الأمر فى غاية الفوضى والخلط...

تشارلز : هل تريد أن تقول أن النتائج أمر يمكن تدوينه على الأوراق ؟

دونالد : هل لديك طريقة أخرى ؟

سيدنبرج (محاولا التفلسف) : ولكن انظروا ، أتذكرون عندما تحدثنا عن أسلوب أفلاطون وسبب معارضته للمقالات العلمية ...

دونالد : هل تعنى أن كل ما ناقشناه مجرد أمر معلق دون حسم.

تشارلز: ليس أمراً معلقا ، ولكن لا يمكن أيضا تدوينه وإنما يمكن حفظه فى العقل ، حيث الذاكرة والتوجهات .

دونالد : ليس هذا ما أعنيه بالفلسفة.

(الأستاذ الواقف على الباب) : تباً لكم أيها الفلاسفة ؟ لا عجب إن لم تنتهوا من محاضرتكم فى وقتها المحدد.

جراتزيا (تظهر على الباب – فتاة جذابة ذات شعر جميل مجعد ولهجة إيطالية واضحة) : هل هذا درس نظرية المعرفة ؟

دكتور كول (باهتمام) : نعم ، ولكن معذرة ، فقد انتهت المحاضرة.

جراتزيا (بأسى) : لماذا أنا دائماً متأخرة ؟

دكتور كول (برقة) : لم يفوتك الكثير فى واقع الأمر.

جراتزيا : هل أنت أستاذ المادة ؟

دكتور كول(بارتباك) : نعم ، وإن كنت لا أحب أن أكون ديكتاتورا متسلطا...

جراتزيا : هل تترك الطلاب يتحدثون ، وهل كان هناك حوار؟ ربما كنت أستطيع أن أساهم فيه بالإضافة ؟

دكتور كول : كان يمكنك ذلك فقط إذا نجحت فى إسكات الطلاب الآخرين.

جراتزيا (بنظرة تفوق وتحدى) : لا أظن أن مثل هذا الأمر مشكلة بالنسبة لى. لكنى حقا آسفة لتأخرى عن هذا الدرس ...

(ينصرف **دكتور كول** ومعه جراتزيا وهما يتحدثان بحماس شديد. وينصرف الجميع. ويبقى **دونالد** بمفرده يحدث نفسه قائلا) : هذا هو آخر درس فلسفة سأحضره. فبهذه الطريقة لن أتمكن أبدا من أن أحقق درجة النجاح.

المحاوره الثانية

١٩٧٦

يتوفر للإنسان الخالى غير المشغول دائما وقت فراغ يتحدث فيه فى سلام مع الآخرين وينتقل ، كما سيحدث فى محاورتنا ، من حجة إلى أخرى، كما أنه يهجر مثلنا الحجج القديمة إلى أخرى جديدة ترضى طموحه ، وهو لا يأبه لطول أو قصر زمن المناقشة ، مادامت تقوده فى النهاية إلى الحقيقة. أما الأستاذ المتخصص ، أو الخبير ، فيضع فى حسبانه عنصر الوقت ، يتحدث دائما فى هرولة وعينه على الساعة ، كما لا يكون لديه متسع من الوقت للتوسع فى أى موضوع يختاره ، غير أن العدو ، الذى يتمثل فى محرر المجلة أو الدورية يقف دائما له بالمرصاد مستعدا لأن يتلو عليه قائمة بالنقاط التى ينبغى أن يقتصر عليها. فهو بمثابة عبد ينازع عبدا آخر أمام سيد فى محاكمة وقد أمسك بيده التماسا محدداً. والموضوعات المطروحة هامة ، غير أن همومه الشخصية تلاحقه باستمرار ، بل وحتى راتبه الذى يتقاضاه أيضا يكون موضع خطر. ومن ثم تكسبه هذه الأمور قسوة مريرة لاذعة...

(بعد أفلاطون ، ثيتاتوس)

س : ماهى حججك ضد العقلانية النقدية ؟

ص : العقلانية النقدية ؟

س : نعم ، العقلانية النقدية ، فلسفه بوبر.

ص : لم أكن أعرف أن لبوبر فلسفة.

س : لابد أنك تمزح. فقد كنت تلميذا له ...

ص : استمعت إلى بعض محاضراته ...

س : ثم أصبحت تلميذا له ...

ص : هذا مايردده البوبريون ...

س : كما أنك قمت بترجمة كتاب بوبر المجتمع المفتوح ...

ص : كنت فى حاجة إلى النقود.

س : لكنك ذكرت بوبر فى هوامش أعمالك ، بل وكررت ذلك كثيرا.

ص : لأنه ومعه تلاميذه ألحوا على أن أفعل ذلك وأنا رجل رقيق القلب. كما لم يكن فى حسبانى أن يوما سيأتى على هذه المجاملات الرقيقة لتصبح أساسا لرسالة دكتوراه عن موضوع "التأثير".

س : ولكنك كنت أحد أتباع بوبر – فكل حججك كانت على طريقته.

ص : هذا هو عين الخطأ. لقد ظهر أثر بعض مناقشاتى مع بوبر فى كتاباتى المبكرة ولكن نفس الأمر حدث فى مناقشاتى مع أنسكومب Anscombe وفتجنشتين Wittgenstein وهوليتشير Hollitscher وبور Bohr ، بل حتى قراءاتى فى الدادية Dadism والتعبيرية Expressionism والسلطة النازية، تركت أثراً ما فى كتاباتى. وهكذا فأنا أجرب أى فكرة غير مألوفة أصادفها. وتتلخص طريقتى فى تجريب مثل هذه الأفكار فى دفعها إلى أقصى طرف لها. إذ لا توجد فكرة واحدة ، مهما بدت سخيفة وبغيضة ، إلا ولها جانب معقول كما لا توجد أيضا وجهة نظر واحدة ، مهما بدت معقولة وذات طبيعة إنسانية ، إلا وتشجع ومن ثم تخفى غباءنا وميولنا الإجرامية. وتحتوى مقالاتى على الكثير عن فتجنشيتن – غير أن أنصار فتجنشتين لا يسعون وليسوا بحاجة إلى عدد كبير من الأتباع ومن هنا لا تراهم يزعمون أنى واحد منهم. وهم يدركون ، فضلا عن هذا ، أنه بينما يعتبر فتجنشتين واحدا من الفلاسفة العظام فى القرن العشرين ...

س : أهو أعظم من بوبر ؟

ص : بوبر ليس فيلسوفاً ، إنه مجرد معلم – ولهذا السبب أحبه الألمان. إن أتباع فتجنشيتين على أية حال ، يدركوا أن إعجابى به لم يجعلنى بعد واحدا منهم. ولكن هذا الأمر بعيد عن محور الموضوع...

س : رويدك – أنت تزعم أنك قد تستخدم أفكارا معينة دون الحاجة إلى قبولها.

ص : نعم.

س : هل أنت فوضوى ؟

ص : لا أدرى – لم أفكر فى هذا الأمر.

س : ولكنك كتبت مؤلفا عن الفوضوية !

ص : وماذا فى الأمر ؟

س : هل تود أن نأخذك مأخذ الجد ؟

ص : وما علاقة هذا بذاك ؟

س : أنا لا أفهمك.

ص : عندما تكون هناك مسرحية جيدة يأخذ المشاهدون حركات وأقوال الممثلين بجدية تامة ، ويتوحدون تارة بهذه الشخصية ، وتارة بشخصية أخرى ، وهم يفعلون ذلك على الرغم من معرفتهم بأن الممثل الذى يقوم أمامهم بدور الزاهد العابد ليس فى حياته الخاصة إلا فاسقا عربيدا وأن الفوضوى الذى يلقى بالقنبلة على المسرح ليس إلا رعديدا مذعورا فى حياته الخاصة.

س : ولكن النظارة يأخذون المؤلف مأخذ الجد !

ص : كلا ، إنهم لا يفعلون ذلك! ولكن عندما يتأثروا بالمسرحية يجدوا أنفسهم مدفوعين لأن يفكروا فى مشكلات لم تخطر لهم من قبل على بال ويحدث ذلك بغض النظر عن أية معلومات يحصلون عليها عن هذه المشكلات بعد انتهاء العرض المسرحى. وفى واقع الأمر لا تكون هذه المعلومات الإضافية ذات علاقة ...

س : ولكن هب أن المؤلف قدم خدعة ...

ص : ماذا تعنى بالخدعة ؟ لقد كتب مسرحية – أليس كذلك ؟ وكان للمسرحية بعض التأثير ، أليس كذلك ؟.كما حفزت المسرحية الناس إلى التفكير ، أليس كذلك ؟

س : إنها تدفع الناس إلى التفكير من خلال خداعهم.

ص : إنهم لم ينخدعوا لأنهم لم يفكروا فى المؤلف. وإذا اتضح لنا أن أفكار المؤلف تختلف عن أفكار شخوصه فى المسرحية فإن إعجابنا به يزداد لأنه يكون قد نجح فى تجاوز الحدود الضيقة لحياته الشخصية. بيد أنك تبدو كمن يفضل كاتبا مسرحيا خطابيا ...

س : بل أفضل كاتبا أستطيع أن أثق فيه ...

ص : لأنك لاتريد أن تفكر! فأنت تريد من المؤلف أن يتحمل مسئولية أفكاره حتى تستطيع أن تقبلها دون معاناة ومشقة تمحيصها بالتفصيل. ولكن دعنى أؤكد لك أن أمانة المؤلف لن تساعدك فى ذلك. فلدينا العديد من الأغبياء والمجرمين الأمناء الصادقين.

س : هل أنت ضد الأمانة ؟

ص : لا أستطيع الإجابة عن مثل هذا السؤال.

س : ولكن يستطيع الكثيرون الإجابة عنه.

ص : لأنهم ، مرة أخرى ، لا يفكرون. وهناك طرق عديدة يمكن من خلالها وصف المواقف التي نهتم بها والتى من المفترض أن نكون فيها "أمناء". فإذا أردت أن أكون أمينا فقد أقول "أعشق مورين" وأنا أقول ذلك لأننى أريد أن أكون أمينا فى وصف مشاعرى. ولكن بعد أن أتفوه بهذا القول ينتابنى شعور بالارتياب – فعبارة "أعشق" تتضمن من المعانى أكثر مما أريد. ومن هنا فمن الأفضل أن أقول بدلا من ذلك : "أحب مورين". وحتى هذه الجملة ليست مثالية. إذ أن هناك شيئا مفقودا فيها – وهكذا دواليك. وأنا لا أصادف هذه المتاعب عندما أخبرك ببساطة بقصة علاقتى بمورين – فأنا أعشقها بالطبع – ماذا بعد ذلك ؟ إن طلبك أن أكون أمينا يلقى بظلال غريبة على روايتى ويحولها إلى رواية غامضة...

س : أنت لا تكتفى الآن بالقول بأنك لا تعرف معنى الأمانة ، وإنما تضيف بأنك لا تعرف معنى الحب.

ص : ولكنى لا أعرف بالفعل.

س : ألا تعتقد أن في أقوالك بعض الغرابة ؟ فالناس يعرفون جيدا إذا ما كانوا يحبون زوجاتهم ، وآباءهم ...

ص : الناس على استعداد لقول كلمة أحبك لأول شخص يصادفهم – نعم أنا أعترف بذلك ولكن هل يعرفون معنى قولهم ؟ إن الطفل الصغير يقول لأمه "أحبك". والشخص الذى يكون طرفا فى علاقة سادية ـــ ماذوخية sado- masochistic relationship يقول للطرف الآخر أحبك بينما تلسعه

سياط رفيقه فى هذه العلاقة الشاذة. ارجع إلى رواية ليليانا كـافنيس Liliana Cavanis "حمال الليل"Night Porter. فالكلمات تنساب فـي الروايـة دون تكلف – ولكن هل تعبر الكلمات عن نفس الأشياء ؟

س : حسنا ، إذا مضيت فى انتهاج هذا اللون من التفكير فسرعان ما ستنتهى إلى القول بأننا لا نعرف مطلقا ما نفعل وأن حياتنا برمتها ليسـت إلا وهمـا وسرابا ...

ص : وماذا لو كان الأمر كذلك ؟ إن أى قيمة تبدو لأقوالنا هى محصلة لعدم التفكير بطريقة صحيحة ، والمسرح هو الوسيلة المناسبة للتواصل لأنه يتعامل مع هذا النمط من اللاتفكير ويجعله واضحاً. ولكن دعنا نعود إلى موضـوع الأمانة – هب أننى أعرف ما هى الأمانة ولنفترض أن هذا التعريف يتضمن ألا أكذب. ستتعارض رغبتى فى أن أكون أمينا وفقا لهذا التعريف بشدة مـع رغبتى فى أن أكون كيسا لطيفا...

س : لكانط إجابة على هذا الاعتراض. فهو يرى أن عدم الأمانة مع شخص معين يمتد أثره إلى الإنسانية بأسرها لأن فكرة الإنسانية ذاتها تقوم على الثقة. كما أن الكذب مهما بدا صغيراً يتعدى على هذه الثقة ويسئ للإنسانية.

ص : هذا هو أحد الأسباب التى تجعلنى أحتقر الفلاسفة ...

س : ولكن أنت نفسك فيلسوف !

ص : كلا ما أنا بفيلسوف ! أنا أستاذ للفلسفة ، أى أننى موظف مدنى. لنعـد إلى كانط! فهو يرسم صورة لوحش ديكتاتورى يطلق عليه اسـم الإنسـانية ، ويستخدم هذا الوصف ليبرر استعمال القوه دون الشعور بالندم ، كـلا ، بـل على العكس ، فهو يملؤه إحساس رائع بأنه قام بعمل "الشىء الصحيـح". إن الفلاسفة ماهرون فى العثور على أسباب مدهشة تـبرر ارتكـاب الأعمـال الوحشية ...

س : كفى أرجوك – فأنا أستطيع الحياة دون الحاجة لأحاديثك !

ص : كلا ، إصغ إلى. لنفترض أن أمامى سيدة تحتضر. وأن سـعادة هـذه السيدة تتمحور حول ابنها الوحيد. وأن السيدة تعانى آلاما مبرحـة. وتعـرف

أنها ستموت. ثم تسألنى كيف حال ابنها آرثر؟ وآرثر الآن فى السجن. هل أخبرها بذلك وأجعلها ترحل عن الدنيا فى يأس ، أم أخبرها أن "آرثر بخير" ؟ كانط يرى أن يأس مثل هذه السيدة لا قيمة له عند مقارنته بخير الإنسانية. أما أنا فأرى أن هذا الخير المزعوم ما هو إلا وحش كريه من صنع كانط. فقسوتى على مثل هذه السيدة لن تطعم جائعا فى إثيوبيا أو تخفف من آلامه. تلك هى الأمور الهامة وليس خطب دكتور مابيوز Dr. Maabuse الحماسية.

س : إذا كانت هذه هى وجهة نظرك ، فهل يعنى ذلك أنك ضد اعتبار فكرة الأمانة جزءا هاماً من سلوكنا ، ومن ثم من برامجنا التعليمية ؟

ص : إجابتى واضحة على هذا السؤال. ينبغى أن يكون الإخلاص والأمانة جزءاً هاماً من تعليمنا بشرط أن نعرف أن هناك حدوداً للأمر وأن يتم تزويدنا بتعليمات عن كيفية التصرف عند مثل هذه الحدود.

س : هل تقول نفس الشىء فيما يختص بالصدق والكياسة؟

ص : أقول نفس الشىء عن كل الأفكار التى تعبر عنها الكلمات الضخمة الطنانة من قبيل *الصدق، الأمانة، العدالة،* وكل الكلمات التى تلح على عقولنا وتخاطب أفضل غرائزنا.

س : التعليم فى رأيك ، إذن ، طريقة لحماية الناس من أن يتعلموا.

ص : تماما. هل تعرف بيلا لوجوسى Bela Lugosi

س : نعم بالطبع.

ص : هو الممثل الذى قام بدور دراكيولا (مصاص الدماء).

س : لقد أدى دوره ببراعة كبيرة.

ص : تقول الشائعات انه كان ينام فى تابوت.

س: ألا تعتقد أننا شططنا بعيدا بعض الشىء؟

ص : لماذا؟

س: إن فى الحياة ما هو أكثر أهمية من تمثيل شخصية دراكيولا.

ص : أوافقك تماما ! غير أن الحياة تتضمن ما هو أهم وأكثر من أن تتضمنه أى عقيدة ، أو فلسفة ، أو وجهة نظر أو نمط من أنماط الحياة ومن ثم فلا

ينبغى أبداً أن تتدرب على النوم ليلا ونهارا فى تابوت من الأفكار كما أن على المؤلف الذى يخاطب القراء ألا يكون أبدا ضيق الأفق ويعتقد بعدم وجود وجهة نظر أخرى يمكن قولها.

س : تقول أن الحياة تتضمن ما هو أكثر من الإخلاص ، والأمانة ...

ص : يا اله السماوات ، متى تتوقف عن ترديد هذه الكلمات السخيفة التى لا يوجد لها أى معنى معرفى على الإطلاق والتى تستخدم فقط كما يستخدم صفير الكلاب: إن هؤلاء الكتاب الذين تتحدث عنهم يضعون أتباعهم المخلصين في حاله تحفز عدواني ويستثنون عقولهم من ذلك التحفز بالطبع. أذكر لى فضيلة واحدة وستجد أن هناك فضيلة مقابله تتعارض معها فى بعض الأحيان. فالإحسان قد يتعارض مع العدالة والثقة ، والحب قد يتعارض مع العدالة والثقة أيضا ، وتتعارض الأمانة مع الرغبة فى الدفاع عن النفس الخ. كما أننا لا نعرف أبدا كافة الفضائل التى قد تضفى معنى على حياتنا ، لقد بدأنا بالكاد التفكير فى هذا الأمر ومن هنا فإن أى مبدأ دائم نرغب فى الدفاع عنه الآن من المحتمل أن يتم تفنيده غدا اللهم إلا إذا تم عمل غسيل مخ لنا لدرجة لا نغدو معها آدميين ونتحول إلى آلات ــ صادقة وحاسبات آلية ـــ أمينة. نعم إن فى الحياة ما هو أكثر وأهم من الصدق والأمانة. وينبغى أن يتمكن الناس من إدراك هذا الثراء ، كما ينبغى أن يتعلموا كيف يتعاملون معه، ويتضمن هذا القول أن يتلقوا تعليما لا يقتصر على مجرد مجموعة قليلة من المواعظ العقيمة ، وبتعبير سلبى يجب حمايتهم من أولئك الذين يرغبون فى تحويلهم إلى نسخ طبق الأصل من عقلياتهم الفاسدة.

س : أنت حقا ضد التعليم.

ص : على العكس ! فأنا أعتبر التعليم – أقصد النوع الصحيح من التعليم – عاملا مساعدا وضروريا للحياة. وأعتقد أن أولئك البائسين الذين وفدوا إلى الدنيا لمجرد أن رجلا وامرأة أصابهما الملل وشعرا بالوحدة ، وحداهما الأمل بأن ولادة طفل مدلل قد يصلح ما أفسده الدهر بينهما ، أو لأن ماما غفلت عن أن تتعاطى وسيلة منع الحمل ، أو لأن ماما وبابا كاثوليكيان لا يجرؤان على

الاستمتاع باللذة الجنسية دون إنجاب – أعتقد أن هذه المخلوقات البائسة في حاجة إلى حماية. لقد جاء هؤلاء الناس إلى الحياة دون أن يطلبوا ذلك – وعلى الرغم من هذا الأمر فإننا ندفعهم دفعا من أول يوم يروا فيه النور ، فنحن نمنعهم من أن يفعلوا هذا ، ونأمرهم أن يفعلوا ذاك ، ونمارس عليهم ضغوطا كبيرة بما في ذلك الضغوط الإنسانية التي تنجم عن حاجتهم للحب والعطف. وهكذا ينشأون ويصبحوا بعد ذلك مسئولين ، وهنا تتطور الضغوط.

فبدلا من العقاب البدني تأتي الحجة ، ويستبدل التهديد الأبوي بالضغوط التي يمارسها قزم يعده أقرانه الأقزام "رجلا عظيما". وهنا يصبح عليه بدلا من أن يتناول طعامه أن يبحث عن الحقيقة. لماذا نفرض على أطفال الغد أن يحاكوا قادة اليوم المعتوهين؟ لماذا لا نترك الذين فرضنا عليهم الوجود في هذه الدنيا أن يعيشوا حياتهم وفقا لرؤيتهم؟ أليس لهم الحق في أن يعيشوا حياتهم؟ أليس لهم الحق في أن يسعدوا أنفسهم حتى إذا أدى ذلك إلى إزعاج معلميهم ، وآباءهم، وأمهاتم وقوات الشرطة في بلدهم؟ لماذا لا يقرروا ما يتعارض مع العقل والحقيقة ...

س : لابد أنك تحلم ...

ص : أعتقد أن الحلم حق لي. بل حق لكل شخص وهو حق لا ينبغي أن يسلبه منا نوع من التعليم يشوه وجودنا بدلا من أن يساعدنا على تطويره على الوجه الأكمل.

س : " تطوير وجودنا على الوجه الأكمل " – إنك أكبر مغرور قابلته في حياتي.

ص : أنا لم أذكر أنني أريد هذه الأشياء لنفسي. فأنا أكبر سنا من أن أجني ثمار الحرية التي أعتقد في وجوب منحها للجميع كما أن حياتي لوثتها الفوضى وعدم النظام. غير إنني أقول أن كل شخص جاء إلى هذه الحياة دون أن يسأل له الحق في أن يسخر من أي شخص يحاول أن يدله على الواجبات والالتزامات وغير ذلك مما تعرف من أمور. فأنا لم أستشر قبل المجيء إلى الحياة. وأنا لم ألح على والدتي أن تقفز إلى السرير مع والدي حتى أجيء إلى

الحياة. كما لم أسألهم أن يتولوا شئونى ولم أطلب من المعلم أن يعلمنى ومن ثم فأنا لا أدين بشىء لأحد. كما لا أدين أيضا بشىء "لقادة الإنسانية" ، ولا يتوقع أحد منى أن آخذ مأخذ الجد الأمور السخيفة التى اخترعوها لتسلية أنفسهم...

س : إن المسيح لم يلقى الموعظة ليسلى نفسه ...

ص : بل فعل ذلك بمعنى من المعانى – فهو بالتأكيد لم يفعل ما يتعارض مع رغباته. لقد تخيل شكلا معينا من أشكال الحياة ، وأراد أن ينشره بين الناس ، بل حاول بعد تردد قصير أن يجبر الناس أن يصغوا إليه. لقد نفخ الحياة فى عملية تاريخية تعذب خلالها ملايين الناس ، كما تم بسببه حرق ملايين الأطفال لأن بعض أعضاء محاكم التفتيش شعروا بمسئوليتهم عن أرواحهم...

س : لا يمكنك لوم المسيح لما فعلت محاكم التفتيش !

ص : بل أستطيع ذلك ! إذ يتعين على المعلم الذى يريد تقديم فكرة جديدة ، أو صورة جديدة من صور الحياة ، أن يعى أمرين: أولا أن يعى أن الأفكار يساء استخدامها ما لم تحتوى فى بنيتها على لون من ألوان الحماية الذاتية. لقد تمتعت أفكار فولتير Voltaire بهذا اللون من الحماية ، بينما لم تتمتع بها أفكار نيتشه Neitzsche. ومن هنا استغل النازيون أفكار نيتشه ولم يستغلوا أفكار فولتير. ثانيا عليه أن يدرك أن "الرسالة" التى تنجح فى ظروف معينة قد تكون مدمرة فى ظروف أخرى مختلفة ...

س : ماذا عن الرسالة التى تقول بأننا يجب أن نبحث عن الحقيقة ؟

ص : هذه الرسالة تجعلنا ننسى أن الحياة التى بلا الغاز أو غموض حياة جرداء قاحلة وإننا يجب أن نحب بعض الأشياء ، كالأصدقاء مثلا، لا أن نفهمها فهما تاما.

س : ولكن ستبقى دائما أشياء لا نعرفها ...

ص : أنا أفكر فى الأشياء التى يجب أن ننحيها جانبا حتى إذا كان البحث عن الحقيقة يبشر ببعض النتائج ...

س : هذا عين التخلف ...

ص : نعم ، أنا أقف فى صف الرجعية والتخلف أكثر من أى شخص يجـــرؤ اليوم على أن يكون كذلك.

س : وماذا تجنى من وراء ذلك ؟

ص : هل حدث أن عشت قصة حب من قبل ؟

س : أعتقد ذلك ...

ص : تعتقد ذلك.

س : حسنا ، أعتقد أن هذا حدث.

ص : هل أحببت ذلك ؟

س : أحببت ماذا ؟

ص : أحببت أن تكون فى حالة حب ؟

س : نعم أحببت ذلك.

ص : هل حاولت أن تعرف السبب ؟

س : نعم بالطبع حاولت !

ص : وكيف مضى بك الأمر ؟

س : بدأت بطرح الأسئلة.

ص : سألت من ؟

س : سألت بعض معارفى. وسألت أيضا السيدة المعنية فى العلاقة معى.

ص : وماذا كان رد فعلها ؟

س : كانت فى غاية الصبر.

ص : ولكن هل نفذ صبرها بعد ذلك وأصابها البرود ؟

س : نعم هذا ما حدث. وقالت لى أن علاقتها بالغرباء ليست من اختصاصى.

ص : إذن فقد تعارض بحثك عن الحقيقة مع رغبتها فى الخصوصية.

س : من الواضح أن ذلك قد حدث.

ص : وهل ازداد حبك لها أم فتر بعد إجراء هذا البحث ؟

س : حسنا ...

ص : انتهت العلاقة تماما.

س : نعم.

ص : لقد قتل فضولك تلك العلاقة.

س : ولكن ...

ص : ولكن هناك منطقة محرمة عند كل إنسان يجب احترامها ، ولا ينبغي لك أن تحاول اقتحامها إلا بعد أن يتم السماح لك ...

س : أعترف بكل ذلك – غير أن الأمر مجرد حالة خاصة.

ص : كلا الأمر ليس حالة خاصة – أنظر إلى هذا الكتاب.

س : **خنازير غينيا الإنسانية** – ما هو موضوع الكتاب ؟

ص : يتعلق الكتاب بالأطباء الباحثين عن الحقيقة.

س : إن مهمة الأطباء هى العثور على وسائل فعالة لعلاج المرضى.

ص : وهل يكون ذلك على نفقة المرضى ؟

س : هل لديك طريقة أخرى لتطوير العلاج ؟

ص : يقوم علم الفيزياء على التجربة أليس كذلك ؟

س : نعم.

ص : وأفضل النتائج هى تلك التى نحصل عليها فى المعمل.

س : نعم.

ص : ولكن النجوم أكبر وأبعد من أن تجرى عليها تجارب معملية.

س : أوافقك على ذلك.

ص : على المرء ، إذن ، أن يبحث عن مناهج مختلفة للحصول على المعرفة الخاصة بتلك النجوم. وعلى الرغم من عدم استخدام علم الفلك لتجارب المعامل إلا أنه أزدهر وتطور قبل الفيزياء بفترة طويلة.

س : ولكن المرضى موجودون ، وبأعداد غفيرة.

ص : لكن أجساد المرضى ملك لهم وليس للطبيب أى حق فى العبث بها لمجرد إرضاء رغبته وفضوله.

س : كيف يتسنى له إذن معالجة المرض ؟

ص : باختراع نوع من العلاج لا يعتمد على التدخل فى الجسم البشرى.
س : ولكن من المستحيل وجود مثل هذا العلاج.
ص : ليس مستحيلا ، بل هو موجود بالفعل. لقد تجمعت للمدارس المعروفة باسم المدارس الامبريقية فى الطب معلومات مفصلة عن التغيرات التى تطرأ على المرضى والتى يمكن ملاحظتها دون تدخل من الأطباء – كالتغيرات التى تحدث فى لون العين ، ولون الجلد ونسيجه ، وتوتر العضلات ، وانتظام البراز والبول واللعاب ، وتركيب الأغشية المخاطية ، والأفعال المنعكسة.
س : من الصعب إمكان قيام تشخيص وعلاج وفقا لهذه الأسس.
ص : ينم هذا القول عن معرفتك المحدودة بالطب وبفن التداوى. فتشخيص النبض له فعالية كبيرة فى الكشف عن أقل الاضطرابات عند الإنسان والتى قد لا تظهر فى أى اختبار "علمى" ، فالأطباء يشخصون الأمراض العادية دون اللجوء إلى المعدات المكلفة التى يعتمد عليها الطب الحديث ، ومن ثم فلا ضرورة لأشعة إكس ولا لكافة الإجراءات الأخرى الخطيرة.
س : ربما كان من الممكن العثور على بعض العلاقات – وإن كان من الصعب القول أنها تؤدى إلى فهم المرض.
ص : ولكن ليس مطلوبا من الطبيب الفهم. فالطبيب عليه أن يعالج ...
س : ولكن عليه أن يتقدم وفقا للطرق العلمية.
ص : وما الذى يرغمه على ذلك ؟ إذ يستطيع المرء فى واقع الأمر أن يبين أن القضية القائلة "التقدم بالطريقة العلمية" ، مع التوسع فى المحتوى وكل موسيقى الجاز كثيرا ما تتعارض مع عملية الشفاء.
س : ماذا تعنى بهذا الكلام الملغز الذى لا معنى له ؟
ص : ليس ثمة الغاز على الإطلاق ! أنت تعترف أن الفلاسفة كثيرا ما يقدموا أفكارا يعدها الناس العاديون لغوا لا معنى له.
س : أعترف بذلك.

ص : ومن ناحية أخرى هناك أشخاص يبدو لنا سلوكهم ضربا من الجنـــون على الرغم من احتمال أن يكون لسلوكهم الغريب وظائف هامة فى مجتمعات أخرى تختلف عن مجتمعاتنا؟

س : ماذا تريد أن تقول؟

ص : أقصد الأنبياء ، والكهنة. فإذا حدث ، مثلا ، وجاء نبى حقيقى من أنبياء اليهود إلى أهل نيويورك فسيعتبرونه مجرد معتوه حتى إذا خاطبهم بلكنة أهل بروكلين المحببة.

س : وسيكون لهم الحق فى ذلك ، فالزمان قد تغير منذ أيام نبوخذ نصـــر[1] Nebuchadnezzer ، أو هيرود Herod .

ص : رويدك قليلا ! هل تعلم أن الكثير من الناس يكونون عونا لأهلهم ، كما يكونون موضع حبهم وإلهامهم ، على الرغم من أن بقية أهل القرية أو المدينة لا يرضون عنهم ؟

س : لا أعرف أحدا بهذا الوصف وإن كنت أستطيع تخيل مثل هذا الموقف.

ص : إن المجتمع ينظر الآن إلى كبار السن باعتبارهم مشكلة طبية ومن هنا يتم عزلهم بعيدا فى بيوت المسنين ، أو مستشفيات كبار السن...

س : ... لأنهم فى حاجة إلى رعاية ، ولا يستطيعون رعاية أنفسهم.

ص : كلا ، بل لعدم وجود ما يفعلونه. واليوم يعامل المسنون فى الولايـــات المتحدة الأمريكية كنفايات بشرية ، وسرعان ما يتصرف المسنون على هذا الأساس. بيد أن هناك مجتمعات أخرى تزداد فيها المسئولية مع تقدم الســن ، حيث يصغى الناس باهتمام إلى حديث المسنين الذى نعتبره لونا مــن ألــوان خرف الشيخوخة بانتباه شديد ، وحيث يتعلم النشأ من خبرة الأجداد ...

س : ... لدينا مؤرخين يقومون بمهمة تعليم النشأ.

---

[1] نبوخذنصر(٦٠٣-٥٦٢ق.م) كان حاكما لبابل فى العراق.استولى على القدس عام ٥٩٧ ق.م. المترجم.

ص : وماذا يفعل هؤلاء المؤرخين ؟ إنهم يحصلون على المنح لتلفيق التاريخ الشفهى ، ذلك التاريخ الذى يعنى الأحداث التى يرويها الأحياء عن أحداث ولت منذ أمد بعيد. لقد كان من الأفضل الاستماع إلى تقارير هؤلاء الأحياء بصورة مباشرة دون التدخل من مفكرين يقفون بين المصدر الأصلى وبين من يريد أن يتعلم منه. هل تدرى أن توجه وموقف الناس من الأطفال تغير بصورة ملحوظة خلال القرنين الماضيين؟ فقد أصبحنا اليوم أكثر عاطفة نحوهم – غير أن موت الأطفال لم يكن يعنى ولفترة قريبة أكثر من موت أحد الحيوانات الأليفة، حتى أن روسو Rouseau وهو إنسان عاطفى جدا ، كتب دون تأثر كبير كيف أرسل أبناءه الخمسة إلى ملجأ الأيتام. ولا أشك فى أنك قرأت كتاب فوكو Foucault حول تغير اتجاه الناس نحو موضوعات الصحة الذهنية ، والسجن ، والجريمة. فمنذ عهد قريب كان يتم تصنيف المرضى العقليين مع الفقراء ، أو مع الكسالى الذين يمقتون العمل ، كما كان الاضطراب العقلى يفسر كنتيجة للصدام مع الشيطان؛ واليوم حل الطب محل تلك التفسيرات ...

س : لقد سمعت عن كل هذه الأشياء ، وإن كان ذلك من خلال الشائعات الغامضة ، ولكن ما علاقة كل هذا بوعدك ...

ص : ... أردت أن أبين أن "الطب العلمى" قد يتعارض مع الرغبة فى التداوى ؟ وهذا القول يكافئ القول بأن فكرة الطفولة ، أو الموت ، أو الجنون، أو الجريمة ، أو السجن ، أو النظرة إلى كبار السن تختلف باختلاف المجتمعات ، بل وتختلف باختلاف أجزاء المجتمع الواحد ، تماما كما تتغير من جيل إلى جيل ، بنفس الطريقة التى تتغير بها فكرة الصحة.

س : نعم ، أنا افهم ما تقول. وأضيف إلى ذلك أننا نتطلع اليوم إلى العلم ليقدم لنا تعريفا مناسبا لمفهوم الصحة.

ص : إن الطبيب يبدو مثل دكتور فرانكنشتين عندما يقابل إنسانا سليما معافى، فيعقب قائلا إنه ليس على ما يرام ، ويحاول أن يعيد تركيبه ليلائم فكرته الشخصية عن الإنسان الصحيح المعافى.

س : غير أن المريض لا يكاد يعرف متى يكون مريضا ومتى لا يكون ، ربما باستثناء بعض الحالات الشاذة.

ص : ربما لا يعرف المريض في عرف بعض الأطباء متى يكون مريضا ، ولكنه يعرف بالتأكيد نوع الحياة التى يفضلها والحياة التى يكرهها.

س : أنت متفائل.

ص : افترض أننى كذلك - هل يعنى هذا أن نترك شخصا آخر يقرر للمريض حياته ؟

س : حسنا ، من الواضح أن المريض إذا لم يدرك أنه مريض فيجب على شخص آخر أن يتخذ له القرار.

ص : ليس هذا هو الاحتمال الوحيد.

س : ماذا تقصد ؟

ص : التعليم.

س : ولكن التعليم يقود إلى نفس الشيء - فنحن ندرب شخصا معينا ليتخذ القرار الذى يتخذه الخبير في الظروف التى ذكرناها.

ص : إذن التعليم فى رأيك يعنى تحويل الناس إلى خبراء.

س : نعم. أو على الأقل تزويدهم بفهم لمعرفة تشبه معرفة الخبراء.

ص : وهل تشبه هذه المعرفة تلك الخاصة بالتنجيم ؟ أو الوخز بالإبر الصينية؟

س : كلا بالطبع.

ص : ولم لا ؟

س : هل لابد أن أشرح لك مثل هذه الأمور التافهة ؟

ص : أتمنى ذلك.

س : إن الناس لا يعيرون التنجيم اهتماما.

ص : معذرة إذا عارضتك فى هذا القول - فهناك العديد من الناس الذين يهتمون بالتنجيم.

س : إن من يتمتع بأدنى قدر من المعرفة بالعلم لا يهتم بالتنجيم.

ص : كلا بالطبع – فالعلم اليوم هو ديننا المفضل.

س : هل تريد حقا أن تدافع عن التنجيم؟

ص : وما المانع إذا كان الهجوم عليه غير صحيح ؟

س : أليس لديك ما هو أهم من ذلك ؟

ص : ليس ثمة ما هو أهم من حماية الناس من ترويع الطغاة الجهلة لهم. والتنجيم خير مثال للطريقة التى ينضم بها بعض العلماء الجهلة ، إلى من هم أجهل منهم كفلاسفة العلم – لينجحوا فى خداع الجميع.

س : لا أكاد أصدق ما أسمع. فها أنت تتحدث أمامى كما لو لم يكن التنجيم هراءاً تاما. لا أدرى لماذا نضيع وقتنا سدى فى مناقشة مثل هذا الموضوع.

ص : سأتفق معك حالما تقنعنى أن كلامى مضيعة للوقت.

س (متنهدا) : حسنا سوف أتفق معك إذا كنت تقصد بالأمر بعض التسلية. يفترض التنجيم وجود كون مركزى متناسق تكون الأرض فى مركزه. وقد تخلى الناس عن هذه الفكرة منذ عهد كوبرنيقس. ولكن المنجمين لم يأبهوا للأمر ؛ فهم مجموعة من الأميين علميا الذين يرغبون فى تخليد خرافاتهم الغبية دون أى اعتبار لتقدم العلم ، وهم يسلبون الناس أموالهم ، كما يستبدلون القرارات المسئولة بالتكهنات الوهمية ومن ثم يسلبون الإنسان إرادته الحرة ، وهى أهم وأعز ما يملك !

ص : يا الهى – إنكم يا معشر العقلانيين تنقلبون إلى شعراء حقيقيين عند مهاجمة الآلهة المزيفة !

س : شعر أم لا – فأنا على صواب ، هل لنا أن نعود إلى موضوع الطب ؟

ص : ليس بعد.

س (يائسا) : استطراد جديد !

ص : ليس استطرادا ، وإنما مجرد ملاحظة بسيطة. هل تعرف أن الاعتراض الناجم عن الإرادة الحرة ...

س : ... اعتراض فى غاية الأهمية !

ص : وأيضا الاعتراض المستمد من مصير التوائم ...

س : ... اعتراض آخر رائع !

ص : ... لقد قال بهما آباء الكنيسة ، كالقديس أوغسطين على سبيل المثال ؟

س : لم أكن أعرف – ولكن ما أهمية ذلك ؟

ص : هذا الأمر يعنى أن الحرب ضد المنجمين لم يبدأها العلماء وإنما بدأتها الكنيسة ، لأسباب دينية. كما أعتقد أن العنف الذى يواكب هذه المعركة أثر من آثار العصور الوسطى ، بغض النظر عن "العلمية" التى يتظاهر بها معارضو التنجيم اليوم.

س : هذه أقوال مثيرة للاهتمام ...

ص : ... وترجع أهميتها إلى أنها تبين أن العلماء يستخدمون بعضا من نفس التوجهات الهامة للكنيسة ، على الرغم من تأكيدهم على عكس ذلك.

س : لا أستطيع التعليق على هذا القول. فهو أمر هام ، غير أن لا علاقة له بموضوعنا فنحن نهتم بالحجج والبراهين ، لا التأثير.

ص : هل سمعت عن كبلر ؟

س (يشعر بالإهانة) : بالطبع سمعت عنه.

ص : هل تعرف أن كبلر كتب أبراجا لمعرفة الطالع.

س : كان عليه أن يكسب قوت يومه !

ص : وهل تعرف أنه كتب أيضا مقالا يدافع فيه عن التنجيم؟

س : لم يكن جادا فى ذلك إلى حد بعيد.

ص : لماذا ؟

س : لأنه كان فى طليعة علماء الفلك الكوبرنيقيين.

ص : نعم ، وهو لم يكتف بالدفاع عن التنجيم وممارسته فقط ، بل راجعه ونقحه وجمع الشواهد لروايته المنقحة.

س (تبدو عليه علامات عدم السعادة).

ص : ليس مطلوبا منك أن تصدقنى. هاك كتاب كبلر ، أقرأه ، فهو يتضمن مقالات صدرت ضمن مجموعة أعماله Collected Works حيث يقرأ فيها نوربرت هيرتز Norbert Herz مقالا قديما عن التنجيم عند كبلر ...

س : حسنا ، أستطيع أن أفهم هذا الموضوع بمعنى ما - فالفيزياء السائدة وقتئذ لم تكن بأية حال فيزياء متقدمة.

ص : ولكن ماذا كانت حجتك فى البداية ! لقد ذكرت أن التنجيم تحول إلى هراء بلا معنى بفضل جهود علم الفلك الحديث. والآن ، نحن أمام أحد علماء الفلك الحديث (كبلر) ، بل هو يعد فى واقع الأمر واحدا من أفضل علماء الفلك على الإطلاق. وهو لا يكتفى بالدفاع عن التنجيم ، وإنما يقوم بجمع الأدلة ، وبتطوير وتحسين موضوع علم الفلك...

س : ربما كنت متسرعا بعض الشىء ، ولكن الخطأ أحد الصفات الإنسانية...

ص : لم يكن هذا موقفك فى بداية الحوار ! فأنت لعنت المنجمين كما لو كانوا مجرمين ، وكما لو أن محاكمتهم قد اكتملت ، وانتهيت بأكبر دليل على إدانتهم. والآن تقر بأن الخطأ أحد صفات الإنسان- يا لتسامحكم أيها الناس مع أخطائكم !

س : حسنا ، حسنا - أعترف بتسرعى فى الحكم ، ولكن التنجيم على الرغم من ذلك ، يتسم بجوانب ضعف عديدة بحيث أن تفنيد أحد الحجج التى تهاجمه لن يرفع من قدره أو يسمو بمكانته حتى لو كان كبلر قرر بالفعل ذات يوم الدفاع عنه. فقد كان الزمان مختلفا ، ولم يكن العلم منفصلا بوضوح عن الخرافة كما هو الأمر الآن كما أن أفضل العلماء آنذاك قالوا بنظريات فى غاية السخافة. لقد دافع كبلر عن التنجيم ، أعترف بذلك. بيد أن هذا لا يرفع من قدر التنجيم. فمازال التنجيم خرافة لا قيمة لها.

ص : قل لى لماذا بربك ؟

س : لأنك تفترض أن النجوم تؤثر فى حياتنا ...

ص : هل الشمس ما تزال تضئ ؟

س : وماذا فى ذلك ؟

ص : أليس حقا أنك ترتدى الآن قميصا خفيفا وليس بلوفرا ثقيلا ؟ وأليس حقا أن حالتك المزاجية فى الجو الصحو أفضل منها فى الجو الغائم الممطر ؟

س : أنت تـنحو الآن منحى لا معنى له. إذ لا يوجد من ينكـر أن الشـمس تؤثر في حالة الطقس.

ص : وماذا عن القمـر ؟

س : بالقطع لا.

ص : وماذا عن المد والجزر.

س : هذا موضوع مختلف.

ص : ولكن جاليليو ، الذى كان له موقف مشابه لموقفـك ، أنكـر أن للمـد والجزر علاقة بالقمر - وأن التنجيم لا معنى له ، ومن ثم فلابد أن يكون للمد والجذر سبب مختلف. لقد كان على خطأ فى ذلك.

س : السبب فى ذلك أن نظرية أخرى أكثر تعزيزا جاءت لتبين عدم صوابه.

ص : ولكن هذا يتضمن أننا لا نستطيع أن نكتفى بالقول بأن القمر لا تأثير له على الطقس - ويجب أن نختبر الأمر.

س : أوافقك على ذلك.

ص : وينطبق نفس الشيء على موضوع الأبراج.

س : ليس بالضرورة. فكلنا يعرف أن قوة النجوم أضعف من أن يكون لهـا مثل هذا التأثير.

ص : هل تعرف ماهى البلازما plasma ؟

س : سحابة من الإلكترونات.

ص : هل تعرف أن الشمس محاطة بسحابة ضخمة من البلازما ؟

س : نعم ، سمعت عن ذلك.

ص : وأن نفس الأمر يصدق على الكواكب ؟

س : لا أعرف ذلك ، وإن كان الأمر يبدو ممكناً.

ص : وأن السحب تتداخل وتتفاعل ...

س : آه ، تقصد العواصف المغناطيسية وما شابهها؟

ص : نعم ، فالأنشطة الشمسية تؤثر فى استقبال الموجات القصيرة. وتتوقـف الأنشطة الشمسية بدورها على الوضع النسبى للبلازما الكوكبية ممـا يعنـى

اعتمادها على الوضع النسبى للكواكب. وهكذا فمن الممكن التنبؤ ببعض مشكلات إرسال الموجات القصيرة من وضع الكواكب حيث يوجد تنجيم لاسلكى radioastrology أسسه الباحثون فى مؤسسة RCA.

س : ليس لهذا الأمر أى علاقة بالتنجيم ، فالتنجيم يعالج تفصيلات تتعلق بحياة الأفراد.

ص : ولا يقتصر الأمر على ذلك ، فالتنجيم يتعامل أيضا مع الحيوانات ، والسحب ، والعواصف ، والكواكب ، والعلاقة بين السماء والأرض. ولكن هذه لم تكن حجتك – أعنى حجتك الثانية ، فحجتك الثانية كانت تقول إن الكواكب أضعف من أن يكون لها تأثير ملحوظ على الأرض. وقد تم تفنيد هذه الحجة بواسطة التنجيم اللاسلكى.

س : لا أعتقد أن هذه الإجابة واضحة بما فيه الكفاية. فالكواكب تؤثر بالطبع فى الشمس ، كما أنها تؤثر فى بعضها البعض ومن ثم تؤثر فى بعض العمليات الأرضية. بل هى تؤثر حتى فى الناس – فالمرء يستطيع أن يراها ، ويتحدث عنها ، ويكتب عنها القصائد. غير أن كل هذا يختلف عن التأثيرات التى أتحدث الآن عنها. فأنا أتحدث عن تأثيرات تحدث دون معرفتنا المباشرة وتتحكم فى أفعالنا بطريقة لا يمكن إدراكها. لنفترض مثلا أننى أرغب فى الزواج. فأنا أسأل نفسى هل ولماذا وما الغرض من الزواج. ثم أتزوج فى نهاية الأمر معتقدا أن لدى أسبابا واضحة لذلك. وهنا قد يعترض المنجم على ذلك قائلا أننى أغفلت سببا هاما ، ألا وهو البرج الخاص بتاريخ ميلادى ، أو بميلاد زوجتى ، والبرج الخاص بيوم زواجنا وبأول لقاء لنا. وأنا أعتقد أن هذا التأثير خرافة سخيفة.

ص : ماذا تعتقد فى أبحاث السرطان ؟

س : ماذا تعنى ؟

ص : هناك معاهد عديدة تتعامل مع أبحاث السرطان. هل تعتقد أن الأفكار التى تكمن خلف أبحاثهم خرافات سخيفة ؟

س : كلا بالطبع !

ص : ولم لا ؟

س : لأنها أحرزت تقدما.

ص : أى نوع من أنواع التقدم تقصد ؟

س : إستبصارات نظرية جديدة.

ص : ولكن ماذا عن معالجة مرض السرطان ؟

س : هناك عمليات جراحية ، والعلاج الإشعاعى ، والعلاج الكيمائى...

ص : كيف كان يعالج السرطان منذ ثلاثين سنة مضت ؟

س : بإجراء العمليات ، فيما أظن ، وأيضا بالاستئصال الجراحى للأنسجة السرطانية.

ص : وهل تم الكشف عن مناهج جديدة للعلاج ؟

س : نعم ، كما قلت ، العلاج الإشعاعي ...

ص : والذى يعنى ببساطة استئصال الأنسجة السرطانية بطريقة أكثر فعالية. أى أننا مازلنا نعتمد على الاستئصال.

س : نعم.

ص : هل هناك منهج يختلف اختلافا جذريا عن المناهج السابقة ؟

س : على حد علمى ، لا.

ص : لقد وجدت مناهج الاستئصال قبل وجود البحث المجهرى وقبل أن تبدأ كافة النظريات الحديثة المتطورة عن تركيب الخلية.

س : نعم.

ص : وهذا يعنى أن هذه النظريات لم تحرز حتى الآن أى تقدم فى العلاج.

س : هذا ما تقوله أنت.

ص : ليس فقط ما أقوله وإنما ما يقوله أيضا العديد من الباحثين الملتزمين.

س : أذكر لى بعض الأمثلة؟

ص : اقرأ تقرير دانيل جرينبرج:

Daniel Greenberg : Science and Government Report (1974).أو:

H. Oeser : Krebsekaempfung, Hoffnung Und Realitaet.

وإن كنت أرى جرينبرج أكثر صراحة. فهو يـــرى فــى إعــلان الجمعيــة الأمريكية للسرطان Ameican Cancer Society إمكان علاج ذلك المرض وأن تقدما قد أحرز فى هذا المجال: ليس إلا بقية من ذكريات تفـاؤل ما قبل حرب فيتنام ؛ وعلى الرغم من ذلك فمازلنا نساند تلـك الأبحـاث ونعتبرهـا أبحاثا علمية.

س : بالطبع.

ص : ولم يزعم أحد أن الافتراضات النظرية لأبحـاث السـرطان خرافـات خرقاء.

س : كلا بالتأكيد.

ص : ولم لا ؟

س : لأنها أحرزت نجاحاً.

ص : أى نوع من أنواع النجاح ؟

س : نحن نفهم الآن أكثر من ذى قبل ما يدور فى أى خلية مفردة.

ص : ولكن هل نفهم كيف يبدأ السرطان ؟

س : كلا – ولكن نحن فى سبيلنا إلى ذلك. ولكن ما العلاقة الآن بين كل هذا وبين التنجيم ؟

ص : علاقة وثيقة ! لقد أخبرتك منذ هنيهة عن البحث الذى يبيـن كيـف أن وضع الكواكب قد يتساوى مع إرسال الموجات القصيرة على الأرض.

س : وسبق أن قلت لك أن هذا لا يقلل من سخافة التنجيم.

ص : ولكنك اعترفت أن ذلك يبين التأثيرات الكوكبية على الأحداث الأرضية.

س : نعم ، ولكن ...

ص : إن الكواكب ليست أضعف من أن تؤثر فى أحداث الأرض.

س : ولكنه ليس نوع التأثير الذى نتطلع إليه.

ص : بل هو نمط دقيق من التأثير اللاواعى الذى نتطلع إليه. فأنت تزعم أن أبحاث السرطان علمية ، وتفضل استمرارها على الرغم من المسافة البعيـدة

بينها وبين النجاح. فلماذا لا تطبق نفس الأمـــر علـــى افتراضـــات التنجيـــم الأساسية ؟

س : لأنه فى حالة التنجيم لا تكون هناك فقط مسافة بين نتائج البحث وبين...

ص : ... والتى تكون أكثر تعددا من تلك التى ذكرتها حتى الآن ...

س : ولأن الأمر لا يقتصر فقط على وجود هوة تفصل بين نتائج البحث وبين المقولة التى نتجادل بشأنها وإنما هناك أيضا اعتراضات...

ص : ... كالاعتراض على المثال الخاص بالنوائم .

س : نعم.

ص : والآن تقترح التخلى عن أى موضوع أو نظرية تتهددها الاعتراضات ، أو تعتبرها لا علمية.

س : نعم إذا كانت النظرية موضع اعتراضات حاسمة.

ص : أى يجب أن نتخلى عن أى موضوع يواجه اعتراضات حاسمة. ولكن مثل هذا الأمر سيؤدى إلى نهاية أبحاث السرطان !

س : لماذا ؟

ص : لأن أكثر من ثلاثين سنة مضت على أبحاث السرطان دون إحراز تقدم حاسم. كما أن قولك السابق سيعنى أيضا نهاية أبحاث المغناطيسية الكهربيـــة الكلاسيكية.

س : لماذا ؟

ص : لأن النظرية الكلاسيكية فى المغناطيسية الكهربيـــة ، وهـــى النظريـــة الجوهرية فى هذا المجال ، تتضمن عدم وجود مغناطيسية حثيـــة induced magnetism كما أن علم البصريات الكلاسيكى يتضمن أن النظر إلى صورة معينة فى مركز عدسة الابصار يؤدى بالضرورة إلى رؤية ثـقب عميق على الرغم من عدم تحقق ذلك أبداً فى الواقع الفعلى. كما أن لدينا عدم التحديد فى نظرية حقل الكوانتم ...

س : ... ولدينا أيضا موضوع إعادة تطبيع الأوضاع renormalization.

ص : ... يطلق بعض الفيزيائيين على هذه العملية أسم حيلة جروتسك "Grotesque trick" ، وتتلخص في القول بأنك أينما وليت وجهك تقابلك نظريات تحدق بها صعوبات جوهرية – وعلى الرغم من ذلك يتم استبقاءها لأن العلماء لديهم إيمان راسخ بإمكان حل هذه الصعوبات في يوم من الأيام. فلماذا تسمى هذا الإيمان الراسخ "افتراضات علمية ممكنة" عندما يتعلق الأمر بالتفاعل مع نظرية "الحقول الكوانتية" ثم تطلق عليها "خرافات حمقاء" في حالة التنجيم.؟ دعنا نعترف أن البحث يكون مدفوعا أحيانا بنوع من الحدس ، ودعنا نطبق هذا الاعتراف بالتساوى بين كل الموضوعات ولا نقصره فقط على أولئك العلماء الذين نفضلهم لأسباب دينية !

س : ولكن ...

ص : لم أنتهى من حديثى بعد ! ألا ترى أننى لم أكن لأعترض على الإطلاق إذا ما قال معارضوا التنجيم: نحن لا نحب التنجيم ، وإننا نزدريه ، أو قالوا لن نقرأ أبدا كتبا عنه وبالتأكيد لن نؤيده. مثل هذا الاعتراض يعد أمراً مشروعا لأنك لا تستطيع أن تجبر الناس أن يحبوا ما يمقتون ، ولا تستطيع أن تجبرهم – وينبغى ألا تجبرهم – أن يثقفوا أنفسهم. ولكن علماءنا ، الموضوعيين العقلانيين ، لا يعبرون فقط عن ما يحبون وما يبغضون ، وإنما يتصرفون كما لو كانوا يمتلكون حججا وبراهين ويستخدمون سلطاتهم الواسعة ليضفوا على بغضائهم قوة. غير أن الحجج التى يستخدمونها بالفعل تنم عن جهل مطبق...

س : حسنا ، حسنا ، أبدى اعتذارى لطرح الموضوع – فأنا لا أكاد أعرف عنه شيئا ...

ص : ... ولكنك بدأت كما لو كنت تعرف عنه الكثير. إن موقفك ينطبق على كل العلماء الذين يتحدثون عن أمور لا يعلمون عنها شيئا.

س : أشك فى وجود علماء على هذه الشاكلة.

ص : أبدى اعتذارى لتحريرك من الوهم الذى يخيم عليك. إذ ما عليك إلا أن تلقى نظرة على المقال الآتى من عدد أكتوبر/ نوفمبر ١٩٧٥ من الدورية

الأمريكية:The Humanist(عنوان غريب لتلك الدورية إذا ما قورن بشوفنيتها المتعصبة للغاية). يحتوى العدد على عدة مقالات تهاجم التنجيم. وقد كتبت تلك المقالة بطريقة رديئة ، كما جاءت حافلة بالأخطاء. يقول أحد مؤلفي المقال : " لقد تلقى التنجيم ضربة ساحقة باعتباره نظاماً يقول بمركزية الأرض." هل تتذكر أن هذه كانت حجتك الأولى وقد ثبت عدم صحتها كما رأينا. ويذهب كاتب آخر إلى أن التنجيم يرجع بأصوله إلى السحر. غير أننا إذا لجأنا إلى الحديث بهذه الطريقة السطحية فنستطيع أن نقول أن أصول العلم الحديث أيضا ترتد إلى السحر. ويمكنك أن توافق على أن هناك دائما علماء يتجاوزون حدود قدراتهم ومن ثم يضعون أنفسهم موضع سخرية وتندر.

ولكن أنظر الآن إلى نهاية القضية العامة التى تسبق الحجج التفصيلية فى هذا البحث. سوف تجد توقيعاً لعدد ١٨٦ عالما. ١٨٦ توقيعاً ! من الواضح أن السادة المثقفين الموقعين لم يهتموا كثيرا بالإقناع بالحجج أكثر من اهتمامهم بدفع الناس دفعا لتصديقهم. لأنهم إذا كانوا يمتلكون حجة واحدة جيدة – فما ضرورة كل هذا العدد من التوقيعات ؟ هذا المقال ليس سوى منشور علمى كنسى: لقد تحدث البابوات ؛ وقضى الأمر. تأمل الآن أسماء الموقعين ! سوف تكتشف أنهم ليسوا مجرد حفنة من العلماء المغمورين – وإنما ستجد

أمامك نجوم المقدمة فى المؤسسة العلمية يشيرون بأصابع الاتهام واللعنة إلى المنجمين. من بين هؤلاء نقرأ اسم جون إسكلز John Eccles الفارس البوبرى ، (أحد أنصار كارل بوبر المبرزين) وكونراد لورنتز Konrad Lornez أحد العلماء المعروفين فى مجال سلوك الحيوانات والحائز على جائزة نوبل (وهو رجل أكن له كثير من الإعجاب) ، وكريك Crick أحد مكتشفى الدنا DNA (وحدات تركيب الخلية) وهو حائز أيضا على جائزة نوبل وغيرهما الكثير. فهناك ساموليسون Samuelson عالم الاقتصاد وبولينج Pauling الحائز على جائزة نوبل مرتين وصاحب القضية المثيرة للجدل (والمعقولة جدا فى نفس الوقت) والخاصة بفعالية الجرعات الكبيرة من فيتامين "س" فى علاج نزلات البرد ، بل وحتى فى علاج السرطان – لقد

وضع أصحاب الأسماء المرموقة فى مجال العلم أسماءهم لتأييد وثيقة ليست سوى مستنقع من الجهل والأمية. وقد حاولت إذاعة الـ BBC بعد عدة شهور من صدور هذه الوثيقة أن ترتب حوارا بين بعض الحائزين على جائزة نوبل ممن وقعوا على الوثيقة وبين مؤيدى التنجيم ، غير أن كل الحاصلين على جائزة نوبل رفضوا إجراء الحوار وكان سبب رفض بعضهم هو القول بعدم وجود فكرة تفصيلية لديهم عن التنجيم: إن السادة المستنيرين لا يعلمون عما كانوا يتحدثون. والآن فإن هؤلاء الجهلة يقررون ما ينبغى وما لا ينبغى أن يدرسه أبناؤنا فى المدارس ؟ كما يعلن هؤلاء الجهلة فى احتقار مقيت وجوب استبعاد التقاليد القديمة التى لم يدرسوها أو يفهموها بغض النظر عن أهميتها بالنسبة لمن يرغبون فى الحياة وفقا لها ؛ مثل هؤلاء الجهلة يقحمون أنفسهم فى حياتنا ، فهم يتدخلون فى لحظة الميلاد ، منذ أن تذهب الأمهات إلى المستشفيات لوضع مواليدهن حتى يتعرفوا فورا على جمال المجتمع التكنولوجى الذى سيعيشون فيه ؛ كما تجدهم يتدخلون فى مرحلة الشباب المبكر ليحددوا بدقة مواهب النشأ ويضعوا المناهج بحرص كى يقحموا أكبر قدر مستطاع من الدين العلمى scientific religion فى عقول الصغار ، وهكذا حتى يستولى علم الموتى Martuary science على الجسد المتعب ، الممزق الذى شوهه التلوث ..

س : علم الموتى ؟

ص : نعم ، إنه علم مشروع ومنتشر فى جامعات عديدة. كما أن هؤلاء الجهلة يقررون أين وكيف نستخدم القوه النووية ، وكيف يجب أن يعيش أطفالنا ، والعلاج الجيد والردئ ، كما يبددون الملايين من أموال دافعى الضرائب فى مشروعات سخيفة ويستعدون للنزال والمواجهة إذا ما اقترح عليهم أحد طريقة أفضل للتصرف فى هذه الأموال ، هؤلاء الجهلة ...

س : فلتساعدنى السماء – كفى ! إلى أى مدى من اللامعقول يمكنك أن تمضى ! قد تكون محقا بخصوص التنجيم – على الرغم من أننى لم استسلم بعد ...

ص : ... حسنا دعنا نناقش الأمر بالتفصيل .

س : كلا ، كلا ، كلا – كفى حديثا عن التنجيم . لقد استسلمت. لن أقول أى شئ أبدا ...

ص : قبلت استسلامك.

س : ولكن هناك موضوعات أخرى ذكرتها فى حديثك لا تخرج عن قدرة العلماء ، بل تقع فى بؤرة اهتمامهم وكفاءتهم – كالمفاعلات النووية ، مثلا ، أو الطب ، فتلك الأمور تقع فى بؤرة قدرة علماء الفيزياء أو البيولوجيا. أنت تستدل عدم كفاءة خبرة هؤلاء العلماء من خلال عدم الكفاءة المزعومة التى تستدلها من خارج هذه المجالات. وهو استدلال عقيم !

ص : حسنا – نحن فى حاجة إلى المزيد من الأمثلة !

س : لن نصل إلى أى نتيجة بهذه الطريقة !

ص : إذا كنت تقصد بكلمة "أى نتيجة" إظهار العلم كالملك المتوج فأنا أتفق معك.

س : حسنا ، ماهى الأمثلة التى تتحدث عنها ؟

ص : إنها أمثلة مستمدة من علم الآثار. فقد اكتشف توم Thom ، وهوكينز Hawkins ، ومارشاك Marshack وسيدنبرج Seidenberg وآخرين منذ فترة مضت أن إنسان العصر الحجرى كانت له معارف فلكية متطورة إلى حد كبير ، وأن أحجار الميجاليث megalithic الضخمة المعلقة كانت بمثاب مراصد فلكية وحاسبات آلية للتنبؤ بالأحداث الفلكية الهامة ...

س : مثل ماذا ؟

ص : كخسوف القمر ، مثلا. لقد توصل عدد قليل من العلماء إلى هذه الكشوف ورفضها بقية العلماء.

س : لابد أن لهم حججهم الوجيهة فى هذا الرفض.

ص : نعم كانت لهم حجج ولكن استمع إلى نوعيتها. معى هنا دورية بعنوان" تاريخ علم الفلك" Journal for the History of Astronomy وبه

مقال للبروفيسور أتكينسون Atkinson وهو عالم حجة فى موضوع الأحجار المعلقة stonehengs وغيرها من الأبنية.

والآن لتقرأ ما كتبه ذلك الأستاذ العلامة.

س (يقرأ) : " أخشى أن أقول إننى أميل فى هذا الموضع ، إلى تشاؤم حذر لأن معظمنا تلقى تدريبه فى ميدان الإنسانيات ومن هنا نفتقد القدرة الإحصائية المطلوبة ..."

ص : توقف ها هنا ! إن أتكينسون "متشائم" من نتائج أولئك الذين يؤكدون وجود علم فلك متقدم فى العصر الحجرى لأن تدريبه ليس كافياً. أى ليس لديه المعرفة الكافية – ورغم هذا يواصل محاولة استخدام جهله لبذر الشك حول إجراءات بحثية غير عادية. تلك الملاحظة الأولى التى أود أن أشير إليها. أما الملاحظة الثانية فأهم من السابقة. وهى أن أتكينسون ليست لديه "الإحصاءات المطلوبة". أما الذين شيدوا تلك المواقع الحجرية القديمة التى ظل يدرسها طوال حياته فقد كانت لديهم القدرة الإحصائية التى يفتقدها. لقد كانوا أكثر منه علما وعلى الرغم من ذلك فقد ظل طويلا هو وأقرانه من الباحثين يستخدمون جهلهم وتعتيمهم ليقللوا من شأن "عقلية إنسان العصر الحجرى". وقد كشف العديد من علماء الانثروبولوجيا عن جهلهم أيضا عند استكشافهم للقبائل البدائية حيث انتهوا إلى أن العقلية البدائية لهذه القبائل تقدم لنا "الخرافة" لا "النتائج العلمية". وبالمثل حاول الأطباء مؤخرا بسبب جهلهم بأسلوب الوخز بالإبر أن يسخروا من هذا الأسلوب وأن يمنعوا ممارسته بالطرق القانونية. فهم يستخدمون القانون ليستبعدوا العديد من الاختبارات الجيدة الممكنة. والآن استمر فى القراءة.

س : " ومن المهم أن يفهم غير الأثريين كيف أن مضايقات علماء الآثار يرجع سببها إلى كتابات توم ..." من توم هذا ؟

ص : باحث توصل إلى كشف خاص بهندسة أحجار الميجاليث الأثرية ، والمقاييس الخاصة بها ، وعلم الفلك بل وحتى بعض المعارف الخاصة بترنح مسار القمر.

س : ماهو الترنح nutations ؟

ص : الترنح هو ميل مسار القمر نحو الدائرة الظاهرية لمسير الشمس نحو خمس درجات. أما نقاط التقاء مسار القمر بدائرة الشمس الظاهرية ، والتى تسمى نقاط تقاطع المدارين nodes فتتحرك حول دائرة مسار الشمس الظاهرية كل ١٨٦عام. وخلال هذه الفترة تتغير الزاوية الواقعة بين دائرة مسار الشمس ومسار القمر بصورة دورية ، ويطلق على هذه التغيرات اسم "ترنح". ويكون مداه حوالى ٩ درجات من دائرة المسار وقد كان معروفاً لفلكى العصر الحجرى. استمر فى القراءة.

س (يبدو غير فاهم للتفسير) : "... إلى كتابات توم لأنهم لا يستطيعوا تحديد النموذج التصورى لفترة ما قبل التاريخ الأوربية التى شاعت خلال القرن الحالى ..."

ص : حسنا ، الأمر واضح هنا ... فأتكينسون يضطرب فى أقواله لأن ثمة نظرية لا يمتلك أدوات فهمها لا تروقه - ولكن تمهل ، فهنا ستأتى فقرة أكثر أهمية !

س : " لا يثير هذا الأمر دهشة الكثيرين ، فالعديد من مؤرخى فترات ما قبل التاريخ إما يتجاهلون كتابات توم ، لأنهم لا يفهمونها ، أو يعارضونها ، لأنهم يشعرون بالراحة فى ذلك ..."

ص : حسنا ، الأمر فى غاية الوضوح: فالأفكار الجديدة يتم رفضها لأنهم يشعرون بالراحة فى ذلك ..." - ويتعلق هذا الأمر مباشرة بكفاءة السادة العلماء. هل يستطيع المرء بعد هذا أن يثق فى الطبيب الذى يقول له إن العملية الجراحية التى تنتهى بتشويه المريض هى أفضل طريقة للعلاج ؟ وهل يستطيع أحد أن يثق فى عالم الذرة الذى يتعهد بأمان مفاعل نووى مقترح ؟ وبعد هذا ...

س : أعتقد أنك تصنع من الحبة قبة. فأتيكنسون مجرد حالة فردية...

ص : ولكنه يجعلنا ندرك كيف تتصرف "العقلية العلمية" وما هى العقبات التى تواجهها. لنأخذ العلماء فى ميدان بحثى معين كمثال حيث يكون لهؤلاء العلماء

افتراضات أساسية نادرا ما يتشككون فيها. كما تكون لهم طـرق فـي تقييم الشواهد يزعمون إنها الإجراءات الطبيعية الوحيدة المناسبة ، ويدور البحـث العلمي عندهم حول استخدام الافتراضات والمناهج الأساسية ، وليـس فـي امتحان هذه الافتراضات. نعم نحن نقر بأن هذه الافتراضات وضعـت فـي البداية لحل المشكلات ، أو للتخلص من الصعوبات ، وقد عرف العلماء فـي ذلك الوقت كيف يتعاملون معها من هذا المنظور ، غير أن هذا الزمن ولـى وأدبر وأصبح العالم لا يعي اليوم هذه الافتراضات التي تتحدد الأبحاث وفقـا لشروطها ، والتي تقرر أن الأبحاث المخالفة غـير صحيحـة أو علميـة أو ممجوجة. إنك تقول إن العلماء يجعلون أنفسـهم موضـع سـخرية عندمـا يتحدثون خارج مجال معرفتهم ولكن يجب علينـا الإصغـاء إليهـم عندمـا يتحدثون في أمور درسوها بإسهاب. حسنا ، أنا أقول لك أنهم لم يدرسوا أبدا أية افتراضات من النمط الذي أشرت إليه. وعلى الرغم من هذا فإن أبحـاثهم لم يكن لها لتبدأ بدون هذه الافتراضات. وهذا يعني أن العلم ينحصر في دائرة مغلقة وأن الخبرة العلمية ليست حجة يعتد بها.

س : هل يمكنك أن تذكر لي مثالا من هذه الافتراضات التي تتحدث عنها ؟

ص : خذ مثلا بعض الأفكار الخاصة بمناهج البحـث ، فسـتجد ، مثـلا ، الفكرة القائلة بأننا ينبغي أن نبدأ بحثنا باختبارات تجريبية ، وألا نسمح للأفكار النظرية أن تؤثر فيها ، كما ينبغي أن نؤسس نظرياتنـا علـى نتـائج هـذه الاختبارات. وينطبق هذا الوصف على العديد من الإجراءات الإحصائية فـي العلوم. لقد ظل علم الآثار لفترة طويلة يعني علم تصنيف الأدوات (الأثرية) دون تقديم أي افتراض عن فكر أولئك الذين أنتجوا هذه المخلفات الأثرية. فلم تكن "الثقافـة" عندهم تعني تجمعا للعقول في محاولة لحل مشكلات معينـة ، وإنما تعني فقط مجرد مجموعة من الأحجار والنقوش ،الخ . وإليك مثالا آخر يختص أيضا بالافتراض القائل بأن عدم قابلية التجارب للتكرار لا يمكن ردها إلى تأثيرات بعيدة عن عالمنا الأرضي. فقد وصف ميكل بولانـي Michael Polanyi الكثير من التفاعلات الكيميائية الدقيقة ، وتم الحصول على نفـس

هذه النتائج فى معامل أخرى كما تم أخذ صور فوتوغرافية لتوثيق النتـــائج ، وكتبت عنها رسائل علمية جامعية ، وذات يوم اختفت هذه النتائج ولم تشـــاهد بعد ذلك أبدا. لقد اعتبر العديد من الكيميائيين ذلك الأمر شذوذا – ولكنهم لـــم يبحثوا عن أسباب ما حدث خارج نطاق عالمنا الأرضى. فهذا الأمـــر يعــد بالنسبة لهم خرافة حقيقية.

س : ربما كانت لديهم أسبابا لهذا التصرف.

ص : لقد كانت لديهم أسباب تماثل الأسباب التى ناقشتها ضد التنجيم – وهى أسباب ضعيفة مثيرة للسخرية. وهناك أيضا الاعتقاد بأن البحث العلمى وليس الاختبارات الإكلينيكية هو الذى يقودنا إلى مناهج أفضل فى علاج الأمراض. ويرتبط بهذا الاعتقاد ارتباطا وثيقا الفكرة القائلة بأن لكل مرض سببا محتملا ينبغى الكشف عنه – وأن التشخيص قد يساعدنا فى الكشـــف عـــن الســـبب المحتمل للمرض. ومن هنا كان السبب فى استخدامنا التشخيص بأشـــعة X ، والجراحات الاستكشافية واختبارات الأنسجة والإجراءات الأخرى المشابهة.

س : حسنا ، هل لديك طرق أخرى لتشخيص المرض ؟

ص : نعم على سبيل المثال ، بفحص النبض ، والبول ، ونسيج الجلد...

س : ولكن مثل هذا الأسلوب لن يقودك أبدا إلى الخلل الذى يسبب المرض.

ص : ومن قال لك أن أى مرض له سبب من الممكن تحديده ؟ فقـــد يكـــون المرض تعديلا تركيبيا فى عملية الحياة ليس له سبب يمكن تحديـــده ، علـــى الرغم من تضمنه لتغيرات عديدة يمكن تحديدها. كما أن أفضل التشـــخيصات يمكن أن تتحقق من الإصغاء إلى التغيرات الكلية التى تعترى الجسد كالوزن، والنبض ، ونشاط العضلات الخ .

س : لدينا معرفة تتفوق على ما تقول. أعنى علم الميكروبيولوجيا ...

ص : الميكربيولوجيا تتعامل مع أحداث قابلة للتحديد وتهمل العمليـــات التـــى أتحدث عنها.

س : ولكن الجسد الإنسانى وعمليات الحياة تتحدد بعمليات ميكروبيولوجية.

ص : هذا مجرد فرض صادف نجاحا تاما فى مجال معين – ولكن من يزعم أنه سيستمر فى النجاح خارج ذلك المجال ؟ هذا فضلا عن أننا نحصل على نتائج الجزئيات البيولوجية بإتباع أبسط الطرق. ويتم ذلك ببساطة باستبعاد المشكلات المعقدة.

س : لأننا يجب أن نعرف العلة فى ذلك !

ص : أعلى حساب المريض ؟

س : ماذا تعنى ؟

ص : حسنا ، تعتمد كفاءة الدواء على كفاءة الافتراضات الكامنة وراءها. ومحاولة دفع الافتراضات إلى أقصى مدى ربما تؤذى المرضى بدرجة كبيرة. فضلا عن أننا بهذه الطريقة قد لا نعثر على الحد النهائى الذى نقف عنده.

س : ولم لا ؟

ص : حسنا ، إن الطبيب يشخص ، ثم يصف العلاج ، الذى قد يتمثل فى جراحة كبيرة ، ثم ينفذ العلاج ويحصل على بعض النتائج. لنفترض أن النتيجة تمخضت عن جسد مشوه يصارع الحياة خمس سنوات ثم يموت. كيف يعرف الطبيب أنه أخطأ ؟

س : من الدراسات ذات المجموعات الضابطة.

ص : ومن أين لك بمثل هذه المجموعات الضابطة خاصة إذا وضعت فى الاعتبار أن الأطباء يعتبرون أن واجبهم يقتضى عليهم التشويه ، والمرضى يعتقدون أن التشويه أحد حقوقهم ؟ لنأخذ كمثال مرض الزهرى. فقد أعتقد الناس لفترة طويلة أنه من أكثر الأمراض خطورة. وكانوا يعالجون هذا المرض قبل اكتشاف المضادات الحيوية بطريقة تؤذى الأعضاء بدرجة شديدة. غير أننا اكتشفنا منذ زمن وجيز أن ٨٥٪ من المصابين بهذا المرض يعيشون حياه عادية دون علاج ، وأن ٧٠٪ منهم يموتون دون أى دليل على أن الوفاة حدثت بسبب هذا المرض. وقد يحدث نفس هذا الأمر مع أمراض أخرى قد يؤثر العلاج فيها تأثيرا ضارا على الأعضاء . فكثير من الرجال

تنمو لهم خلايا سرطانية فى غدد البروستاتا ويبقى النمو محصورا فى نسبة صغيرة من الخلايا لا ضرر منها. ويوصى الأطباء ، خاصة فى ألمانيا ، بفحص دورى للأنسجة – " لمجرد الرغبة فى التخلى عن المسئولية ". وكثيرا ما يغفل الفحص اكتشاف جزء من النمو السرطانى ، وينشأ عن ذلك نمو إنبثاثى metastasis فى أجزاء أخرى من الجسد ، وتنتشر فى الجسد أورام سرطانية أكثر خطورة. وينطبق نفس القول على استئصال الكثير من الأورام خاصة تلك الخاصة بما يسمى بمنهج هاليستد Halstead method فى علاج حالات سرطان الثدى. فهى جراحات غير ضرورية ، وغالبا ما تؤدى إلى نتائج لا يمكن التحكم فيها. والسبب فى كل هذه الأمور الافتراضات التى يأخذها الحقل الطبى كمسلمات دون إدراك الحاجة إلى إجراء فحوص إضافية أكثر دقة.

س : إذن ما الحل ؟

ص : الحل فى غاية البساطة – دع الناس يفعلوا ما يريدون.

س : ماذا تعنى ؟

ص : هناك أنماط عديدة من العلاج فى العالم.

س : أتعنى – المشعوذين ومن على شاكلتهم ؟

ص : حسنا ، لا تأخذ الأمور بهذه البساطة. فهناك صور عديدة من العلاج تتقدم بطريقة منظمة وتقوم على فلسفة معينة وهى موجودة منذ وقت طويل وإن كانت غير معروفة للعلماء.

س : ماهى الأمثلة على ذلك ؟

ص : أحد الأمثلة الطب الهوبى Hopi medicine [1] ، والوخذ بالإبر الصينية acupuncture ، والصور المختلفة للتداوى بالأعشاب التى تنتشر فى أوربا والولايات المتحدة ، والعلاج الروحى.

---

[1] هوبى هى أحد قبائل الهنود أو السكان الأصليين فى الولايات المتحدة الامريكية وموطنهم بالقرب من أريزونا.(المترجم)

س : علاج روحى ؟ لابد أنك تمزح.

ص : ماذا تعرف عنه ؟

س : حسنا ، ليس الكثير ...

ص : وعلى الرغم من هذا تصيح معترضاً. هناك طرق عديـــدة ومتنوعـــة للعلاج ، فهناك أسلوب المعالجة المثليـــة homeopathy والعـــلاج بالمـــاء بالإضافة إلى أنماط أخرى عديدة من العلاج. وتشترك كل هذه الأنواع فـــى عامل مشترك: وهو أن مناهجها فى التشخيص لا تتداخل أو تتعـــارض مـــع وظائف الأعضاء الإنسانية ، كما أن علاجها ليس بقسوة العلاج الذى يقترحه الأطباء الغربيون ومن ثم فمن المستحسن تجربتها فى البداية.

س : هل أنت جاد فى الاقتراح بأن يبعث الطبيب مريضه أولا إلـــى طبيـــب مشعوذ ...

ص : أنظر يا عزيزى "س" ، إن مصطلحاتك تدل على ضحالة وقلة معرفتك بتاريخ الطب وبمدارسه المختلفة الموجودة على الساحة الآن. فأنت لا تكـــاد تعرف أى طب ، بل أنت تعرف القليل عن العلم ، ولكنك تظن مع ذلـــك أن العلاج الصحيح هو "العلاج العلمي" وتلعن بقية أنواع العلاج. وعلى الرغـــم من عدم معرفتك شيئا عن بقية أنواع العلاج ، فأنت تزعم أنها رديئة ، حافلة بالخرافة ، وضارة. ومن هنا تطلق عليها أحط لقب يمكن أن يخطـــر علـــى بالك: فأنت تتحدث عن "أطباء مشعوذين" ، ويؤسفنى أن أقول لك أن هذا يتـــم عن جهلك. ولكن الموقف أكثر سوءاً مما أظن. لقد تحدثت حتى الآن عن ما يحدث للناس فى المجتمعات الغربية فى إنجلترا ، والولايات المتحدة الأمريكية ، وفرنسا الخ . غير أن نفس المغامرين الجهلة الذين تتحدث عنهم حاولوا أن يصلحوا ثقافات كاملة وأن يكيفوها وفقا لأفكارهم عن الحياة المتحضرة. ومنذ أن اكتشفوا أن من الناس من لا ينتمى إلى دائرة الثقافة والحضارة الغربيـــة ، فقد افترضوا ، كما لو كان واجبا أخلاقيا عليهم ، أن يبلغوهم بالحقيقة والتـــى تتلخص فى سيادة الأيدلوجية الرائدة للمنتصرين. لقد تمثل هـــذا الأمـــر فـــى البداية فى الديانة المسيحية ، ثم توالـــت علينـــا بعـــد ذلـــك عجـــائب العلـــم

والتكنولوجيا. والآن فإن الناس الذين اضطربت حياتهم بهذا الأسلوب عثروا على طريقة ليس فقط لمجرد الحياة وإنما لإضفاء معنى على حياتهم. وقد كان هذا على وجه العموم أكثر نفعا من العجائب التكنولوجية التى تم فرضها عليهم والتى صنعت الكثير من المعاناة. قد يكون "التطور" بالمفهوم الغربى قدم فائدة هنا أو هناك كالحد من انتشار الأمراض المعدية ، مثلا ، ولكن الاعتقاد الأعمى بأن الأفكار والتكنولوجيا الغربية خيرة فى ذاتها ومن ثم يمكن فرضها دون أى اعتبار للظروف المحلية يعد بمثابة كارثة. وليس مصادفة أن هذا الأمر كان وراء إدراكى لحقيقة التنجيم. فأنا ليس لى وله خاص بالتنجيم ، بل إن معظم ما كتب عنه يصيبنى بملل شديد. ولكن التنجيم يعتبر خير مثال على كيفية معالجة العلماء لظواهر تخرج عن مجال كفاءتهم. فهم لا يدرسون هذه الظواهر ، وإنما ببساطة يلعنونها ، مع التلميح بأن لعناتهم تقوم على حجج قوية دقيقة. والآن لنعود إلى موضوع الطب: كثيرا ما يفرض هذه الأيام على المرضى فى الغرب أن يختاروا بين آراء طبية مختلفة. فلم لا يمتد هذا الاختيار ليشمل نظم طبية مختلفة ؟ تكمن الإجابة على هذا السؤال فى القول بأنهم سيعانون من النتائج ، فليس هناك تأكيد بأن الطب القائم على العلم ، لديه الإجابة الصحيحة. وهناك أسباب عديدة تدعو للتخوف من العلاج المقترح. هذا فضلاً عن أن الأنظمة العلاجية البديلة كثيرا ما تكون جزءا هاما من تقاليد ثقافية كاملة ، فهى ترتبط بالمعتقدات الدينية كما أنها تضفى معنى لحياة المنتمين لهذه التقاليد. إن المجتمع الحر هو المجتمع الذى يكون فيه لكل التقاليد والثقافات حقوق متساوية بغض النظر عن تصور التقاليد الثقافية الأخرى لها. وهكذا فإن احترام آراء الآخرين ، واختيار أقل الأمور ضررا ، وفرصة إحراز تقدم ، كلها أمور تشهد فى صالح طرح كل الأنظمة الطبية على الملأ وتركها تتنافس مع العلم. وبهذا يمكنك أن تجيب على السؤال الذى بدأنا به: من الذى يحدد المقصود بأن تكون صحيحا معافى والمقصود بأن تكون مريضا سقيما؟ أنت قلت: الأطباء ، الأطباء العلميين. أما أنا فأقول إن الصحة والمرض يتحددان بالتقاليد الثقافية (العرف والعادات)

التى ينتمى إليها الشخص المريض أو الشخص المعافى. ويمكن دراسة أشكال الحياة المختلفة علميا بعد أن نكون قد "تعلمناها" وينبغى أن نتعلمها كما نتعلم لغة معينة، أى بالمشاركة فى الأنشطة المكونة لها. ومن هنا تأتى ميزة طبيب العائلة القديم الذى كان يعرف مرضاه، ويعرف خصوصياتهم ومنشأ معتقداتهم بكل وضوح : لقد كان يعرف ماذا يحتاجون ويعرف كيف يقدمه. والأطباء العلميون المعاصرون عند مقارنتهم بمثل هذا الطبيب يشبهون الطغاة الفاشيين الذين يفرضون على الناس مفهومهم عن الصحة والمرض تحت زعم العلاج الذى يكون فى معظم الحالات مجرد جهد بلا جدوى. لكل هذه الأسباب فمن الضرورى الجمع بين التعليم، أو تقديم وجهات نظر جديدة وبين تقديم أجهزة حماية خاصة. فالمعلم الماهر لا يكتفى بأن يجعل الناس يقبلون صورة معينة من صور الحياة، وإنما يزودهم بوسائل لرؤية هذه الصورة فى إطار خاص بها، وربما حتى بوسائل لرفضها. إنه يحاول أن يؤثر وأن يحمى. ومن هنا فهو لا يكتفى بعمل دعاية لأفكاره، وإنما يضيف إليها مكونا يجعلها أقل ضررا ومن ثم يحمى الناس من مخاطرها.

س : هذه نظرية فى غاية السخافة – كما إنها مستحيلة سيكولوجيا. أنت تريد تقديم أفكار جديدة. وتتحدث عن محيط عدائى. عليك إذن أن تجعل قضيتك أكثر قوة. ولكنك تريد أن تذكى أوار المعركة باستخدام السلاح الذى يمتلكه معارضوك بالفعل ...

ص : ... والذى من شأنه أن يهدئ الأمر أيضا ! أنا أعترف بأن ما أحاول تحقيقه قد يكون يوتوبيا خيالية. وأنا لا أريد فقط أن استبدل مجموعة من الحمقى من نوع معين بمجموعة حمقى من نوع مختلف – أو أن أستبدل اليهود بالمسيحيين، والدجماطيقيين بالشكاك، والعلماء بالبوذيين، وإنما أريد أن أضع نهاية لكافة أنواع الجنون الأحمق ولمواقف أولئك الذين يدعمون هذا الجنون ويساعدون فى نجاح أعلامه.

س : ماهى المواقف والاتجاهات التى تقصدها ؟

ص : هى مواقف تعرض لى باستمرار أثناء أسفارى ومحاضراتى. ودائما ما أخبر الناس عن عدم ملاءمة بعض طرق تنظيم المجتمع وعدم صحة البراهين المؤيدة لها.

س : أنت تريد فقط أن تربك الناس بطريقتك المعهودة.

ص : كلا. فأنا أحلل وجهات نظرهم ، مستخدما الحجج التى يفهمونها وأبين لهم أن وجهات نظرهم لا تمضى وفقا للمعايير التى يطبقونها. والسؤال الذى أسمعه دائما هو: "ماذا نفعل الآن؟"

س : سؤال مشروع.

ص : أهو سؤال مشروع للبالغين؟

س : هل تقصد الطلاب؟

ص : لا يهم عمن أتحدث. فعندما يكون شخص عمره ثمانية عشر عاما أو أكثر فى مأزق ويسألنى: ماذا عساى أن أفعل ؟ و يتوقع منى فى هذا الموقف كمحاضر أن أقدم له إجابة عن سؤاله ، ثم يشعر بالضيق إذا قلت له ولماذا لا تحاول أن تعثر على الإجابة بنفسك ، فإن هذا يوضح لنا كيف أن نظامنا التعليمى يحول البشر إلى نعاج ، والمفكرين والمعلمين إلى كلاب حراسة لتلك للنعاج.

س : ولكن النعاج ستنمو يوما ما ...

ص : ... وتتحول بدورها إلى كلاب حراسة تنبح فى وجه من لا يقبل المبادئ التى تلقتها عندما كانت نعاجا – أتسمى هذا تعليما ؟

س : كيف إذن سيتعلم الناس أى شئ ؟

ص : يعلموا أنفسهم.

س : ولكن يجب أن يتولى أحد تعليمهم ...

ص : ... دون أن يحولهم إلى نسخ مكررة من لحم وعظم من حماقة المعلمين.

س : ولكن لدينا الكثير من المعلمين الأفذاذ المتسامحين ، الذين لا يفرضون آراءهم ، والمتواضعين ...

ص : إن المتواضعين هم أسوأ أنواع المعلمين.

س : إذا لم تكن تحب المعلمين المتواضعين – فماذا تريد ؟

ص : هل تعلم شيئا عن الفكرة الشائعة التى ترى وجوب قرع الأفكار فـــى عقول الناس ؟

س : نعم. قرأت عن ذلك – ولكن هذه الأيام ولت وأدبرت.

ص : لدينا الآن مناهج مختلفة.

س : إننا نحاول اليوم أن نستثير اهتمام الطلاب ، وأن نكيف إجراءات التعليم لتطورهم الطبيعى ، وحب استطلاعهم ...

ص : ... وسوف يكون المعلمون الجدد بالطبع فى غاية التواضع.

س : هم كذلك ، نقديون ومتواضعون.

ص : ماذا يعلم هؤلاء المدرسون المتواضعون ؟

س : حسنا ، يعلمون الفيزياء ، والبيولوجيا وكل ما تبغى.

ص : وماذا يعلمون في الطب ؟

س : التشريح ، والفسيولوجيا.

ص : ...ماذا عن الوخز بالإبر الصينية ؟

س : بالقطع لا.

ص : والتنجيم ؟

س : نحن نتحدث عن العلم .

ص : إذن فإن معلميك المتواضعين يربكون طلابهم بطريقة أكـــثر فعاليـــة ، ويظل الموضوع كما هو نراه بأسلوب الجانب الواحد. ولا ينطبق هذا علـــى تدريس العلم فقط وإنما على كل ما يتم تدريسه ، بمـــا فـــى ذلـــك الفضـــائل الديمقراطية.

س : هل تعـــترض على تعليم الفضائل المدنية الأساسية ؟

ص : نعم اعترض – إذا تم تلقينها بالطريقة التى وصفتها.

س : أتعترض على تعليم التوجهات الإنسانية ؟

ص : نعم ، إذا لم يتم وضع هذه النزعة الإنسانية فى إطارها الصحيح ، وإذا لم يتم عند تدريسها حماية الناس منها.

س : حسنا ، كيف تتوقع أن يعيش الناس مع بعضهم إذا لم تسد بينهم عهود ومواثيق أساسية ؟

ص : كيف ينجح الناس فى تفادى تصادم بعضهم البعض فى الطريق ؟

س : قواعد المرور.

ص : كالقيادة على الجانب الأيمن من الطريق ، مثلا.

س : نعم.

ص : وهل يلتزمون بهذه القواعد ؟

س : حسنا ، عليهم أن يطيعوها ...

ص : ما أعنيه هو : هل يعتقد الناس أن القيادة على الجانب الأيمن من الطريق هى الطريقة الوحيدة للقيادة ، أى أنها نشاط إنسانى جوهرى بينما القيادة على الجانب الأيسر غير لائقة ، ولا عقلانية ، وشريرة ، وغير عادلة؟

س : كلا بالطبع – أنت تريد الآن أن تقول إننا ينبغى أن ننظر بنفس الطريقة إلى الأفكار الخاصة بالأمانة ، واللياقة ، والحق ، أى باعتبارها مواضعات لمنع حوادث المرور فى المجتمع ككل.

ص : ليس تماما. فأنا لا أرغب فقط فى تفسير وظيفتها الحالية ، وإنما أريد أيضا أن يعرف الناس شيئا عن أداءها فيما مضى ، وعن ما تم إنجازه بمساعدتها والأشياء التى فقدناها عند استخدام هذه المفاهيم وتعضيدها. علينا أن نعرف محاسنها ومساوئها. وأنا ليس لدى اعتراض إذا أختار الأفراد ، أو المجموعات أن يعيشوا كلية وفقا لهذه المفاهيم ، أى إذا اختاروا أن تكون الحقيقة هدفهم ولم يأبهوا لغيرها. فهذا حقهم تماما ، ولكنى أعترض على تحويل المهاويس المحليين إلى مؤسسات للمجتمع فى مجموعه.

س : أتعترض على النزعة الإنسانية ؟

ص : بل أعترض على جعل النزعة الإنسانية جزءا من أيدلوجية مجتمع معين كالمجتمع الأمريكي ، مثلا ، الذى يحتوى على أفراد ينتمون إلى تقاليد

حضارية متنوعة. كما أعترض أكثر على محاولات فرض هذه النزعة على قبائل وشعوب تعيش بطريقة مغايرة. دع الناس، يتعرفون عليها ، بكافة الطرق ، ودع مروجى النزعة الإنسانية يحاولون إقناع الناس بأنها العقيدة الوحيدة التي تستحق الاعتبار ...

س : حسنا ، وماذا أيضا ؟

ص : الخوف من الله ، مثلا ، أو التناغم مع الطبيعة ، أى مع كافة المخلوقات الحية وليس فقط مع بنى الإنسان. فصاحب النزعة الإنسانية الغربى على استعداد تام لإساءة معاملة الحيوانات لكى يجد عقاقير لعلاج نفسه ، بينما الشخص الذى يحترم الطبيعة كلها ينكر حق الناس فى إخضاع الأجناس الأخرى لرغباته حتى إذا أدى هذا إلى خسارة كبيرة له.

س : ولكنك إذا لم تعلم الناس بعض الفضائل ، فكيف لهم أن يتعايشوا معا دون أن يقتلوا أنفسهم ؟

ص : أنا لم أقل بعدم وجوب تعليم الفضائل ، ولكنى قلت بوجوب تعليمها كما تتعلم قواعد المرور...

س : هذا يعنى إنك تريد من الناس أن يتصرفوا كما لو كانوا خيرين دون أن يكونوا فى الواقع كذلك.

ص : هذا كل ما نريده حتى يعمل المجتمع ، بل وحكومات العالم ، بيسر.

س : أنت لا تريد أن تعلمهم احترام حياة الناس ، وإنما تريدهم فقط ألا يقتلوا الآخرين.

ص : نعم. يصلح قولك أن يكون مثالا لما أريد.

س : وتريد أن يتحول المجتمع إلى طغمة من الأفاقين والمحتالين.

ص : إذا رغب الناس أن يكذبوا بصدد أمور لا تقع تحت طائلة القانون ، كعندما لا يكونوا مثلا شهودا فى محكمة ، فهذا أمرا يخصهم. هذا فضلا عن أن ما أقوله لا يستلزم آليا الكذب – فإذا كان القانون يمنع الكذب – ويصبح كقواعد المرور كما قلت – فإن كل المطلوب منا هو طاعة القانون بغض النظر عن الأسباب. قد يكذب بعض الناس بصدد دوافعهم ، وقد يقول البعض

صراحة أنهم يودون قتل كل من يصادفهم ولكنهم لا يعرفون كيف ينفذون رغبتهم ، وقد يعترف آخرون بأنهم يحقدون على بعض الناس ، ويرغبون في قتلهم لولا خوفهم من السجن.

س : ولكن كيف لمثل هذا المجتمع أن يتقدم ؟

ص : بعقاب المجرمين وبقوة بوليس فتية تضمن الامتثال للقوانين.

س : من الواضح أن ليبرالتيك الظاهرة تقتصر فقط على الأفكار. أما القمع فسيستمر في المجتمع ككل بنفس السوء الذى كان عليه من قبل.

ص : هل قواعد المرور قمعية ؟

س : كلا ، ولكن ...

ص : من هنا ينبغي الامتثال لها ، كما ينبغي أن يراقب شخص معين المخالفين. أنت تريد أن تحول الناس إلى عبيد للفضيلة. ألا تدرك أن نظام التعليم الذى ينجز مثل هذا الأمر سيكون أكبر أداة للقمع في الوجود؟ بل سيلغى مثل هذا النظام أى جانب في الإنسان لا يتفق مع الفضيلة ، وسيحوله من فرد قادر على التمييز بين الخير والشر إلى كمبيوتر يفعل دائما ما هو صواب. كما سيعنى ذلك أيضا قتل الناس الحقيقيين واستبدالهم بأفكار مجسدة جامدة. ولا يوجد اليوم تعليم له مثل هذا التأثير ، مما يفسر لنا الحاجة المستمرة إلى القوة البوليسية. إن التعليم الذى تفكر فيه سيستبدل القيود الخارجية التى تتحكم في السلوك ولكنه سيترك العقول دون ضرر من عملية غسيل المخ التى تضع أغلالا على كل جارحة من جوارح الإنسان. من الواضح إذن أى الإجراءين أكثر ضرراً على الحرية من الآخر.

س : ولكن ما هو نوع القوانين ، أو الوصايا التى يمكن تقديمها في مجتمعك هذا ؟

ص : هذا أمر ليس من اختصاصي ، وإنما هو متروك للناس الذين يعيشون في المجتمع ، والذى ستتغير الاقتراحات فيه تبعا لتغير المواقف التاريخية. وستكون هناك حلول وسط ، كما ينبغي التعامل مع التوازنات الصحيحة ...

س : وما هى المعايير التى يمكن أن تقرر التوازنات "الصحيحة" ؟

ص : ليست هذه التسمية من عندى ، وإنما سيطلق عليها المعنيـــون توازنـــا "صحيحا" وفقا لمعايير سيلجئون إلى اختراعها بأنفسهم لتلاءم المواقف التـــى يواجهونها.

س : إن موقفك مريح تماما. فأنت تتحدث عن أمور ضخمة ولكـــن عندمـــا يطلب منك أحد المزيد من التفصيلات فإنك تجيب بأن طرح الاقتراحات ليس من شأنك.

ص : تختص إجراءاتك - وأنا الآن أقصدك أنت وأقرانك المثقفين - بتطوير النظريات ، والمذاهب الأخلاقية ، والفلسفات الإنسانية ، إلى آخـــر مـــا فـــى جعبتكم من مسميات ثم فرضها على الآخرين تحت خداع اسمه "التعليم". أمـــا أنا فأريد أن يعثر الناس على طريقهم بأنفسهم. وكل ما أفعله هو إزالة العقبات التى يضعها المثقفون فى طريقهم. أما أنتم فتريدون تغيير السلوك حتى يتفـــق مع افتراضاتكم المسبقة. ومن الطبيعى ، أن تكون لديكم خطة معينة ، بينمـــا أستطيع أنا أن أترك بناء المجتمع لمؤسساته الذاتية. والتعليم الصحيـــح فـــى رأيى يكون بمثابة تعليمات تقول للناس ماذا يدور حولهم ، وتحاول فـــى الآن عينه أن تحميهم من تعقيد مثل هذه الأمور. فمثل هذا النظام التعليمى يخبرهم أن هناك شيئا أسمه النزعة الإنسانية ولكنه يحاول أيضا أن يعضد من قدرتهم على إدراك حدود هذه الفكرة.

س : هل يمكنك أن تقدم لى فكرة عن نوع التعليمات التى فى ذهنك ؟ ونـــوع أدوات الحماية التى ستستخدمها ؟

ص : تتغير أدوات الحماية وفقا للحالة المعرفية للأفراد. فأنت تبدأ مع الأطفال بالقصص الخيالية: بما فى ذلك القصص الأسطورية ، والدينية ، والروايـــات العلمية حول أصل العالم وتركيبه.

س : ستحتاج إذن إلى لغة ينبغى تعلمها دون أدوات الحماية ذاتها.

ص : كلا على الإطلاق ! إن أفضل وسيلة للحماية من خداع لغة معينة هـــى أن ينشأ الشخص متحدثا لغتين أو ثلاث لغات.

س : هذا أمر فى غاية الصعوبة !

ص : لا توجد صعوبة عندما تكون الظروف مواتية.

س : نادرا ما تكون الظروف مواتية ...

ص : بل كثيرا ما تكون مواتية كما هو الحال ، مثلا ، فى بعض مناطق أمريكا ، وعلى الرغم من هذا فنحن نجد نزوعا طاغيا للتأكيد على استخدام لغة واحدة وإهمال اللغات الأخرى. يجب أن ينشأ الأطفال بحيث يعرفون ليس فقط اللغات المختلفة وإنما أيضا الأساطير المختلفة ، بما فى ذلك الأساطير الخاصة بالعلم.

س : أى الأساطير ستختار ؟

ص : مرة أخرى أنا لا أختار ، وإنما الناس فى المناطق المختلفة سيختارون وفقا لرغباتهم.

س : ولكنهم سيحتاجون إلى تعليمات عن كيفية الاختيار.

ص : لكل جماعة من الناس حكماؤها ومناهجها فى الاختيار – لندعهم يطورون هذه المناهج.

س : مرة أخرى أنت لا تقدم إجابة.

ص : لأنك مرة أخرى تريدنى أن أفرض حياة معينة على الآخرين.

س : ... لكن هذا هو ما تقوم به باستمرار.

ص : كلا – كل ما أقوله هو: دع الناس يختارون طرقهم فى الحياة ، كما أننى أنتقد المفكرين العقلانيين الذين يرغبون فى دفع الناس فى اتجاه مخالف لما يريدون.

س : حسنا ، استمر فى مناهجك الوقائية المزعومة.

ص : أما بالنسبة للبالغين الذين لديهم بالفعل بعض المعتقدات ، فإن الفكاهة تعد بالنسبة لهم قوة ملطفة ومهدئة.

س : هل هذا هو السبب فى أن كتبك ومقالاتك تحفل بالنكت السمجة المرزولة ؟

ص : معذرة إذا كانت دعاباتى لا تروقك ولكنى لا أكتب مقالاتى لك. إن الفكاهة واحدة من أعظم وأكثر أدوات الحماية الإنسانية. لقد فهم سقراط هذا

الأمر جيدا. فعندما كان يوضح أفكاره فى محاورة الدفاع ، ويصل إلى نقطة قد تهدد بإرباك المستمعين كان يهدئ الموقف باستخدام الفكاهة. كما أن أرستوفان قدم لنا مشكلات هامة فى صورة هزلية – لقد جعل الناس يفكرون دون أن يتعلقوا بأفكاره. ومن الأمثلة المعاصرة على ذلك الممثل المعروف وودى آلن[1] Woody Allen فى بعض أفلامه الحديثة ، مثل فيلمه Anni Hal وإذا كان مركب الدعاية والمحتوى المعرفى للعمل الفنى صحيحا فإنه لا يخدع الناس أبدا – لأنهم يفهمون رسالته ويهتمون بها ، ويفهمون حدودها. وبالنسبة للأمريكيين فإن مارك توين Mark Twain وويل روجرز Will Rogers ليسا مجرد كاتبين للكوميديا وإنما هما من الحكماء. أما المثال الذى يبين بوضوح ضرر اتجاهات المثقفين المتطرفة فهو بريخت Bert Brecht . فقد أدرك بريخت دور الفكاهة ، ومن هنا احتوت كتاباته النظرية على ملاحظات هامة وحساسة فى الفكاهة – ولكنه فشل فى النهاية. وهناك طريقة أخرى لتهدئة المواقف تتمثل فى العقيدة الدينية التى تظهر المسافة الكبيرة بين الطبيعة والأعمال الإنسانية. فنحن لسنا مجرد عملاء سريين للمجتمع الذى نعيش فيه ، وهو مجتمع لا يتوافق توافقا كاملا مع وجودنا ، وإنما نحن أيضا عملاء سريين للطبيعة نحاول دائما أن نكيفها مع أبسط تصوراتنا حتى وإن لم ننجح فى ذلك أبدا. والعقيدة الدينية التى تجعلنا على وعى بهذا الموقف هى وسيلة وقاية قوية ضد الغرور الإنسانى ...

س : يا لأفكارك السخيفة ! تريد أن تعلم الناس بإضحاكهم على ما تقوم بتعليمه ، وتدمر العلم بمزجه بالدين ، وباعتبار الإنسان عميلا سريا للعالم والمجتمع.

ص : من الواضح أنك لم تسمع أبدا عن هذه الأفكار.

---

[1] وودى آلن(١٩٣٥–٠٠٠) ممثل ومؤلف ومخرج امريكى معروف. حاز على جائز أوسكار مرتين عامى ١٩٧٧و١٩٨٦.من أشهر أفلامه هانا وأختها(١٩٨٨)،زهرة القاهر القرمزية(١٩٨٥)،الظلال والضباب(١٩٩٢).المترجم

س : كلها أفكار غير ضرورية ، فوسائل الحماية التى تبحث عنها موجـــودة بالفعل بل وبصورة أفضل من مفاهيمك الرائعة.

ص : وماذا تكون هذه الوسائل ؟

س : العقلانية النقدية.

ص : فلتساعدنا السماء !

س : فلتساعدك أنت السماء ! إن العقلانية النقدية تقدم لك بدقة ما تبحث عنه من وسائل. وهى تخبرك أن موقفك من الأفكار ينبغى أن يكـــون نقديـــا وأن النظريات التى يسهل نقدها هى النظريات الجسورة. كما أنها تشجع أصحـــاب الأفكار الجديدة على تقديمها بأفضل الطرق دون تردد. وهكذا فأنت تســـتطيع الدفاع عن وجهة نظرك ، دون الحاجة إلى الـــتراجع أو الحـــذر ، ودون أن تكون فى الآن عينه خائفا من أن تربك المستمعين ، فقوة ما تقدمه لهم ستجعل من الميسور عليهم اكتشاف الأخطاء – هذا إذا كانوا بالفعل نقديين.

ص : لا يبدو أن الأمور تمضى بهذه الطريقة.

س : ماذا تعنى ؟

ص : حسنا ، يمكننا أن نستشف من وصفك السابق أن العقلانيين النقديين هم أصحاب العقول الحرة الذين يكتبون بأسلوب قوى مفعم بالحيوية ، ويتعرفون على حدود العقلانية ، ويعارضون محاولات العلم فى السيطرة على المجتمع، ويجدون طرقا جديدة لعرض أفكارهم ، ويستغلون بأفضل ما يمكـــن وســـائل الأعلام ، والسينما ، والمسرح ، والمقال والحوار ، والذين اكتشـــفوا وظيفـــة العواطف فى الكتابة إلى جانب أشياء أخرى عديدة. وقد يظن المرء أن هؤلاء النقديين جزء من حركة هامة تساهم فى تحقيق رغبة النـــاس فـــى الحريـــة والاستقلال وتقدم لنا أفضل ما لديها. ولكننى لا أرى فيهم ســـوى مجموعـــة كئيبة من المفكرين يكتبون بطريقة جافة جامدة ، ويكـــررون بطريقـــة تثـــير الغثيان أكليشيهات أساسية قليلة ويهتمون بتطوير مفاهيم هـــى أقـــرب إلـــى المسوخ الفكرية ، كالقول بزيادة محتوى النظريات أو درجـــة اقترابهـــا مـــن الصـــدق **Verisimilitude and content increase**. وتفيـــض أعينهـــم

بالخوف أو بالشر ، وفقا للموقف الذى يواجهونه وبأقل درجة من القدرة على التخيل. وهم لا يمارسون النقد ؛ أعنى لا يخترعون طرقـــا جديــدة لرؤيـــة الأفكار من منظور معين ، ويرفضون ما لا يناسبهم من أفكار مستخدمين فى ذلك الخطب القياسية المحفوظة. وإذا صادفوا موضوعا غير مألوف لهم أو لم يكونوا فى وضع يسمح لهم بمعالجته بصورة مباشرة فإن الأمر يختلط عليهم كما يختلط على الكلب الذى يرى سيده يرتدى ملابس غير مألوفة له : فالكلب هنا لا يعرف هل يجرى ، أم ينبح ، هل يعقر ذلك الشخص الغريب أم يلحس وجهه. مثل هذه الفلسفة توافق تماماً عقلية المفكرين الألمان. فهم نقديون جدا ، كما أنهم ضد أشياء كثيرة ولكنهم أجبن من أن يتحملوا مســئولية هجومهــم ومن هنا يتطلعون إلى لون من ألوان الحماية والأمان. وهل هناك ما هو أكثر أمنا من مدرسة فكرية تحمى الناقد من تحمل تبعات نقده ؟ وهل هناك مدرسة أفضل من العقلانية النقدية ، تلك المدرسة التى تزعم أنها تضمن سلطة العلم إلى جوارها ؟ حقا إنها ليست فى الواقع فلسفة ، وإنما مجرد أقوال عشـــوائية مضطربة عن العلم. نعم إن هذا التخبط ليس صحيحا ولا نقديا : إذ لا يوجــد حدث هام واحد فى تاريخ العلم يمكن تفسيره على طريقة بوبر كما لا توجـــد محاولة واحدة لرؤية العلم من منظوره الصحيح كما يراه هؤلاء النقديون. إن هذه "الفلسفة " ليست سوى خادم مخلص غير فاهم للعلم ، تماما كما كـــانت الفلسفات القديمة خادما مخلصا غير فاهم للاهوت. ولا يتجه النقد – فى هذه المدرسة – أبدا إلى العلم بكليته وشموله (كما لم يكن النقد يوجه أبـــدا إلـــى الدين ككل) وإنما يوجه معظم الوقت إما إلى الفلسفات المنافسة أو التطورات غير المستحبة فى العلوم ذاتها – أما الخلاف مع الاتجاهات السائدة فى العلــم فيتم تجنبها فى كلتا الحالتين.

إن كل هذه الصعوبات ليست ذات أهمية : فهؤلاء المفكريـــن ليــس لديهم الخيال ولا الشجاعة ولا المعرفة التاريخية لكى يلاحظوا المكانة المتدنية لهذه العقلانية النقدية عند مقارنتها بالتراث العقلانى. لقد كان ليسنج Lessing عقلانيا أيضا – ولكن ما أبعد الشقة بينه وبين العقلانيين ! فقد كان على وعى

بالتأثير المتهافت للمدارس المختلفة على الفكر ومن هنا فقد رفض أن يكــون مؤسساً لأحد هذه المدارس. أدرك ليبنسج التأثير المعوق للعلاقات الأكاديميــة ومن ثم رفض قبول وظيفة الأستاذية فى الجامعة. لقد أراد أن يكـــون "حـــراً كالعصافير" حتى وإن أدى به ذلك إلى الوحدة والتضور جوعا. لقــد لاحــظ ليسنج أن أى فلسفة ، أو أى مذهب فكرى سيؤدى فقــط إلـــى قتـل قدرتــه الإبداعية ومن هنا فقد ترك الموضوعات تحدد طريقة المناقشة وليس العكس. والعقلانية بالنسبة له تعنى أداة للتحرر ومن ثم ينبغى إعادة بناءها باستمرار – وهى ليست صورة مجردة يتم فرضها بغض النظر عــن الملابســات. لقــد أعجب ليسنج ببعض الفلسفات كتفسير أرسطو للدراما مثلا ، ولكنه كان على إستعداد لتعديل هذه الفلسفات بل وحتى للتخلى عنها إذا عن له ما يدعو لذلك، كوجود مركب من المعالجات الدرامية الجديدة ، التى تكون من الحيوية بحيث تفرض عليه تغيير المعايير. وثمة إختلاف كبير بين رجل حر كهـــذا وبيــن الفئران البوبرية (نسبة إلى كارل بوبر) التى تقف على مسرح الفكر الألمانى والفرنسى ! يا له من بون شاسع بينهما فى الحريـــة ، والإبـــداع ، والقـــدرة والشخصية ! إن فلسفة ليسنج تمثل أسلوبا للحياة ، كمـــا يقـــدم مذهبـــه فـــى العقلانية أداة لتطوير الفكر والعواطف أيضا. كما تطور هذه الفلســـفة أيضــا الفكر ووسائل التعبير ، والمبادئ العامة والظروف الخاصـــة بينمـــا يقتصـــر البوبريون على ما يطلقون عليه فى سعادة كلمة "أفكار" ، وحتى فيما يختـــص بذلك كانوا مجرد أسرى لعدد قليل من الشعارات المضللة حول مفهوم العلـــم. وتمثل هذه المدرسة الفلسفية لوناً من أسوأ ألوان الأيدلوجيا المخدرة المســتبدة المغرقة فى ضيق الأفق والجهل. تنشأ المدارس الفلسفية عادة عندما تتســـلل الأفكار(الجديدة) إلى المسرح الأكاديمى – ولكن مؤسس المدرسة التى نتحدث عنها ليس بعيدا تماما عن اللوم. أنظر فقط إلى الطريقة التى يصف بها بوبـــر أصوله الفكرية: فها هو مفكر شاب يعيش فى فيينا متـــأملا المنــــاخ الفكـــرى السائد. ثم يتعرف على الماركسية ، ومذهب فرويد ، ونظرية النسبية . لقـــد كانت كلها نظريات مؤثرة ، ولكنه لاحظ اختلافا غريبا بينها. لقــد لاحـــظ أن

النظرية الماركسية و نظرية التحليل النفسى تبدو قادرة على تفسير أى واقعة فى مجالها. أما نظرية النسبية ، على الجانب الآخر ، فقد تم تركيبها بطريقة تسمح لوقائع معينه بتفنيدها. وأدرك الشاب كارل أن الاختلاف بين العلم واللاعلم يكمن فى هذه الواقعة: فالعلم حدسى ممكن تكذيبه ، أما اللاعلم فلا يمكن تكذيبه. هل أنا مصيب حتى الآن ؟

س : نعم – ولكنى أود لو أنك ابتعدت عن السخرية. فتلك اكتشافات هامة.

ص : سنعرف بعد هنيهة هل هى اكتشافات أم لا ، وما إذا كانت هامة أم لا. لنبدأ أولا بعدم وجود "تحليل نفسى" Psychoanalysis بالصورة المشوهة التى يصفها كارل بوبر. لقد بدأ فرويد عملية البحث بمفرده. وكانت لديه أفكار معينة قام بتطويرها ، واختبارها ، وتغييرها. وتعد نظرية فرويد وبروير Breuer المرحلة المبكرة لهذا التطوير. وتعزى حالات الهيستريا وفقا لهذه النظرية إلى وقوع صدمات فى حياة المريض يمكن علاجها بمساعدته على تذكرها. ولم يكتب البقاء لهذه النظرية لأن فرويد اكتشف أن تذكر الصدمات لا يكفى للعلاج كما اكتشف أن العلاج المزعوم يستبدل فقط بعض الأعراض بأعراض أخرى مختلفة. وهنا غير فرويد نظريته مرة أخرى. ومن هنا بدأ تلاميذه ومساعدوه فى انتقاده. وقد نشأ عن ذلك علم نفس الفرد وعلم النفس عند يونج Jung. أما نظرية النسبية فلم يترتب عليها أبدا مثل هذه الوفرة فى الآراء وذلك الكم الهائل من النقد. بل حدث عكس ذلك تماما، فعندما قابلت نظرية النسبية الخاصة أول الصعوبات لم يكن أينشتين سعيدا بذلك. وراح يؤكد على أن النظرية بسيطة ، وأنه يراها معقولة ، ولن يتخلى عنها. ثم سخر من أولئك الذين تأثروا بعملية "التحقق من الآثار البسيطة" ، حيث كان يطلق هذا الاسم الساخر على إجراءات الاختبار. وهكذا ترى أن تفسير بوبر للحدث التاريخى لم يكن متعمقا بل هو تفسير غير صحيح حتى على المستوى السطحى ...

س : ولكن هذا كان فقط الدافع ....

ص : لا تثق أبدا فى شخص تبين دوافعه أنه لا يعرف عما يتحدث.

س : يجب أن تكون حججك أقوى من هذا اللغو! إذ يتعين عليك أن تثبت أن النظرية التى وصفها بوبر فى نهاية الأمر لم تكن دقيقة شأن دوافعه.

ص : هذا أمر يسير ! إن بوبر يزعم أنه حل مشكله هيوم.

س : نعم لقد حلها.

ص : ربما يكون حلها ، وربما لا يكون. على أية حال فإن إروين شرودنجر Erwin Schrodinger الذى أراد بوبر أن يهدى إليه الطبعة الإنجليزية من كتابه "منطق الكشف العلمى" ، قال أنه لم يحلها.

س : كيف عرفت ذلك ؟

ص : تناولت طعام الغذاء مرة مع شرودنجر وكان معه كتاب بوبر: فأشار إليه وأنفجر قائلا: "من يظن بوبر نفسه ؟ إنه يزعم إنه حل مشكلة هيوم. إنه لم يفعل شيئا من هذا القبيل. ويريد الآن إهدائى كتابه !

س : حسنا ، ليس العلماء أفضل من يحكم على الأعمال الفلسفية !

ص : أوافقك – ولكن عندما يؤيد هؤلاء العلماء بوبر يصيح أنصاره: انظروا كم عدد الحاصلين على جائزة نوبل الذين يمدحون زعيمنا! وعلى الرغم من هذا ، فليس بالأمر الهام إذا كان بوبر قد نجح فى حل مشكله هيوم. فحل مشكلة هيوم لا علاقة له بفهم الطريقة التى يعمل بها العلم.

س : ليس له علاقة ؟

ص : ليس له أدنى علاقة بذلك. إن مشكلة هيوم تنشأ عن موقف فلسفى خاص. لقد بدأ العلم قبل هيوم بفترة طويلة ، ولم يتراجع بسبب عدم حل مشكلة هيوم وتطور بصورة مستقلة عن الاقتراحات المختلفة المتعددة نحو حل تلك المشكلة. ونستطيع أن نفهم بسهولة السبب فى ذلك. تتلخص مشكلة هيوم فى كيفية تبرير قضية عامة على أساس عدد محدود من الشواهد الجزئية لهذه القضية. ويجب أن يأتى التبرير فى صورة إجراءات تتبع قواعد يمكن توضيحها بالتفصيل. وقد استخدم هيوم هذه القواعد عند صياغة مشكلته. بيد أن مفهوم "التبرير" فى الاستخدام اليومى وفى الأجزاء الهامة من العلم لا يتمتع بهذه الخاصية، فنحن لا نحدد سمات شخص معين بجمع

الشواهد عن سلوكه أو باستخدام قواعد معينة للوصول إلى حكم عام عنـــه ، وإنما نحن "نستشعر" طريقنا نحو ذلك ، ولا مناص لنا من ذلك ، لأن صفات أى شخص نادراً ما تتبدى لنا فى صورة واضحة لا لبس فيها. فعلــى سـبيل المثال، قد تكون لدينا أسباب (وكلمة أسباب لا تعنى شواهد فى هذا السياق) للاعتقاد بأن شخصا ما لطيفا مهذبا ، ولكن هذا الشخص يبدو في مناســبات أخرى قاسيا لا يرحم ، ربما فى هذه الحالة نتجاهل هذه المناسبات ونفترض ، دون اللجوء إلى شواهد إضافية ، أن هذه المناسبات مضللة ولا تقدم لنا تفسيرا حقيقيا صادقا لذلك الشخص ، ومن هنا فقد نستبعدها قائلين ، دون الاسـتعانة بشواهد أيضا ، أن خشونة وقسوة ذلك الشخص يمكن تبريرها ومن ثم فهــى ليست بالقسوة الحقيقية.

س : كل هذا الحديـث ينتمــى إلــى سـياق الكشــف The Context of Discovery ونحن جميعا نعرف أن هذا السياق ملئ فعلا بالأحداث الغريبة.

ص : حسنا – عليك إذن أن تعترف بـــأن مـــا تطلـق عليــه اسـم سـياق التبرير The Context of Justification – أى الموقف الذى تتوفر لديــك فيه شواهد واضحة ومعززة بدرجة عالية وتعميمات واضحة ، ثم تسأل كيف ترتبط الواحدة بالأخرى – ليس إلا أمراً مثاليا لا يتحقق أبداً أثناء الممارســة الفعلية ، على الأقل فى تلك الأجزاء من العلم التى يشغف بها بوبر – أعنــى مجال النظريات العامة المجردة . فأثناء الممارسة الفعلية يكون لدينـــا دائمــا نظرية معينة ، وغالبا ما تأتى مصاغة فى مصطلحات غامضة(تأمل نظرية بور الأولى فى الكوانتم !) ، أو يكون لدينا شواهد غير محددة تقبل تفسيرات عديدة وأحكام تبين لنا ما له مصداقية وما ليس له مصداقية منها ، ومن ثـــم نقبل النظرية على أساسها. إن المشكلة " الهيومية " الخالصة أمر لا وجود له ، ومن هنا فحل هذه المشكلة لا يقدم لنا الكثير نحو فهمنا للعلــم. وتتلخــص مشكلة هيوم كما يبينها المثال الآتى فى كيفية تبرير القـــول "كــل الغربــان سوداء" من خلال عدد معين محدود (ع) من الغربان الســوداء. إن المشــكل التى تواجه العلماء هى كيف نحكم على القضية كل الغرباء سوداء ، إذا كــان

لدينا عدد معين (ع) من الطيور ، معظمها غربان بلا لبس أو غموض ، ولكن بعضها مثير للشكوك ، فعلى الرغم من مظهرها الذى ينم عن انتمائها لفئة الغربان إلا أن بعضا من هذه الغربان أو ما يشبه الغربان ذو لون رمادى وبعضها أسود ، بل بعضها أبيض والبعض الآخر لا يمكن تحديد لونه.

س : القضية واضحة ، إذا كان لدينا غربان بيضاء ، فالقضية "كل الغربان سوداء" كاذبة.

ص : تلك هى طريقة الفلاسفة فى البرهنة. ولكنها ليست طريقة العلماء. فقد تتلاءم القضية "كل الغربان سوداء"، مع نسق يتسم بالتناسق والجمال ومن ثم قد يستبقيها العالم ويطورها ، على الرغم من وجود غربان بيضاء بالفعل.

س : لا يوجد من العلماء من يفعل ذلك !

ص : بل فعل أينشتين عين ذلك عندما صادفت نظريته صعوبات معينة – إذ يتعين عليك أن تكون صارما ، والا لن تحتفظ بأى نظرية ! وهكذا ترى فإن نظرية هيوم تقع أحداثها فى عالم خيالى لا علاقة له بحقائق العلم ، وينطبق نفس الأمر أيضا على قواعد كانط الأخلاقية ، تلك القواعد التى خلقت عالما خياليا قاسيا يختلف تماماً عن عالمنا الذى تمتزج فيه الأمانة بالشفقة.

س : وماذا يبقى لنا من فلسفة العلم إذا تبنينا مثل هذا الاتجاه ؟

ص : ستذروها الرياح ليحل محلها علم آخر أكثر دقة وتعقيداً من الناحية التاريخية والفلسفية بحيث يستطيع أن يتقوم بذاته. ولكن الموقف الآن مختلف تماما للأسف ، على الرغم من وجود علامات تبعث على الأمل هنا وهناك. فما بين أيدينا اليوم هو علم بعيد عن الدقة الفلسفية يصبو إلى احتلال المكانة التى كان يحتلها الدين واللاهوت من قبل ، وفلسفة هابطة تمتدح العلم ويمدحها العلماء بدورهم ، ودين جبان رعديد لم يعد يشكل وجهة نظر عالمية، بل تحول إلى لعبة اجتماعية ولون من ألوان الفنون ليس أمامه سوى الصياح قائلا "اللعنة على الواقع" ، وأضحى مقتصرا على الحركات السامية المتعالية للفنانين حتى وإن كان تأثيرها الفعلى منحطاً ومتدنيا.

س : أرجو منك أن نمضى في حوارنا بصورة منظمة ! فأنت لديك قدرة عظيمة على الاحتفاظ بخمسين فكرة مختلفة معلقة وقائمة فى نفس الوقت ، أما أنا فلا أستطيع معالجة أكثر من مشكلة واحدة فى نفس الوقت ...

ص : تلك هى مشكلتك ومشكلة أقرانك المنطقيين ! فأنتم لا تستطيعوا فهم الأمور إلا إذا تم عرضها فى ترتيب معين ، وحبذا لو جاءتكم مرتبة فى خط مستقيم ، بحيث تحتفظ العناصر بخصائصها خلال الحوار. ولكن ماذا يحدث إذا صيغ الموضوع بصورة مختلفة؟ لنأخذ الموسيقى كمثال. تتابع النغمات الموسيقية فى ترتيب معين ، ولكن كثيرا ما لا يكون تكرارها كاملا ، وكثيرا ما تحتاج إلى مهارة كبيرة لإدراك التنويعات المختلفة للنغمة الواحدة ، ويجب أيضا أن تتنبه عند سماعك لها إلى أمور عديدة فى نفس الوقت . استمع إلى أى سيمفونية لتدرك مغزى ما أقول! يظن البعض ، كأتباع يونج مثلا ، أن أحداث عالمنا تتركب بنفس الطريقة التى تتركب بها النغمات الموسيقية. فإذا كان تصورهم صحيحا فسوف يكون وضع من على شاكلتك من الذين يستطيعون فقط التعامل مع فكرة واحدة تليها فكرة أخرى ، سيئا وعليكم أن تتعلموا التفكير بطريقة جديدة. والآن ، فأنت على الأقل أمين مع نفسك وتقر بنوع من النقص ، وتطلب منى ترتيب الحوار بطريقة تسمح لك بالمشاركة ، على الرغم من عيوبك...

س : لم أكن أقصد ذلك ...

ص : ولكنك تفهم قصدى ، أليس كذلك ؟ فأنت تطلب منى الآن أن أكيف النقاش وفقا لقدراتك ، وهو مطلب مشروع بالطبع. بل هو أوضح ما يمكن طلبه. إن كل الخطباء بدءاً من جورجياس وحتى الرئيس "ماو" Mao ينصحون المتحدث أن يضع فى حسبانه المستمعين وأن يعرض أفكاره فى صورة مفهومه. أما رفاقك المناطقة فيعزفون لحنا مختلفاً. فهم مثلك لا يفهمون إلا أقل القليل. ولكنهم بدلاً من أن يحاولوا الفهم تجدهم يؤكدون أن ما يفهمونه هو فقط ما يمكن فهمه. ولسبب ما نجحوا فى إقناع معظم الناس بصواب رأيهم وترتب على ذلك أن أصبح لدينا جمهور يعلم الآخرين بلا

رؤية أو إستبصار وبطريقة بارعة أن يكونوا على شاكلتهم بلا بصيرة. دعنا نعود إلى موضوعنا الأساسى. ماذا كان موضوعنا الأساسى ؟

س : أنظر ، إنك لا تستطيع حتى أن تجرى محادثة مع نفسك ما لم يساعدك أحد لتعود إلى نقطة البداية ...

ص : كلا ، كلا أنتظر برهة ، تذكرت الآن ، لقد قلت لك أن العلم والاكتشافات العلمية تبدو هامة لنا لأن الآخرين وضعونا فى حالة تجعلنا لا نملك معها إلا أن نعتبرها هامة ، لأنها...

س : توقف ها هنا ، فهنا يأتى اعتراضى الأول : فأنا لا أعتقد أن الانبهار بسير الإنسان فوق سطح القمر تشريطا أو تأثيراً...

ص : إنك لعلى خطأ كبير ! هل تستطيع أن تتخيل أحد الأنبياء أو الرواد من النصارى الأوائل يتأثر برجلين يسيران على سطح القمر الأجرد فى الوقت الذى يستطيع فيه أن يتحدث مع الخالق ذاته؟ أو تأمل حال الغنوصيين أو السحرة ، أو الحاخام عقيبة **Rabbi Akiba** فقد استطاعوا أن يأمروا أرواحهم أن تغادر أبدانهم وترتقى من مكان إلى آخر تاركة القمر وبقية العالم وراءها ، حتى انتهت إلى رحاب الله بجلاله وبهاءه. إن مثل هؤلاء الناس كانوا ليسخروا من مثل هذا العمل الغريب الذى يضم عدداً هائلا من الآلات ، وآلافا مؤلفة من المساعدين ، والعديد من السنوات المتصلة فى الإعداد لتنفيذ العمل – ثم ماذا كانت النتيجة ؟ خطوات خرقاء مرتبكة على سطح مكان لا يرغب إنسان عاقل فى رؤيته عن قرب...

س : كف عن هذا بحق السماء!! هل تريد حقا أن تقارن هذيان قلة من مجاذيب ومهاوييس العهد الغابر بإنجازات العلم الحديث ؟

ص : يا للغرابة! لقد قدمت نفسك إلى فى البداية كمفكر عقلانى يرغب فى الحوار والآن حين أعرض لك بعض حيثيات الحوار ، تلجأ إلى الرفض.

س : لأنك تصر على صياغة قضايا ساخرة. فهل تريدنى أن أصدق أنك تأخذ النظريات التى تتحدث عنها مأخذ الجد ؟

ص : هذا ليس بالأمر الهام. وإنما الهام هو هل نحن حقا انبهرنا بما حدث أم أن هذه الأحداث مبهرة فى ذاتها إن صح التعبير ؟

س : نعم هذا هو لب الموضوع.

ص : سأقدم لك الآن أمثلة لأفراد لا تبهرهم مثل هذه الأحداث الفضائية.

س : وماذا فى ذلك ؟

ص : ألا ترى ما أعنى ؟ إذا كان ثمة شئ مبهر فى ذاته لتأثر به الناس جميعا ...

س : اللهم إلا إذا كان شخصا متحيزا أو فاقد البصيرة...

ص : وهل كان المسيحيون القدامى فاقدى البصيرة أو متحيزين ؟

س : لا يمكن أن نقول أنهم كانوا موضوعيين.

ص : ماذا تعنى بكلمة "موضوعى".

س : شخص متفتح الذهن.

ص : آه. الآن أجبنى ، هل أنت شخص متفتح الذهن ؟

س : نعم ، إلى حد معقول.

ص : ألا يعنى تفتح الذهن استعداد الشخص المتفتح لاختبار مزايا وعيوب وجهات النظر المختلفة مهما بدت له غريبة لأول وهلة ؟

س : نعم. ولكن ذلك لا يعنى معارضة الوقائع المثبتة جيدا بروايات خيالية غريبة ، أو محاولة الحصول على بعض المزايا من الخلافات المترتبة على المواجهة. فعندما قلت لك أن رحلات الفضاء لها تأثير فلم أكن أعنى أنها تؤثر فى أى أحمق يسمع بها ، وإنما أعنى أنها تؤثر فى أولئك الذين لهم حد أدنى من التعليم ، وأولئك الذين لديهم أساس عقلانى للحكم على المشكلات والإنجازات المرتبطة بها. لماذا ، لأننا إذا توسعنا فى قبول حججك فقد ننكر أيضا مغزى رحلات الفضاء لمجرد أن كل كلب تافه على وجه الأرض استمر فى عمله كالمعتاد دون تغيير...

ص : وعندما تقول أن العقلانية تعنى أن رحلات الفضاء مؤثرة فإنك تفترض أن رواد الفضاء وصلوا فعلا إلى القمر.

س : بالطبع.

ص : بينما تشك فى انتقال أى شخص إلى ما بعد القمر فى صعود روحـــى إلى الله.

س : نعم

ص : ولديك ، بالطبع ، أسباب وجيهة تدعوك لتصديق الحدث الأول والشـــك فى الثانى.

س : نعم لدى أفضل الأسباب ! فقد شاهد آلاف الناس الصاروخ ينطلق إلـــى أعلى ، كما شاهد الملايين الحدث على شاشات التلفزيون ، وتابعت المحطات الأرضية الصاروخ بعد أن اختفى عن الأنظار. واستمرت المحادثات مع رواد الفضاء...

ص : أو ماذا بخصوص شكوكك فى حقيقة الصعود الروحى ؟

س : تسألنى لماذا ؟ لأنك تعلم كما أعلم أن مثل هذا الأمر مستحيل.

ص : ربما تعرف أنت ذلك ، أما أنا فلا أعرف ، لذا أرجو منك شرح الأمر.

س (مستسلما) : أرى أنك تريد العودة إلى دعاباتك المفضلة. حسنا ، دعنـــا ننتهى من الأمر. تفترض هذه الروايات ، كما تزعـــم ، أن الـــروح تغـــادر الأرض وتصعد من مجال إلى مجال حتى تلتقى مع الله ؟ أليس هذا ما تعنى؟

ص : نعم. يذكر كتاب إينوخ Enoch ثمانية مجـــالات (عوالـــم) ، بينمـــا يذهب الحاخام عقيبه إلى أنها ثلاثة عوالم ، وهكذا فهناك روايات مختلفـــة ، غير أنها تفترض جميعا وجود سلسلة من العوالم.

س (بصيحة انتصار ، وبشىء من الارتباك) : تلك هى المسألة ؟

ص : ماذا ؟

س : لا توجد مجالات أو عوالم !

ص : صمت.

س : والآن هل نجحنا على الأقل فى الانتهاء من جزء من نقاشنا ؟

ص : هل سمعت عن سرعات الانفلات (الهـــروب) الصغـرى Escape velocities ?

س : نعم.

ص : إن سرعة الانفلات هى السرعة التى يتطلبها جسم معين للهروب مـن قوة جاذبية جسم آخر لكى يبتعد عنه فى مســار قطـع متكـافئ Paraolic trajectory . هل سمعت عن حد روتشى ? Roche's boundary

س : كلا.

ص : حد روتشى هو المسافة التى يمكن لكوكب معين أن يقترب فيهـا مـن كوب آخر دون أن ينفجر إلى شظايا صغيرة أو أن يدمر الكوكب الآخر.

س : وماذا فى ذلك ؟

ص : يوجد لدينا نمطان من (المجالات) حول كل جـرم سـماوى ، يقـع المجال الأول فى الفضاء العادى ، والثانى فى الفضاء الخاص بكمية التحرك Momentum space وهما يمثلان المجالات الموجودة فى روايتنا.

س : ولكنى أشك كثيرا فى أن مؤلفى هذه الروايات ، أيا ما كانت أسماؤهم ، كان فى ذهنهم مثل هذا التفسير.

ص : هل كان كوبرنيقس يعرف نظرية النسبية ؟

س : ماذا تريد أن تقول الآن ؟

ص : حسنا ، أجبنى – هل عرف كوبرنيقس النسبية ؟

س : هل تقصد نظرية أينشتين فى النسبية ، أم تقصد الفكرة الأكثر عموميـ عن نسبية الحركة ؟

ص : أقصد نظرية أينشتين.

س : حسنا ، الإجابة واضحة ، لم يعرف كوبرنيقس نظريـة أنيشـتين فـ الجاذبية.

ص : إذن ، فكل ما قاله لم يكن يقصده بالطريقة الأينشـتينية.

س : كلا. لم يقصد ذلك.

ص : والآن أجبنى – هل نظرية كوبرنيقس صحيحة ؟

س : ليست صحيحة فى مجملها. فقد افترض كوبرنيقس مجالا سماويا – وكان مخطئا فى ذلك. لكنه كان على صواب عندما قال إن الكواكب تدور حول الشمس ولكن الشمس لا تدور حول أي من الكواكب.

ص : ولكن طبقا للنظرية العامة فى النسبية لا توجد أطر مرجعية مفضلة. فأى وصف يكون صحيحا شأنه فى ذلك شأن أى وصف آخر ومن هنا يأتى خطأ كوبرنيقس.

س : هذا تبسيط ساذج ومخل بعض الشيء ، لا يوجد فضاء مطلق ، بالطبع. ولكن النظام الذى تستقر فيه الشمس (أى الذى تكون فيه الشمس فى موضع سكون) يكون أكثر جمودا من أى نظام آخر تكون فيه الكواكب فى موضع سكون ومن هذا المنطلق يختلف عن النظام الأول.

ص : إذن ، فعند القول بأن كوبرنيقس " كان محقا فى القول بأن الكواكب تدور حول الشمس ولكن الشمس لا تدور حول أيا من الكواكب " ، فأنت تضفى على الكلمات السابقة التفسير الذى شرحته الآن.

س : نعم.

ص : وهذا التفسير ، كما تقول ، لم يقل به كوبرنيقس.

س : نعم لم يقل به.

ص : ولكنك مازلت تستخدمه لتفسير إنجازات كوبرنيقس للمستمع المعاصر.

س : ليس هذا فقط ، وإنما أحتاج إليه أيضا إذا أردت أن أستنبط نظرية كوبرنيقس من نظريات أينشتين كنوع من الترجيح.

ص : ألا تدرك أن ما تفعله مع كوبرنيقس هو عين ما أردت أنا أن أفعله مع "إينوخ" رغم اعتراضك.

س : ولدى أسباب وجيهة للاعتراض ! فروايات الصعود السماوى التى تبدو مغرما بها ليست بالنظريات العلمية...

ص : قبل ، أم بعد إعادة تفسيرها ؟

س : قبل ، وبعد إعادة التفسير ! فلا معنى لمحاولة تقديم محتوى وقائعى لرواية معينة إذا كانت الرواية ذاتها لا تقبل من حيث المبدأ أى محتوى وقائعى...

ص : وهذا يفترض عين ما نناقشه الآن : أى أنك تستخدم القضية المفحوصة كمقدمة فى برهان ...

س : كلا ، أنا لا أفعل ذلك ، وإنما أريد فقط إضافة التوضيح الآتى : لقد قصد كوبرنيقس أن تتعلق نظريته بأحداث فعلية ومن ثم تعبر رواياته من هذا المنظور على الأقل عن قضايا وقائعية ، أما رواياتك فلها وظيفة مختلفة تماما، وليس لها أدنى علاقة بالوقائع ، بل ربما لا ترقى أن تكون قضايا ، إنها أخيلة دينية ، أو قصص رمزية ...

ص : يبدو أنك تعرف الكثير عن أمور لم يسبق لك أبدا اختبارها ...

س : لست بحاجة إلى اختبار الأمر بالتفصيل ، فأنا أستطيع استخدام المماثلة والتناظر ، فأنا أعرف ، مثلا ، أن التراجيديا - مثل أجا ممنون Agamemnon - ليست تفسيرا تاريخيا للأحداث. فالتفسير التاريخى سلسلة من القضايا من المفترض أن تخبرنا بما وقع بالفعل. أما التراجيديا فتتضمن قضايا من نوع مختلف تماما. فهى تضم بين دفتيها الحركة ، والخلفية وغير ذلك ويكون غرضها ...

ص : أنت خبير فى الدراما أيضا ... ألست كذلك ؟

س : لست كذلك ، وليس ضروريا أن أكون كذلك ، فهذه أمور بديهية أولية...

ص : هذا هو عين ما قاله معارضو جاليليو عندما عارضوا نظريته فى الحركة: " هذه أمور أولية ، فنحن جميعا نعلم أننا سنسقط من على سطح الأرض إذا تحركت ..." الخ . إنك حقا مثل ساطع على مثل ذلك الاتجاه الذى كنت أتحدث عنه. إن لدى العلماء الكثير من البراهين التى تؤيد تميز العلم ولكن إذا نظرنا نظرة فاحصة فسنتبين أن العديد من براهينهم ليست سوى تأكيدات دوجماطيقية لأمور ليس لديهم بها أدنى معرفة.

س : أتمنى أن تكف عن مواعظك الأخلاقية وأن تقدم لى بدلا من ذلك اعتراضا حقيقيا. دعنى أحاول أن أصيغ السؤال بطريقة مختلفة: هل هناك أساطير أو روايات خيالية؟

ص : بالطبع هناك.

س : وهل هذه الروايات صادقة ، أم لا ؟

ص : هذا سؤال فى غاية الصعوبة ...

س : آه ، كف من فضلك عن ارتيابك فى كل شئ ! لا يمكن أن يستمر أى حوار إذا لم تسلم بافتراضات معينة.

ص : أوافقك ! ومستعد لقبول العديد من الأمور المسلم بها – ما عدا النقطة موضع نقاشنا !

س : ولكن هذا هو عين ما أتحدث عنه ! فنحن نعلم جميعا أن هناك بعض الروايات التى تقرر أحداثا تاريخية معينة ، أو أحداثا طبيعية وقصص أخرى تروى من أجل التسلية ، أو كجزء من طقوس خاصة ، ولا يكون لمثل هذه الروايات أى محتوى وقائعى. لقد حاولت أجيال من المفكرين أن تميز بوضوح بين هذين النوعين من الروايات والآن تحاول أن تتحدث كما لو لم يكن هناك مثل هذا التمييز !

ص : أنا لا أنكر وجود هذا التمييز على الرغم من قناعتى بأن مساوئه أكثر من حسناته. كل ما أريد قوله هو أنه من الصعب بيان ما إذا كانت رواية معينة كرواية "إينوخ" تنتمى إلى فئة دون أخرى. فكثيرا ما تختلط الفئات اختلاطا شديداً. فقد نعتقد أن رواية معينة صادقة تاريخيا لأننا اكتشفنا أنها مسلية وتثقيفية غير أننا قد نكتشف فيما بعد أنها لم تحدث أبدا. وتنتمى الكثير من القصص الأمريكية الجذابة ، أو الخاصة بتاريخ أى دولة أخرى ، إلى هذا إلى هذا النوع من الروايات. وقد نستخدم رواية نكون مقتنعين أنها لم تحدث على الاطلاق لكى نبرر موقفا أخلاقيا معينا ثم نتبين بعد ذلك أنها رواية صادقة . فقد أستخدمت عبر قرون عديدة روايات هوميروس التى وردت فىالالياذة والاوديسة Illiad and Odyssey كمصدر من مصادر الإلهام ،

أو لتفسير صفات البطولة الحقة ، ولم يشك أحد في كونها أكثر من مجرد رواية خيالية حتى إكتشف أحد الباحثين Schilmann أن بعض أحداث الالياذة صادق من الناحية التاريخية الفعلية. وقد تم الكشف مؤخرا فقط عن أن بعض الأعمال الفنية "البدائية" فى بعض مناطق نيومكيسكو ، وأريزونا ، وتكساس ، وكاليفورنيا يمكن إعتبارها تقارير حقيقية تصور إنفجار أحد النجوم وقد تم تسجيل نفس الحدث أيضا فى مملكة الشمس القديمة فى الصين. ويمكن قراءة مثل هذه الأحداث كتقارير وقائعية – وإن كان هذا لا يضعها ضمن فئة القضايا الصادقة وقائعيا – لأن الأعمال الفنية قد يكون لها ، بل من المرجح أن لها مغزى دينيا. وحتى النظريات العلمية الحديثة ليست "تقية" تماما. إن هذا الأمر يتبين لنا عند سماع محاضرة لأحد الحائزين على جائزة نوبل ، أو عند فحص برنامج مركز جامعة بيتسبرج لفلسفة العلوم Pittsburgh Center for the Philosophy of Science وهو المركز الذى يتحدث عن معادلات أينشتين بنفس الإجلال الذى يرفع به القساوسة الصلبان. كل هذه التصنيفات مصطنعة وليس لها فائدة من الناحية العملية. لنعود إلى مثال المسرح الذى ذكرته من قبل. من المعروف أن المخبرين السريين يعيدون تمثيل الجرائم للوصول إلى الحقيقة. وقد فعل **بيسكاتور**[١] Piscator فى برلين نفس الشيء على مستوى أوسع عندما أسس مسرحا نقديا يمكن استخدامه فى إختبار الملاحظات التاريخية والسيوسولوجية. وكان بريخت Brecht أيضا مهتما بالحقيقة ، وبزيادة قدرتنا على إكتشاف الأخطاء، وقد أدرك أن بعض الطرق التى يعرض بها ما يظنه الحقيقه تشل القدرة العقلية بينما تؤدى طرق أخرى مغايرة إلى زيادة قدراته النقدية. وينتمى التفسير النسقى المنظم الذى يوفق بين الاتجاهات المتباينة ويستخدم لغة قياسية واحدة إلى الفئة الأولى ، أما العرض الديالكتيكى الذى يضخم الاخطاء

---

[١] إروين بيسكاتور(١٨٩٣-١٩٦٦) أحد رواد المسرح السياسى الالمانى انتاجا واخراجا.المترجم.

ويسمح بوجود اللغات اللاقياسية المختلفة جنبا إلى جنب فينتمـى الـى الفئـه الثانية.

وهكذا ، فهناك طرق عديدة لصياغة أى قضية ، وكل هذه الطرق لها نفس المحتوى الوقائعى ، ولكنها تؤدى إلى إتجاهات متباينة غاية التباين فيمـا يختص بموضوع المحتوى. وربما تعترض على هذا الأمر. فقد تقول أن هذا يحدث فى المسرح فقط ، ولا يحدث فى مجال العلم: ولكنى أقول لك إن بعض الاعمال والمعالجـات ، كمعالجـة "كـاراثيودورى" Caratheodory فـى الديناميكا الحراية ، أو "فون نيومان" Von Neuman فى نظريـة الكوانتـم محايدة الاتجاه attitude neutral . ولا يوجد ما هو أبعد من الحقيقة من تلك المعالجات. أولا ، ينتمى فون نيومان إلى مايمكن أن نطلق عليه اسم الـتراث الاقليدى Euclidian tradition والذى يلجأ فى إستنباط نتائجه إلى مجموعة من الافتراضات الأساسية. وقد بين ارباد سزابو Arpad Szabo أن التراث الاقليدى بدأ مع بارمنيدس. فبارمنيدس يرى أن الأشياء ثابتة لا تتغير. ومن هنا فالتقدم الحقيقى لأى شئ لا يمكن أن يتمثل فى قصة تروى لنا كيفية نشأة الأشياء ، ولا يتمثـل فـى أسـطورة للخلـق (كأسـطورة هـيزيود ، أو انكسماندريس) ، ولا يمكن أن يتمثل فى مجال الرياضيات من خلال تفسـير الطريقة التى تتكون بها الكيانات الرياضية. إذ ينبغى أن يكون ذلـك تفسـيرا يصف الطبائع غير القابلة للتغيير والعلاقات الثابتة بين الطبـائع اللامتغـيرة. وقد تم التخلى عن المسلمة الأساسية لهذا التراث – وهى أن الأشياء لا تتغير – منذ زمن طويل. فقد أدركنا عدم وجود صور ثابتة ، أو أن قوانين الطبيعة غير قابله للتغير ، بل إننا نفترض الآن أن حتى الكون فى مجمله له تـاريخ ومن هنا لم يعد التراث الاقليدى مقبولا. ولكن هل غير هذا الأمر موقفنا مـن الرياضيات والفيزياء الرياضية ؟ كلا لم يحدث ذلك. ومعالجة فون نيومان ، التى لها أنصار كثيرين ، مازالت تعبر عن الأيدلوجيات القديمـة فـى هـذا الموضوع. بل إنها تعبر عن هذه الأيدلوجيات بصورة يصعب معها اكتشاف الأخطاء الأساسية أو تخيل البدائل. وقـد يقتـنع الشـخص ، كمـا اقتنـع

بارمنيدس ، بوجود طريقة واحدة مثالية لقول الأشياء ، وأنه قد توصل إليهما تقريبا: وأننا إذا سرنا خطوة واحدة ، أو خطوتين فى نفس الاتجاه ، فإن الحقيقة ستكشف عن نفسها.

ولكن تأمل الآن أحد مقالات بور Bohr . فعلى الرغم من أن مقالاته تعالج موضوعات عالية التعقيد ، إلا أنها مكتوبة بأسلوب غير تقليدى وغير مكتمل. وكتابات فون نيومان ، بالطبع ، غير مكتملة أيضا ، وهو يقر بذلك أحيانا ، ولكن هناك أجزاء تبدو محسومة بصفة نهائية ، وليست فى حاجة إلى المزيد من البحث. ولكن لا توجد مثل هذه الصياغات عند بور – فكل شئ عنده يقبل الشك كما تمتزج عنده الفلسفة بالعلم بصورة أزعجت أنصار النقاء الخالص من أمثال طومسون[1] Thomson. ورذفورد.[2] وهناك سلسلة من الافتراضات ، تلقى كل واحدة منها الضوء على جانب مختلف من المشكلة المبحوثة ، ولاتزعم أيا منها الكمال أو النهائية. وهذه الأمور كلها مقصودة. "فبور" كان يعلم أن تفكيرنا لا يتحقق دائما فى صورة مكتملة ، من هنا أراد أن يجعل الأمر واضحا ، ولم يحاول إخفاءه. كما أدرك أيضا أن كل حل ، وكل ما نطلق عليه "نتيجة " ما هو إلا مرحلة انتقالية فى سعينا نحو المعرفة. لقد تم خلق هذه الحلول من رحم هذا السعى ، كما أنها ستتلاشى فى النهاية بسببه . ومن هنا تأخذ مقالاته طابعا تاريخيا – فهى تقدم تقريرا عن سلسلة من الاكتشافات والأخطاء وتتقدم ببطء نحو الحالة الراهنة للأشياء ، كما لا تسير نحو أى شئ من قبيل "الحل النهائي". إن وصف

---

[1] سير جوزيف جون طومسون(١٨٥٦–١٩٤٠) عالم فيزياء بريطانى حصل على جائزة نوبل عام ١٩٠٦ لاكتشافه الالكيترون.

[2] ارنست روزفوردRutherford (١٨٧١–١٩٣٧)عالم فيزياء بريطانى ، أول من حلل نواة الذرة ، ويطلق عليه اسم أبو علم الذرة.

الإنجازات الماضية والنتائج الحالية ليس سوى أمرا مؤقتا وغير مكتمل لوصف المراحل التى أدت إليها.

والآن قارن بين أعمال بور وفون نيومان. ألا تجد أنهما يشبهان روايتين مختلفتين كتبتا عن أحداث ترتبط ببعضها ارتباطا ضعيفا ؟ وعلى الرغم من هذا فإن كليهما يعتبر إسهاما فى موضوع واحد – وهو ميكانيكا الكوانتم quantum mechanic . لقد كان لهذين العملين تأثير ملحوظ على ذلك التخصص ليس فقط بسبب الوقائع التى تضمناها ، وإنما أيضا بسبب أسلوبهما المميز. لقد كان أسلوب بور وأتباعه هو الذى أسبغ على نظرية الكوانتم القديمة طابعه الخاص وكان سببا فى الاكتشافات المتعددة ، والتراجعات الكثيرة ، والفروض الجريئة والملاحظات الصائبة التى واكبت تلك الفترة الزاهرة من فترات البحث العلمى. وقد برهن تلاميذ فون نيومان على الكثير من المبرهنات theorems التى لم يكن لها إلا أقل قدر من التطبيقات على الحالات العينية ، بينما ظل أتباع بور على اتصال دائم بالواقع الفيزيائى وإن فرض عليهم ذلك اللجوء إلى استخدام المصطلحات بطريقة حدسية غير دقيقة. إن كل هذا يعنى أن العناصر الجمالية أو "الدرامية" التى تفصل بين بور وفون نيومان ليست مجرد زخرفا خارجيا يجب علينا تجاهله، وإنما هى اختلافات جوهرية هامة لتطور العلم ذاته.

وإذا كان من الممكن رسم التمايزات التى ذكرتها ، فيجب أن يتم ذلك بطريقة مغايرة للطرق المألوفة ، ولتحقيق هدف مختلف. ولنتأمل موضوع التراجيديا ، الذى يبدو على الطرف الآخر المقابل من المنظور – فهى تبدو كذلك – ولكنها ليست فى الواقع كذلك. فالتراجيديا الفارسية كانت تعتبر بالنسبة لليونانيين بمثابة معالجة درامية تذكرهم بأحداث تاريخية هامة، وإن لم تكن الصياغة الدرامية هى الشكل الوحيد الذى صيغت فيه الأحداث التاريخية. فقد تحدث ارستوفان عن السياسة السائدة فى عصره ، بل وعن بعض الأشخاص المعاصرين له ، ولكن فى أسلوب يختلف كثيرا عن أسلوب

"اسيخليوس"[١] AESCHYLUS أنت تعلم أن أفلاطون اعترض على الشعر وأراد استبعاده من جمهوريته المثالية. ويكمن السبب في أن الشعر يقودنا بعيدا عن الحقيقة ، ويستثير المشاعر ، ويلوث الأفكار. غير أنه لم يستبعد وجود بعض الحجج التي تؤيد بقاءه ، وقد تحدى "أبطال التراجيديا" وهم أولئك "الذين يحبون الشعر ، ولكنهم ليسوا شعراء" ، أن يعبروا عن مرادهم نثرا. وقد قبل أرسطو التحدى. فهو يقول إن التراجيديا ذات طابع فلسفى أكثر منه تاريخى ، فهى لا تكتفى بتقديم تقرير عن الأحداث التى وقعت ، وإنما تفسر أيضا السبب فى وقوعها ومن ثم تكشف عن تركيب المؤسسات الاجتماعية. وينطبق هذا الوصف تماما على كتاب إسخليوس Orestia. فهذه الثلاثية تبين أن المؤسسات قد تشل القدرة على الحركة. فقد كان على اورستس Orestes أن يثأر لمقتل أبيه – ولم يكن بمقدوره تفادى هذا الالتزام. وكان عليه أن يقتل أمه لينفذ هذا الثأر. ولكن قتل الأم جريمة لا تقل فى بشاعتها عن الانتقام لمقتل الأب. ومن ثم اضطربت قدرته على التفكير والعمل – ولم يكن هناك من مخرج سوى تغيير الشروط التى تحدد ما ينبغى وما لا ينبغى عمله – وهو ما يتم اقتراحه فى نهاية الثلاثية. إذا لاحظنا صورة "الحجة" فسنجد سلسلة من الأفعال المحتملة ، يقود كل واحد منها إلى استحالة معينة. ومن هنا يتم توجيه انتباهنا إلى المبدأ الذى يقرر الحاجة إلى الأفعال ويعلن فى نفس الوقت استحالتها. وبعد أن يكشف لنا عن المبدأ ، يقترح بديلا له. مثل هذه الحجج نجدها عند أكسفوفان ونجدها أيضا فى صورة أكثر وضوحا ، عند زينون Zeno (فى مفارقات الحركة paradoxes of motion). فهى تعد أساسا لمجموعة من المفارقات النظرية الحديثة ، كمفارقة رسل Russell's paradox.

---

[١] اسخيليوس(٥٢٥-٤٥٦ق.م) من اوائل من كتبوا التراجيديا فى اليونان ، وقد كتب ما يربوا على ثمانين مسرحية ، وتدور معظم مسرحياته حول الصراع بين ارادة الفرد والقوة الالهية أهم أعماله أجا ممنون.(المترجم)

وهكذا قد نستطيع القول أن "الثلاثية" تجمع بين تفسير وقائعي للظروف الاجتماعية ونقدها وبين اقتراح البديل لها. ويرى أرسطو أن تلك "الثلاثية" تقدم ما هو أكثر من ذلك. لقد اعترض أفلاطون على الشعر بسبب إثارته للعواطف. ولكن أرسطو أشار إلى أن للعواطف وظيفة إيجابية: فهي تخفف من التوتر الذى يؤثر على الفكر الصافى (التطهر katharsis) كما تساعد العقل على تذكر بناء المسرحية ، وتساعده أيضا على تذكر محتواها الفلسفى(أى محتواها النظرى الوقائعى) وهو يستعين فى عمل ذلك بسرد قصة معينة ، وتقوم أحداث هذه القصة على جزء هام من التراث اليونانى ، بل وربما على تاريخهم ، والآن يا عزيزى ، كيف تستطيع وصف مثل هذا الكيان المعقد ؟ فمظهره الخارجي يوحى بانتمائه إلى مجال الفن (أو التمثيليات التاريخية) على الأقل وفقا للطريقة التى نصنف بها الفكر هذه الأيام. غير أن بنيته (تؤخذ أسماء الأفراد الآن كمتغيرات ، كما يقترح ليفى شتراوس) فتحتم علينا النظر إليه كقضية وقائعية يمتزج فيها النقد بتطبيق قواعد منطقية معقدة. لدينا الآن مركبا من التأثير الدرامي ، وإعادة تشخيص للتراث ، ومحتوى وقائعى ، ومنطق – وأنا أعنى بالمنطق فى هذا السياق *المنطق الصورى* وليس "المنطق العقيم الخاص بالأفكار الاستطيقية " الذى يرغب بعض الجهلاء الآن فى فرضه علينا. ويقدم التفسير التقليدى أوصافا زائفة لجانب واحد محدود من العمل الفنى الدرامى متجاهلا بقيه العمل. ولعل هذا هو السبب فى أن الأعمال الفنية التى يصفها علماء الجمال أو الفلاسفة تبدو تافهة عديمة القيمة مقارنة بالعمل الفنى الفعلى.

ولعلك الآن تعترض بأن أى محتوى وقائعى يتعلق بالموضوع لا يتم إقراره ، وإنما يتم التلميح عنه بطريقة ملتوية غير واضحة. غير أن مثل هذه "التلميحات" ليست نادرة الحدوث فى مجال العلم: ارجع فى ذلك إلى نموذج "بور" الذرى الموضوع عام ١٩١٣. هل يؤكد هذا النموذج أو "يقرر" أن ذرة الهيدروجين تتكون من نواة nucleus فى مركز المسار الدائرى للذرة الذى قد يغير فجأة من مساره حول المحيط الدائرى ؟ الإجابة لا ، لأن بور كان

يعلم تماما أن مثل هذه القضية ستكون كاذبة لأسباب نظرية وتجريبية. وعلى الرغم من هذا ، فالنموذج ليس خاليا من المحتوى الوقائعي. كيف يتم الحصول على هذا المحتوى الوقائعي ؟ يتم ذلك من خلال منهج تأويل معقد يتكون أساسا من تخمينات (ومن هنا لم يتم مطلقا شرحه بالتفصيل) أصبحت بعد ذلك تعرف باسم " مبدأ المطابقة ". وينطبق نفس الأمر على نموذج السائل المتساقط من نواة الذرة. بل ويشتمل حتى على عنصر القابلية للتكذيب falsifiability وعلى التكذيب falsificatin الذى تثيرون أيها "البوبريون" حوله الكثير من اللغط. وتكشف لنا "الثلاثية" ، فوق كل هذا ، عن صعوبات معينة وإن كانت تتغلب عليها بطرح "فرض" جديد، أى من خلال طريقة جديدة للتعايش. والمقدمات فى هذه الثلاثية ليست مكتوبة بنفس الوضوح الذى تكتب به أمثلة التكذيب فى الكتب القياسية ، ومن ثم ينبغي البحث عنها. غير أن هذا يجعل هذا العمل(Oresteia) أكثر شمولا من تلك الكتب القياسية. فهو يدلنا على كيفية العثور على المقدمات وكيفية تقويمها ، وأذكرك بأننى لا أقر ولو للحظة أن النزعة التكذيبية falsificationism أفضل من أى منهج يضمن استمرار الاستقرار والثبات – ولكن من الطريف أن نرى هذه النزعة قد تنقلب رأسا على عقب إذا تعلق الأمر "بعمل فني".

عندما نتأمل هذه الخاصية المعقدة للأساطير ، والتراجيديا ، كما وردت فى ملاحم هوميروس ، فقد نتساءل لماذا كانت هناك محاولة لخلق كيانات مجردة ، أو لخلق "معرفة" ، وأيضا لماذا كانت هناك محاولة لفصل الشعر عن هذه المعرفة. هذا السؤال هام جدا وأتمنى أن نعثر يوما على إجابة له. وقد تبدو الإجابة بسيطة فى إطارها العام. فنحن نعرف أن الفلاسفة حاولوا خلال أحد فترات التاريخ اليونانى أن يحلوا محل الشعراء كقادة سياسيين وفكريين. وقد أشار أفلاطون إلى هذه الحقبة حين تحدث عن "النزاع الطويل المستمر بين الفلسفة والشعر" "The long-lasting quarrel between philosophy and poetry". فقد كون الفلاسفة طبقة جديدة ، ذات أيدلوجيا جديدة مجردة ، وأرادوا أن يجعلوا هذه الأيدلوجيا أساسا للتعليم.

وهم لم يستخدموا الحجج ، وإنما استخدموا الأسطورة للتغلب على خصومهم. وقد أكدت هذه الأساطير على (أ) أن الشعر لون من ألوان الشر، (ب) ليس للشعر محتوى: أى ببساطة أن "حكماء" العصور الغابرة لم يقولوا أى شـــئ. ويعد هذا بالطبع تبسيطا مخلا للأمور ، غير أننى أعتقد أنه يعبر عن بعـــض خصائص ذلك التحول.

والسؤال الآن هو لماذا نجح الفلاسفة فى هذا الأمـــر ؟ مـــا الـــذى أعطاهم اليد العليا التى جعلت الشعر يبدو فى نهايـــة الأمـــر مجـــرد نزعـــة عاطفية، أو مذهب رمزى ، بغير محتوى وقائعى ؟ لا يمكن أن يكـــون ذلـــك راجعا إلى قوة حججهم ، لأن الشعر ، إذا فسر تفسيرا صحيحا ، يكشف عـــن تضمنه على حجج مماثلة لحجج الفلاسفة.

ويمكننا العثور على ملاحظات مشابهة لهذا الأمر تتعلق بنشأة العلـــم فى القرن السابع عشر. وقد كانت القوة الدافعة فى حالة العلم هى بزوغ فئات جديدة استبعدت من قبل فى مشوار السعى نحو تحصيل المعرفة ، غير أنهـــا نجحت فى تحويل ذلك النبذ إلى ميزة عندما أكدوا أنهـــم ، لا معـــارضيهم ، يمتلكون المعرفة. وأكرر مرة أخرى أن هذه الفكرة حظت بقبـــول الجميـــع ، سواء فى مجال الفنون ، أو العلوم ، أو الدين ، حتى أضحى لدينا الآن ديـــن بلا أنطولوجيا ، وفن بلا محتوى ، وعلم بلا معنى. لقد استطردت كثيرا فى الحديث ولكنى أردت أن أوضح لك أن التصنيف الذى ترتكن إليه وإن يكـــن يصلح فى وصف الأفكار الحديثة الجوفاء لصراع القوة القديـــم (كـــالقصص الخيالية الحديثة، من قبيل روايات أوسكار وايلد Oscar Wilde الخياليـــة ، والأساطير الحديثة ، من قبيل ماركسية القرن العشرين أو التنجيم ، أو العلوم الحديثة ، كعلم الاجتماع) غير أنه يفشـــل فـــى تقديـــم التفســـير الصحيـــح للمعارضين القدماء لصراع القوة المذكور (كالقصص الخيالية القديمة ، الخ) ولا للخصائص الحديثة التى مازالت تحمل أثرا من تعقيدات المادية القديمـــة (ومن أمثلتها العلم بالطريقة التى يمارسها بور، ويونج). أما مـــن الناحيـــة الأخلاقية : فلا يجب أن ننكر المحتوى الوقائعى الوقائعى لوجهة نظر معينـــة

لأنها تنتمي إلى فئة الروايات الأسطورية والدينية. وإذا اختبرت كل حالة من الحالات السابقة بعيدا عن الأهواء الشخصية ، فستصادف مفاجئات لاحصـر لها... ولكنك أصبحت أكثر ميلا للصمت والتأمل. يبدو أن سبب ذلك هو أننى نجحت أخيرا فى إقناعك !

س : لقد نجحت فى إقناعى بأن بعض الحجج التى استخدمتها لأبين لـك أن رواية "إينوخ" وما شابهها من روايات لا يمكن أن تكون ذات محتوى وقائعى حجج خاطئة ، غير أنى مازلت أعتقد أن شكوكي بصدد ذلك ليست بغير أساس. بل إننى فى واقع الأمر ، أعتقد أن لدى الآن حجة أقوى من حججى السابقة. فقد كنت من قبل مستعدا لأن أسلم بأن مخترعى تلك الروايات يمتلكون خيالا خصبا ، أو أنهم شعراء ملهمين ، ولكنهم كانوا عقلانيين ، وليسوا حفنة من المجانين. أما الآن ، وبعد تفسيرك الحرفى لهذه الروايات ومحاولتك إضفاء محتوى وقائعى امبريقى لها فيؤسفنى أن أقول لك أن أصحاب هذه الروايات لم يكونوا عقلاء. إذ ما الذى تقوله لنا مثل هذه الروايات ؟ إنها تتحدث عن أفعال الآلهة ، والشياطين ، وكائنات أخرى شاذة وعجيبة ، كما أنها تبدو على غير وعى بأبسط القوانين السببية ولكنها تخترع في نفس الوقت علاقات عجيبة كتلك التى بين طقوس الرقص تحت المطر وحالة الجو. كما يقحم أصحاب هذه الروايات الوحى الإلهى فى الأمر، بل ويفترضوا أن الناس تلجأ إلى هذا الوحى فى شئونها اليومية ، الخ وتتكرر مثل هذه الروايات حتى عند اليونان القدماء الذين كانوا بكل تأكيد من أكثر الشعوب عقلانية ، والذين كانت لهم عيون ترى وعقول تعى ما ترى. وأنا أميل إلى الافتراض القائل بأن رؤيتهم للعالم كانت تتطابق مع قدراتهم ، ومن هنا أفضل تأويل تلك الأساطير على أنها لون من ألوان الشعر. أما أنت فتبدو مؤمنا بالوحدة العقلانية للجنس البشرى كما أنك اعترضت أكثر من مرة على الفكرة القائلة بأن الناس أصبحوا عقلانيين فى العصر الهلينى فقط ، أعنى عندما أصبح العلم أكثر تقدما ، ويجب عليك أن تراجع قوة هذه الحجة.

ص : إن طريقتك فى الحوار غريبة حقا ، بيد أنى توقفت عن توقع أن يتصرف أحد "العقلانيين" بطريقة عقلانية.

س : ماذا تعنى ؟

ص : ألا تدرك ما أقصد ؟ حسنا ، دعنى أوضح لك الأمر بالتفصيل. أنت تريد أن تقنعنى أن روايات معينة من قبيل رواية "إينوخ" لا يمكن أن تكون ذات محتوى وقائعى ، فما الذى فعلته للدفاع عن رأيك؟ هل قمت بتحليل تلك الروايات بطريقة تفصيلية ؟ كلا. هل قدمت حجة على بطلانها ؟ كلا. ولكنك تتعرض للرواية بطريقة ساخرة تؤكد فيها أن المجانين فقط يفترضون صدقها. وأنا لا أندهش عندما أرى إجراءات مماثلة لموقفك فى "مدرسة لندن للاقتصاد" .London School of Economics ، فبعد ثلاثة أجيال من سيادة العقلانية النقدية في هذه المدرسة عادت لتتدهور وتنحل إلى مجرد بعض الطقوس القياسية. بيد أننى توسمت فيك شخصا أكثر معقولية ، وليس مجرد شخص يؤمن إيمانا أعمى بأقوال الآخرين – هل لابد لى أن أذكرك بأن ما تقوله لا يعد حجة ، وهل لابد لى أن أقول لك أن طريقتك فى الحوار هى نفس الطريقة التى عامل بها معارضو جاليليو الأقل منه موهبة نظرياته الفلكية ؟

س : إن مثال جاليليو ليس له ارتباط بما نناقشه. فقد أسس جاليليو علما جديدا ومن ثم ، فمن الطبيعى ، أن يكون في وضع أقل استقرارا من وضعنا الراهن. أما نحن فبين أيدينا مخزونا هائلا من المعرفة العلمية الدقيقة كما أننا نستطيع نقد وجهات النظر المختلفة من خلال مقارنتها بمخزون المعرفة المتاح لنا. هذا ما قصدته من قولى السابق والذى قد أكون ذكرته فى عجالة جعلتك لا تلاحظه ، وإذا كنت قد ذكرت هذا النقد البسيط ، فما الذى يمنعنى من أن أسخر من معارض أبله لا يعى وجهة نظرى ؟

ص : ربما لا يكون ما تطلق عليه "وجهة نظر" ، بالبساطة التى تظنها. فأنت تقول إننا نستطيع نقد الأساطير من خلال مقارنتها بمخزون المعرفة العلمية الدقيقة ، وأنا أعتبر قولك هذا يكافئ القول بأن كل أسطورة نريد نقدها تقابلها

نظرية أو مجموعة من النظريات العلمية عالية التأييد ، تنتمى إلى المخـزون العلمى وتتناقض مع الأسطورة المذكورة. وإذا نظرت الآن ببعـض التمعـن للأمر ستجد نفسك مضطرا للاعتراف بندرة وجود نظريات محددة تتعـارض مع بعض الأساطير الهامة. فأين هى تلك النظريـة التـى لا تتوافـق مـع الأسطورة القائلة بأن رقص استجلاب المطر rain-dance يجلـب المطـر بالفعل ؟ فهذه الأسطورة تتعارض بالطبع مع بعض الاعتقادات السائدة لـدى معظم العلماء ، غير أنه ، بقدر علمى ، لا توجد صياغة محددة فى أى نظرية يمكن أن تستخدم لاستبعادها. كل ما نجده شعور غامض قوى مؤداه أن رقص استجلاب المطر لن ينجح ولا مكان له فى مجال العلم. ولا أريد أن أذكـرك بأن ملاحظة فشل رقص استجلاب المطر هذه الأيـام ليـس حجـة كافيـة لاستبعاده. إذ يجب أن يتم هذا اللون من الرقص وفقا لإعداد خاص وفى ظل شروط مناسبة ، وينبغى أن تتضمن هذه الشروط وجود المؤسسـات القبليـة (نسبة إلى القبائل) القديمة والقناعات الفكرية الخاصة بها. وتوضـح نظريـة "الهوبى" بجلاء أن الإنسان فقد بانتهاء هذه المؤسسات (الخاصـة بالقبـائل) سيطرته على الطبيعة. وهكذا ترى أن رفض فكرة فعالية رقـص اسـتجلاب المطر لمجرد عدم نجاحها فى ظل الظروف السائدة الآن يشبه رفض قـانون القصور الذاتى لعدم مشاهدتك جسم يتحرك فى خط مستقيم بسرعة ثابتة.

لقد كان معارضو جاليليو فى وضع أفضل بكثير من الوضع السـابق الذى كنت أحثك عنه. فقد كانت لديهم نظريات جيدة الصياغة وليس مجـرد مشاعر غامضة تتعلق بما هو "علمى" وما هو "لاعلمى" ، كما كـانت لديهـم وقائع ونظريات اجتمعت لتكون "مخزونا من المعرفة العلمية الدقيقـة" مـن النمط الذى يروق لك ، ولم يكن هذا المخزون متسقا مع آراء جـاليليو. لقـد كانت اعتراضاتهم على نظريات جاليليو أقوى من اعتراضاتك على الأساطير التى وصلتنا إلينا. وعلى الرغم من ذلك فقد انهزم أولئك المعارضين .

وهكذا فأنت لا تفتقر فقط إلى المادة المناسبة لنقد أسـطورة رقـص استجلاب المطر ، وإنما لديك أيضا فكرة خاطئة عن الطريقة التى يجـب أن

تستخدم بها هذه المادة. هذا فضلا عن أن معارضى جاليليو كانوا على معرفة جيدة بنظرياته ، لقد كانوا خبراء فى علم الفلك ، هل يوجد بينكم يـــا معشـــر المفكرين العقلانيين من سبق له أن درس بنفس العناية الآراء التى يلعنها فـــى يسر وسهولة ؟ لقد أدركت الآن أن مجرد اللوم والتقريع لن يجدى معك فتيلا، فدعنى أقدم لك بعض الأمثلة التى يمكن أن تصادفها إذا اقتربت قليـــلا مـــن المجالاتالتى ترفضها الآن دون أدنى تفكير. خذ مثلا الفكرة القائلة أن ظهـــور المذنبات ينذر بوقوع الحروب. هى فكرة سخيفة فى نظرك – أليس كذلـــك ؟ بل فكرة غير متسقة ولا دليل عليها فى رأيك. يعبر مثل هذا الحكم عن تحيز واضح وبسيط . ولكن دعنا نفكر فى الأمر بشىء مـــن العنايـــة ! تعتـــبر المذنبات ظواهر جوية ، أو نوعا من النار فى طبقات الجو العليا. وإذا كـــان هذا الافتراض صادقا فإن المذنب يحمل معه بعضا من هذه النار إلى طبقات الجو العليا مما يؤدى إلى حركة جوية هائلة ، تتصاعد من أسفل إلى أعلـــى.

وقد تؤدى هذه الحركة إلى حدوث عواصف ، كما قد تؤدى إلى تعكير الجو فى فترة الغسق ، أو الفجر تبعا لموضع المذنب من الشمس. هل تذكر اليـــوم الذى غطت فيه النيران جبل تامالبايس Mount Tamalpais وبـــدت أوراق الأشجار وقتها داكنة اللون. تلك هى الظاهرة التى أحدثك عنها. وتؤدى حركة الجو ، وكميات النار الزائدة فيه إلى اضطراب مكوناته العادية كما تؤثر فـــى عمليات الأيض والتغيرات الكيميائية الحيوية لدى الإنسان والحيوان. بل يكون الحيوان أكثر حساسية من الإنسان فى هـــذا الأمـــر ، فالحيوانـــات تلاحـــظ التغيرات قبل ظهور المذنب بفترة طويلة ، كما تلاحظ أيضا الـــزلازل قبـــل وقوعها. وتزداد فى هذه الفترات فرصة وقوع الكوارث ، حيث تؤدى سخونة الهواء إلى ارتفاع درجة حرارة العقول ، ومن ثم تؤدى إلـــى تزايـــد عـــدد القرارات اللامسئولة التى يتخذها المسئولين فى مواقع السلطة وهـــذا يعنـــى: الحرب. والآن فمن المحتمل أن أربع أو خمس مذنبات من النـــوع المذكـــور جاءت مصحوبة بهذه الظواهر التى وصفتها لك. ولقد جمع كبـــلر فى واقـــع الأمر ، كمية كبيرة من المادة المتعلقة بهذا الموضوع ، ولاحـــظ مثـــل هـــذه

الارتباطات واستخدمها فى محاولته لبناء علم امبريقى للتنجيم. وهكذا تم تأييد الافتراض الأساسى الخاص بالمذنبات. وهو افتراض ممكن من الناحية النظرية أيضا ، فهو يتفق مع نظرية العناصر التى تقدم بدورها تفسيرا كيفيا للظواهر العينية الكبيرة. والآن دعنا ننظر فى الفكرة القائلة بأن العالم ملئ بالآلهة ، وأن الآلهة تتدخل فى ظواهر الطبيعة ، كما أنها تكشف أحيانا عن نفسها للإنسان. سوف تقول أن هذا لونا آخر من ألوان التفكير الخيالى ، بل وأضغاث أحلام. دعنا نرى ! – هل سبق أن تملكك الغضب ؟

س : كثيراً! خاصة ...

ص : لا تخبرنى. والآن أجبنى: كيف كانت خبرتك بهذا الغضب ؟

س : ماذا تعنى ؟

ص : حسنا ، هل كانت خبرتك به كشىء ينبثق من داخلك ، أم كشىء أقحم عليك من "الخارج" ، وأنا لا أعنى بتعبير "من الخارج" : أنه تسرب إليك من خارج بدنك. وإنما أعنى: هل شعرت كما لو كان الأمر قد انبعث من داخلك، أم شعرت كما لو أن شيئا غريبا عنك يحدث لك ؟

س : لا أعلم على وجه الحقيقة – فهذا أمر غريب ، لأننى كنت فى غاية الغضب ، وقد حدث مؤخراً...

ص : ها نحن أمام نظرية أخرى جميلة !

س : أى نظرية ؟

ص : النظرية القائلة بأن الغضب حدث ذهنى وأننا على صلة معرفية مباشرة بكل خصائص أى حدث ذهنى. هل سمعت عن " ظاهرة ذاتية العين الرمادية" subjective eye grey ؟

س : كلا.

ص : يمكن شرح هذه النظرية بالقول بأنك عندما تدلف إلى غرفة مظلمة تبدأ فى التعود على الظلام. وبعد أن تنجح فى نهاية الأمر فى التعود على الظلمة، لن تصبح دائرة الرؤية لديك مظلمة تماما ، وإنما ستصبح الرؤية رمادية داكنة تتمثل فى صورة اسطوانة ، يكون جسمك محورها الأساسى.

س : آه ، تذكرت الآن – لقد شاركت ذات مرة فى تجربة التكيف مع الظلام. وقد طلب مني أحد الأشخاص يومها أن أصف له ما شاهدته بعد أن تركونى فى الغرفة المظلمة لمدة نصف ساعة.

ص : وماذا رأيت ؟

س : بعض النقاط القليلة المضيئة هنا وهنـاك ، ولكنـى لـم أشـاهد أثـرا لاسطوانتك المزعومة. لقد أخبرونى ودربونى على توقع رؤية تلك الظاهرة. وكان التدريب غاية فى الطرافة. فقد كان المجرب يضع سلكا ساخنا ، وإن لم يكن ساخنا لدرجة الاحمرار أمام مجال الرؤية. وقد بدا السلك مائلا إلى اللون الأخضر الداكن – فقد كانت الطاقة المشتعلة أضعف من أن تبرز (تثـير) الاستجابة اللونية ، كما قيل لنا. ثم طلب منى أن أركز انتباهى فى ما يحيـط بيمين ويسار السلك. وقد لاحظت أن الوهج لا ينتهى عند نهاية السلك ، وإنما ينتشر فيما وراءه ، مرتدا إلى الخلفية كلما تباعدت المسافة عن السـلك. ثـم يتضاءل التيار بعد ذلك حتى لا يصبح السلك مرئيا. وعلى الرغم من هـذا ، فقد استمر التوهج مرئيا لى باستمرار بعد التكيف على الظلام. لقد بـدا لـى كسطح فيزيائى "ملموس" تماما مثلما تبدو لك السماء فى ليلة صيف صافيـة. وقد انتابنى شعور فضولى بأن هذه الظاهرة مستمرة طوال الوقت ، ولكننـى لم أشاهدها لسذاجتى. ويذكرنى ذلك الأمر بظاهرة "الصورة التلوية" ـــafter-image التى وإن كانت تمتزج برؤيتنا باستمرار إلا أنه يجب لفـت انتباهنـا إليها بطرق محددة.

ص : وصف رائع لسلسلة رائعة صادقة من الأحداث ! لقد بـدأت تجربتـك ببعض الانطباعات غير الواضحة ، ثم تم توجيهك بعد ذلك ، ومن ثم انتهيت إلى إدراك ظاهره تكاد تشبه إدراك أحد الأشياء الفيزيائية.

س : نعم ، ويذكرنى هذا الأمر بمناسبة أخرى حدث معى فيها شئ ممـاثل. فقد تمنيت منذ فتره طويلة أن أصبح عالما فى البيولوجيا ، وقد أشـترى لـى والدى ميكروسكوبا مرتفع الثمن وعندما نظرت فيه اعتقدت أننى خدعت. فقد كانت الصور التى أشاهدها فى كتب الأحياء واضحة جدا ، ولكنـى لـم أرى

شيئا من خلال المجهر يماثل بأى درجة من درجات الوضوح تلك الصـــور. وكان كل ما شاهدته خليطا من الخطوط والحركات ولم أكن متأكدا حتى مـــن أن ما أراه سببه حركات تحدث فى عيناى التى أجهدتها لأرى ما أريد رؤيته، أم بسبب وجود حركات موضوعية...

ص : هل تعرف أن تلك كانت نفس الطريقة التى وصف بهـــا الملاحظـــون الأوائل مشاهداتهم للسماء عندما نظروا فى التلسكوب لأول مرة ؟

س : لم أكن أعرف ذلك. فجاليليو لم يتحدث بهذا الأسلوب ، لا أتذكر علـــى الأقل ...

ص : نعم لم يفعل ذلك ، إذ لا يخبر كل شخص نفس الظاهرة تحـــت نفـــس الظروف. لقد شاهد جاليليو شيئا محددا ، وإن لم يكن أقل خداعا – ارجع فى ذلك إلى وصفه ورسمه للقمر، فى كتابه: Sidereus Nuncius

س : أمر مدهش – ما هى تلك الفجوات التى فى وسط القمر ؟

ص : هذا هو ما شاهده ، ووصفه ، ورسمه جاليليو. وأرجو ألا تندهـــش إذا سمعت أن ملاحظين آخرين رأوا شيئا مختلفا غاية الاختلاف ، وأن جـــاليليو عجز أن يقنع معارضيـــه بطريقـــة مباشـــرة بحقيقـــة كواكـــب جوبيتـــر Medicean planets ، وهو الاسم الذى أطلقه على أقمار جوبيتر Jupiter. وقد أشار عليهم بكيفية استخدام التلسكوب وبما سوف يشـــاهدونه ، غـــير أن نفرا قليلا منهم رأى ما قاله ، بل وحتى هؤلاء لم يقتنعوا بحقيقة الظاهرة التى شاهدوها. لقد تنبأ أرسطو بكل هذه المشكلات ولم يكن ليدهشه على الإطلاق غموض وغرابة طبعية الملاحظات التلسكوبية الأولى. فأرســـطو يـــرى أن صورة أى شئ تنتقل من خلال وسط معين إلى حواس الملاحظ. والشـــرط الأول للإحساس الصادق الواضح هو عدم وجود اضطراب أو خلل فى ذلـــك الوسط. كما أن الملاحظ يدرك الأشياء بطريقة صحيحة فقط فى ظل ظروف "عادية" محددة تتكيف الحواس فيها مع الأشياء. ولا تتوافـــر أيـــا مـــن هـــذه الشروط فى حالة الرؤية التلسكوبية. ومن هنا فقد كان للأرسطيين مـــبرراتهم فى رفض النظر فى التلسكوب وفى عدم أخذ ما شاهدوه من خلال التلسكوب

مأخذ الجد شأنهم فى ذلك شأن أى فيزيائى معاصر يرفض قبــول نتيجــة أى تجربة يتم إجراءها بأدوات غير معروفة. من النادر أن تذكر هذه الحقائق عند التفسير التاريخى لمثل هذه الأحداث. ومن النادر أيضا أن يســتخدم مؤرخــو العلم والفلسفة سيكولوجيا الإدراك الحسى فى أبحاثهم. ولكن استمر الآن مـــن فضلك فى روايتك التى توضح بعض المبادئ الهامة لهذا الموضـوع.

س : حسنا ، عندما لم أرى ما كنت أتوقع رؤيته (مــن خــلال التلســكوب)، شكوت ذلك لمدرس البيولوجيا. فهدأ من روعى بالقول بأن هـــذه الصعوبــة واجهت الجميع وأن على أن أتعلم كيف أرى. وقدم لى فـــى البدايــة بعــض الأشياء البسيطة لكى أنظر إليها ، من بين هذه الأشياء شــعرة ، وذرة مــن الرمل ، ثم قام بتدريبى على استخدام الدرجـــة الأدنـــى مــن التكبــير فـــى التلسكوب. ولم أجد صعوبة فى ذلك. ثم طلب منى أن أرفع من درجة التكبير وأن أظل ثابتا فى رؤيتى لنفس الأشياء. ولقد تملكتنى الدهشة تمامـــا حيــن رأيت الشعرة الصغيرة تبدو كحبل كونى ضخم يمتد عبر سماء هائلة الاتساع – ولكن هذا ما شاهدته على وجه الدقة. وهكذا انتقلنا بالتدريج إلـــى أشــياء أخرى أكثر تعقيدا. واليوم أصبحت أدرك ليس فقط صـــور أعقــد الكائنــات الحية، كما لو كانت تربطنى بها ألفة حميمة ، وإنما أصبحت عاجزا حتى عن رؤية الغموض الذى بدأت به عند استعمالى التلسكوب للمرة الأولى. إن كــل ما أشاهده من خلال التلسكوب الآن موضوعى تماما.

ص : دعنا نعود الآن إلى خبرتك عند الشعور بالغضب. لقــد وصفــت لنــا عمليتين من عمليات تعلم كيفية المشاهدة. وقد بدأت فى كلتــا الحــالتين مــن انطباع ذاتى غير مميز وانتهيت إلى ظواهر تقوم على أســاس موضوعـــى متين. وأنا أستخدم الآن كلمتى " ذاتى " و"موضوعى" لأصف لك كيف كانت تبدو الأشياء ، وليس كيف كانت الأشياء بالفعل. فالعين الرمادية الذاتية the subjective eye grey ، بدت كما تقول " كسطح فيزيائى أو كمـــا تبــدو السماء فى ليلة صيف صافية " ، على الرغم من أننا نتفق على عدم وجـــود

مثل هذا السطح. هل تعتقد أن شعورك بالغضب يمكن أن يتغير بطريقة مشابهة للطريقة السابقة ؟

س : أنا متأكد من ذلك. فنحن نقول ، إن شخصا ما "تملكه الغضب" ، أو "هزه الحزن" مما يدل على أن خبرة الغضب والحزن قد تم التعامل معها في وقت سابق بطريقة أكثر موضوعية مما تبدو عليه الآن.

ص : هل تندهش إذا قلت لك أن اليونان القدامى مرت عليهم خبرات الغضب وذكريات الأحلام كأنها أحداث موضوعية وقعت لهم ، وأحيانا ضد إراداتهم؟

س : كلا لا يدهشنى ذلك البتة.

ص : والآن ، دعنا نتقدم خطوة إلى الأمام . عندما نظرت أول مرة في الميكروسكوب ، هل كان لديك فكرة عما سوف تشاهد ؟

س : بكل تأكيد. فقد قرأت كتب الأحياء ذات الصور الخلابة التى تعج بأنواع عديدة من المخلوقات.

ص : وعلى الرغم من الوضوح الشديد لهذه الصور ، فإنك لم تشاهد ما يماثلها عندما نظرت فى الميكروسكوب .

س : نعم ، وقد سبب لى هذا الأمر إحباطا شديدا.

ص : ولكن بعد أن تم توجيهك ، تغيرت إنطباعاتك ، وأصبحت ثابتة وموضوعية.

س : نعم.

ص : لنفترض أنك نشأت فى هذه الحياة بمكيروسكوب موضوع على عينيك، فإن إنطباعاتك كانت ستصبح راسخة ثابتة منذ البداية ، على الأقل منذ قدرتك على التذكر.

س : أوافقك.

ص : دعنا الآن نتأمل آلهة هوميروس. هل لدينا أوصاف ، أو صور لها ؟

س : نعم – فالإلياذة والأوديسة حافلتان بأوصاف الآلهة ، كما أن صور وتماثيل الآلهة تمتلئ بها المتاحف.

ص : وهل هى صور وأوصاف واضحة ، محددة ؟

س : هى غريبة - ولكنها بالتأكيد واضحة ومحددة تماما.

ص : وعلى الرغم من ذلك فليس لدينا خبرة بأى شئ يماثلها.

س : هناك سبب وجيه لذلك: وهو أن الآلهة غير موجودة !

ص : كلا ، ليس بهذا التسرع يا صديقى ! عليك أن تتذكر ، فنحن نتحدث الآن عن ظواهر ، وليس عن الواقع. وتذكر وصفك للعين الذاتية الرمادية : "لقد بدت كسطح فيزيائى ملموس" على الرغم من أن الناس فى الغرف المغلقة لا يكونوا محاطين بأى نوع من الأسطح. وأنا أكرر: إن لدينا أوصافا واضحة متميزة للآلهة ، ولكن لا يوجد فى خبراتنا ما يماثل ولو بدرجة ضئيلة موضوعات هذه الأوصاف.

س : أظن أنى سأتفق معك.

ص : ولدينا فى مثال الصور الميكروسكوبية ومثال العين الرمادية الذاتية تعليمات تماثل تماما النوع الموصوف وهى تقود إلى خلق ظواهر جديدة. فنحن يمكننا تعلم رؤية العالم وفقا لهذه الأوصاف.

س : أنت تريد أن تقنعنى بأن هناك تعليمات أو إشارات قد تمكننا من أن تكون لنا خبرة بالظواهر الإلهية المقدسة.

ص : تماما – ولكن أذكرك مرة أخرى ، الموقف ليس بهذه البساطة. هل تتذكر التحذير الذى ذكرته لك عند الحديث عن رقص استجلاب المطر: فطقوس الرقص تنجح فقط عندما توجد فى البداية الظروف المناسبة. إذ ينبغى أن يكون هناك ارتباط قبلى مناسب ، مصحوبا بعد ذلك بالتوجه الصحيح. وينطبق نفس الأمر على حالتنا الراهنة. فقد يكون من الصعب ، أو ربما من المستحيل أن ترى الآلهة ، أو أن يكون لك خبرة بقوتها. فآلهة اليونان كانت قبلية (نسبة إلى القبيلة) ، كما كانت فى الآن عينه آلهة للطبيعة. وقد تحول الظروف الاجتماعية والتنشئة ، والروح العامة السائدة فى عصر من العصور دون فهمها ، ناهيك بالكشف عن خصائصها الأولية – وأين تلك "الطبيعة" التى تساعدك عندما تريد أن تدرك خصائصها الثانوية ؟

س : ألا يعد هذا الاعتراض دليلا حاسما على عدم وجودها ؟

ص : كلا ، على الإطلاق. فلكى ترى الأشياء الصحيحة يجب أن تكون لديك الأدوات الصحيحة. فأنت تحتاج إلى تلسكوب لترى المجرات البعيدة. أما رؤية الله فتحتاج إلى رجال تم إعدادهم إعدادا جيدا. وكما أن المجرات لا تختفى باختفاء التلسكوبات فالله لا يختفى إذا فقد الناس قدرتهم على التواصل معه. والقول بأن "الله قد مات" أو أن "الإله الأعظم قد مات " لمجرد أن الناس لم يعد لديها خبرة به ، يماثل فى سخافته القول بأن النيوترونات neutrons لم يعد لها وجود لأننا لا نمتلك المال لإعادة التجربة التى أجراها رينز. Reyene's experiment لأثبات وجودها.

س : ولكن لدينا دليل غير مباشر على وجود النيترون...

ص : لأن لدينا نظريات خاصة بذلك ، وأعنى بذلك نظريات عالية التعقيد! فأنت تبدأ كالمعتاد الحجة من النهاية الخاطئة. فأنت تقول : لا يوجد دليل مباشر أو غير مباشر يؤكد وجود الآلهة ، ومن هنا فلا ينبغى أن نضع أى نظريات عنها. ولكن من الواضح أننا نطلق على أى دليل وصف غير مباشر إذا كان يختص بنظرية معينة ، ومن ثم ينبغى أن تكون لدينا نظرية فى البداية لينطبق عليها هذا القول ، ويجب أن تكون هذه النظرية معقدة التركيب، وإلا لما تحدثنا عن أدلة غير مباشرة من الأساس. ويعنى هذا أننا يجب أن نشرع فى بناء نظرية معقدة قبل الحديث عن الأدلة غير المباشرة. وتعتمد الأدلة المباشرة ، على أدوات ، أو على ملاحظين أكفاء – ولكن كيف يتسنى لنا اختراع أدوات أو إعداد ملاحظين إذا لم تكن هناك نظرية توجهنا ؟ والآن نعود إلى كيف يمكن أن يكون للإنسان خبرة بوجود الآلهة. قد يكون من المستحيل عليك ، كما ذكرت ، أن ترى الله ، أو أن يكون لك خبرة بقوة تأثيره ، ولكن قد يكون ممكنا أن تفهم كيف أن من يعيشون فى ظروف ملاءمة صحيحة تكون لهم خبرات قوية بالحضور الإلهى. ولكن دعنى أبدأ بحديثك السابق عن الشعور بالغضب. فقد قلت إن كثيرا ما ينتابك الغضب بل والغضب الشديد ، ولكنك لا تعرف ما إذا كان ذلك الغضب أمر "موضوعيا" فرض نفسه عليك ضد إرادتك ، أم كان جزءاً من ذاتك.

س : أعتقد أننى يجب أن أصحح وصفى السابق ، فبعد طرحك السؤال بهذه الطريقة أصبحت الظواهر أكثر تحديدا.

ص : ماذا تعنى بذلك ؟ هل تغير غضبك: أم أن تذكرك للغضب قد تغير ؟

س : يبدو لى غضبى ، عند استعادته بطريقة إستبطانية ، كما لو كان أحد تلك الصور الغامضة التى تتراءى لك حينا فى صورة معينة ، ثم تتراءى بعد حين فى صورة أخرى. لقد تغير شئ ما – لا أدرى كنهه على وجه التحديد. وينطبق هذا الأمر ، فيما أعتقد ، على كافة الخبرات الأخرى. هل تعلم أنه مرت على فترة باءت فيها محاولاتى فى التعامل مع شئونى الخاصة بطريقة عقلانية بالفشل ، وسيطرت علي تعاملاتى انفعالات عاطفية ، أقصد نوع غريب من الانفعالات العاطفية...

ص : لا تقل لى أنك تصرفت بحماقة من أجل امرأة !

س : حدث ذلك أكثر من مرة. وليس لمدة عام واحد ، أو حتى عامين ، وإنما لقرابة خمس عشرة عاما...

ص : تبا لك ! مفكر عقلانى نقدى تجرجره العواطف ! لقد كنت دائما أقول: العقل عبد العواطف ...

س : ولكن الأمر ليس كذلك – هذا ما أردت أن أوضحه لك ! إن ما أدهشنى فى الشعور الذى يطلق عليه الناس اسم "الحب" افتقاده لأى رابطة عقلانية واضحة. فقد كانت هناك قوة قاهرة تسير أفعالى ، غير أن القيام بأى محاولة للإستبصار عن كيفية عمل هذه القوة ، أو للكشف عن كنهها يجعلها تغير من خصائصها بطريقة مدهشة دون أن تترك لى شيئا محددا أستطيع أن أفهمه ، أو أن أتعايش معه. وفى نهاية الأمر تملكنى الضيق ...

ص : أنا متيقن من ذلك !

س : ... وسألت نفسى هل هناك طريقة للقبض على ناصية الظواهر ، ومن ثم لتشكيلها ، وجعلها ثابتة وقابلة للفهم. وفكرت فى اللجوء للتحليل النفسى لأنى سمعت أنه يغير ليس فقط اتجاه الشخص نحو الظواهر الذهنية ، وإنما يغير أيضا الظواهر الذهنية ذاتها ، غير أن كل المحللين النفسيين الذين قابلتهم

كانوا أغبياء ، ومن هنا فقد تخليت عن الفكرة. ثم وقعت في يدى بالصدفة قصة من تأليف "هين"[1] Heine يصف فيها شعورا بدأ بجاذبية قوية تحولت إلى كراهية دون أن تفقد جاذبيتها ، وهنا أدركت أن هذا عين ما عرض لى من قبل. لقد غيرت قراءتى لذلك الوصف من خبرتى دون أن تغيرها فى الواقع. وفهمت ما حدث خلال تلك العلاقة التى حدثتك عنها. ثم قرأت بعد ذلك لشعراء آخرين : بيرون[2] Byron ، والذى كان "هين" معجبا به، وجريلبارذر Grillparzer، وجين بول Jean Paul ، وأوسكار وايلد Oscar Wilde ، إيذرا بوند[3] Ezra Pound ، وماريتتى[4] Marinetti ، وحتى جوته Goethe ، واكتشفت أنهم بمثابة أدلة حقيقية مجسدة من الأوصاف الفينومنيولوجية التى تصف ظواهر غريبة تحولت إلى ظواهر حقيقية بفضل تلك الأوصاف. وأعتقد أننى الآن أتفق مع قول بورن Borne بأن التاريخ لا قيمة له دون وجود المؤرخ الذى يعيد كتابة ما حدث ومن ثم *يصيغ الأحداث* ، ويعرفها ، حتى للمشاركين فى صنعها.

ص : هذا هو عين ما أفكر فيه. إن معظم أفكارنا ، ومشاعرنا ، وإدراكاتنا محددة بطريقة خاطئة لدرجة تدعو للدهشة. ونحن لا نلاحظ هذا الخطأ أو النقص فى التحديد بنفس الطريقة التى لا نلاحظ بها النقطة العمياء blind spot فى أعيننا: فكل شئ يبدو لنا فى غاية الوضوح. ولكن دع أى شخص يوجه لنا سؤالا غير عادى ، أو يقدم لنا تفسيرا غير مألوف لخبراته

---

[1] هنريش هين (١٧٩٧-١٨٥٦) من أشهر كتاب الأدب الالمانى.

[2] لورد بيرون (١٧٨٨-١٨٢٤) من أشهر الشعراء الرومانتيكيين الانجليز.

[3] ايذرا بوند (١٨٨٥-١٩٧٢) كاتب وشاعر أمريكى كانت حياته وأعماله مثارا لخلاف شديد.عاش متنقلا بين عواصم اوربا.عرف بعداءه للحكومة الامريكية التى القت القبض عليه وعوقب بتهمة الخيانة العظمى واودع السجن.(المترجم)

[4] فيليب مارنيتى (١٨٧٦-١٩٤٤) شاعر ومؤلف مسرحى ايطالى. ولد فى مصر. يعد رئدا للحركة المعروفة فى الفن باسم المستقبلية **Futurism** .(المترجم)

الشخصية، فسندرك عندها أن هذا الوضوح المزعوم ليس إلا انعكاسا للجهل والسطحية. وعلى الرغم من هذا فإن المادة غير المتبلورة المسماة بالوعى الخاص قادرة على التحسن والتطور ، إذ من الممكن وضعها فى صورة أكثر تحديدا من خلال الأسئلة ، والأوصاف ، والتفسيرات المنظمة ، والتعليم. وكما يبدأ النحات صنع تمثاله بقطعة لا شكل لها من الرخام ، ويظل يتعامل معها حتى يخرج لنا فى النهاية تمثالا رائعا جميلا ، فإن المعلم يبدأ بحالة ذهنية غير محددة لتلاميذه ثم يطبع عليها ما يظنه هاما من الأفكار والظواهر. فنحن نبدو كما لو كنا نتجول فى غابة ، وفجأة ينفرج الطريق أمامنا ، ونجد أنفسنا أعلى قمة جبل ، ناظرين إلى سهل فسيح. وهنا ينتابنا شعور بالرهبة.

ولا يكون هذا الشعور محددا تحديدا دقيقا ، وإنما يشبه حالة مزاجية عابرة. دعنا الآن نفترض أننا نشأنا نؤمن بوجود اله لم يخلق الكون فقط ، وإنما يكون أيضا حاضرا فيه ، لكى يحميه ، ويضمن استمراريته. إننا فى مثل هذه الحالة لا نستمر فى رؤية منظومة من الأشياء المادية فقط ، وإنما تدرك جانبا من الإبداع الإلهى المقدس ومن هنا يتحول شعورنا بالرهبة إلى إدراك موضوعى للعناصر المقدسة في الطبيعة. أو تخيل أنك تسير فى غابة فى ظلام الليل ، بعيدا عن طرقات المدينة وأضواءها. ثم ترى ظلالا سوداء ، وتسمع أصواتا غريبة ، أنت تشعر فى هذا الموقف أنك قريب من الطبيعة ، وأن الطبيعة "تتحدث إليك". هذا الشعور يكون عادة ذاتيا عاطفيا ، فبعض الناس يقرئون قصائد الشعر كما لو كانت " تتحدث إليهم"، وتتداخل لديهم الذكريات المبهمة للقصائد مع انطباعات الحاضر الأكثر إبهاما ، وينشأ عن ذلك حالة ذهنية غير مترابطة أو واضحة. والآن افترض أنك نشأت تعتقد أن الغابة المذكورة مليئة بالأرواح ، وكان قد سبق لك في طفولتك أن تجولت فيها مرارا ، وأن والديك شرحا لك طبيعة تلك الأصوات والأرواح التى تصدرها ثم حكوا لك الحكايات التقليدية المتوارثة فى هذا الصدد. إن هذه الحكايات تضفى معنى وجوهرا على هذه الانطباعات ، وتحولها إلى ظواهر أكثر تحديدا ، تماما بنفس الطريقة التى قدمت لك فيها توجيهات مدرس

الأحياء أساسا جوهريا لصور الميكروسكوب المبهمة. وإذا انتقلنا الآن إلى داخل ذواتنا ، فسنجد أفكارا ، ومشاعر ، ومخاوف ، وآمال وذكريات ، مبهمة شريدة بمعنى أننا لا نعرف أو حتى نهتم بما إذا كانت تنبع من داخل ذواتنا أم من جهات أخرى – وهى لا تبدو منتمية إلى الذات ولا لعالم موضوعى مختلف. ولكن افترض أنك تعلمت أن الآلهة قد تتحدث إليك فى يقظتك ، أو فى أحلامك ، وقد تمنحك القوة والعون عندما يكون هو آخر شئ تتوقعه ، وأنها تبعث فيك الغضب حتى تنفذ مرادها بعزم وتصميم ، وهب أيضا أنه تم تدريبك على أن تسمع أصواتها ، وأن تتوقع منها إجابات محددة، بل وتم تعريفك بأمثلة من هذه الإجابات ـ افترض كل هذا ، وستجد أن حياتك الداخلية أكثر انسجاما ، وستتوقف عن كونها تفاعلا غير ملحوظ من الأشكال المبهمة وستصبح ميدانا فسيحا لتجليات الآلهة المتميزة الواضحة. وإذا عدنا إلى الأدب اليونانى القديم سنجد أن الطريقة السابقة كانت نفس الطريقة التى عرف بها اليونان ما يحيط بهم ، وأدركوا من خلالها "حياتهم الداخلية ". لقد كانت خبرتهم بالعالم المادى خبرة بعالم ملئ بالآلهة. فلم تكن الآلهة بالنسبة لهم مجرد أفكار خيالية ، وإنما كانت خبرة بعالم الظواهر. كما أن خبرة النفس ، أيضا ، كانت خبرة بقوة إلهية مقدسة وبرسالات علوية مقدسة ، وهنا يأتى مفهوم الذات المستقلة ، حتى وإن كان مفهوم الجسد المفرد المتسق غير معروف لليونان آنذاك.

لقد تحدثت حتى الآن عن الظواهر فقط. والآن فأنا أقول لك أن الظواهر التى وصفتها تؤيد بقوة الفرض القائل أن كل شئ ملئ بالآلهة ، كما قال طاليس. ويختلف هذا الفرض عن الفرض الخاص بالمذنبات comets الذى ذكرته آنفا ، ومن ثم سأطلق عليه فرض من النوع (س). ويمكن للبحث العلمى أن يغير من الفرض الخاص بالمذنبات. ويتم ذلك ، على سبيل المثال ، بقياس المسافة التى تفصلنا عنه ، ولكن دون مساس بالظواهر والتصورات الأساسية. ولكن الأبحاث بمفردها لا تستطيع تغيير الفرض الإلهى. وينبغى علينا لكى نقوم بمثل هذا التغيير أن نستخدم تصورات جوهرية جديدة

تتعارض مع خبرة عالم هوميروس ، كما يجب علينا أن نغير من نظرتنا للعالم. ويجب علينا أيضا أن نستبدل العالم الجميل المبهج لهوميروس بالأتربة الصناعية لعالم انكسماندر الكئيب ، وأن نستبدل آلهته الرائعة الحية بوحوش أكسانوفان وبارمنيدس الديكتاتورية الظالمة التى يعشقها العقلانيون النقديون ، والتى توجب علينا ترتيب انطباعاتنا بطرق مختلفة تتضمن اختفاء الظواهر القديمة ، وعالم الآلهة ، والأرواح والأبطال. ولاحظ أننا لا نستبعد فقط الآلهة من عالم مادى يمكن أن يوجد بدونها ، ولا يتغير سلوكه بعدم جودها ، وإنما نقدم أيضا نوعا جديدا من المادة الجرداء الجامدة التى لم تعد مهدا لقوى الخلق والإبداع. وسيختفى عالم كامل لتحل محله ظواهر جديدة تماما.

ويجب أن نضع فى حسباننا نوعا آخر من أنواع الفروض ، بل لعله أهم هذه الأنواع - وسوف أطلق عليها فروض من النوع (ص) - وعلى الرغم من أننا نجد هذه الفروض فى التراث الأسطورى ، وعلى الرغم من أنها تتعارض مع العلم فقد اتضح لنا صوابها عند ترجمتها إلى لغة العلم. وقد تم اكتشاف هذا النوع من الفروض مؤخرا عندما اتضح أن الوخز بالإبر منهج ناجح فى علاج العديد من الأمراض التى عجز الطب الغربى حتى فى تشخيصها. وقد أدى هذا الأمر إلى المزيد من الأبحاث وإلى اكتشاف العديد من "المدارس" الطبية التى يحتوى كل منها على معرفة غير متاحة للعلم. وقد تكون هذه المعرفة ذات طبيعة عملية فقط ، ولكنها قد تتضمن أيضا قدرا لا بأس به من المكونات النظرية. وتتبدى أهمية هذه النظريات فى أنها تبين لنا أن العلم ليس هو الطريق الوحيد لاكتساب المعرفة ، وأن هناك بدائل أخرى ، وأن هذه البدائل قد تنجح عندما يفشل العلم. ثم هناك أيضا ميدانا كاملا يختص بظواهر الباراسيكولوجى Parapsychology . وترجع أهمية هذا الميدان بالنسبة لحوارنا الراهن لسببين. فمن الجهة الأولى ، هناك ظواهر عديدة تصفها أو تفترضها الأساطير تتصل بموضوع التخاطر أو الباراسيكولوجى. إذ تقدم لنا دراسة الباراسيكولوجى مادة حقيقية (لا خيالية) لتفسير واقعى للأساطير ، وقصص الأبطال الخرافية وغير ذلك من الحكايات

الخيالية. كما تبدو هذه الظواهر أكثر تأثيرا من ظواهر المعامل ، وتخبرنا عن بعض الشروط التى نتوقع فيها تأثير قويا للباراسيكولوجى. بل أن بعض الأساطير تحتوى على التفسيرات الصحيحة المناسبة. فنحن نجد طبقا لأسطورة "هوبى" فى الخلق أن التجريد المتزايد للفكر الإنسانى والمصلحة الشخصية المتزايدة للإنسان تؤدى إلى تباعد الإنسان عن الطبيعة ، ويترتب على ذلك أن تتوقف الطقوس القديمة التى قامت على الانسجام عن العمل. ولا ينبغى أن نندهش الآن من أن أسلافنا كانوا قادرين على اختراع أفكار وإجراءات لها من القوة والفعالية ما ينافس أكثر نظرياتنا العلمية تقدما. فلماذا يجب أن يكونوا أقل ذكاءا منا ؟ إن إنسان العصر الحجرى كان بالفعل إنسانا حقيقيا مكتمل التطور homo sapiens ، فقد واجه مشكلات لاحصر لها ، وتمكن من حلها بعبقرية عظيمة. وإذا كان العلم يمتدح دائما بسبب إنجازاته، فدعنا لا ننسى أن مخترعى الأسطورة هم الذين اكتشفوا النار وكيفية الحفاظ عليها. وروضوا الحيوانات واستنبطوا أنواعا جديدة من النباتات ، وفصلوا بين أنماطها المختلفة لدرجة تفوق ما هو متاح الآن عن طريق الزراعة القائمة على المناهج العلمية. كما اخترعوا أيضا دورات الزراعة وطوروا بذلك فنا يمكن أن ينافس أفضل اختراعات الإنسان الغربى. وبسبب عدم تقيد الإنسان القديم بمشاكل التخصص فقد كان على وعى بالعلاقات الوطيدة التى تربط الإنسان بالإنسان والإنسان بالطبيعة ، تلك الطبيعة التى استخدموها لتحسين علمهم ومجتمعهم: ونحن نجد أفضل أنواع الفلسفة الإيكولوجية(البيئية) ecological philosophy فى العصر الحجرى. وإذا كان العلم يمتدح بسبب إنجازاته ، فينبغى مدح الأسطورة مائة مرة وبحماس أشد لأن إنجازاتها كانت أعظم. لقد أنشأ مخترعى الأسطورة الحضارة بينما اكتفى العلماء بتغييرها ولم يكن هذا التغيير دائماً إلى الأفضل. لقد ذكرت لكم بالفعل مثالا من قبل: فقد عالجت الأسطورة ، والتراجيديا ، والملاحم القديمة المشاعر والانفعالات ، والوقائع ، ووضعتها فى نفس الوقت فى بنية مركبة ، كان لها تأثير ملموس نافع على المجتمعات التى حدثت فيها.

لقد دمرت نشأة العقلانية الغربية هذه الوحدة واستبدلتها بفكـــرة عـــن المعرفة أكثر تجريدا ، وأكثر عزلة ، وأكثر ضيقا. كما تـــم الفصـــل بـــالقوة والسلطة بين الفكر والعاطفة ، بل وحتى بين الفكر والطبيعة ، (يعبر أفلاطون عن ذلك بالقول "دعنا نقيم علما للفلك دون اهتمام بالسماء"). إن أحد النتـــائج الواضحة لنا جميعا هى أن اللغة المعبرة عن المعرفة أصبحت أكـــثر فقـــرا وجفافا وصورية. والنتيجة الأخرى المترتبة على ذلك هى حـــدوث انفصـــال حقيقى بين الإنسان والطبيعة. ويعود الإنسان ، بالطبع ، فى نهاية الأمر بعـــد ارتكابه العديد من الأخطاء إلى الطبيعة ، وهو يعود إليها عدوا غازيا ، لا إبنا حانيا. ولننظر فى مثال آخر أكـــثر تحديـــدا. يحتـــوى مبحـــث الثيوجونـــى Theogony (مبحث أصل الآلهة) عند هزيود على كوزمولوجيا "حديثـــة" رفيعة المستوى : فالعالم بما فى ذلك القوانين التـــى تتحكـــم فـــى عملياتـــه الأساسية، ليس سوى نتيجة لتطور معين ، أما القوانين ذاتها فليست أبدية ولا شاملة وإنما تنبع من توازن ديناميكى بين قوى متعارضة حتى أن هناك دائما خطر التغييرات الكبرى الممزقة (فالعمالقة قد يحطمون أصفادهم ، ويتغلبـــون على زيوس zeus ، ومن ثم يفرضون قوانينهم) ، كما أن للكيانـــات التـــى تحتويها جانب مزدوج ، فهى مادة ميتة ، ولكنها أيضا قادرة على التصـــرف كما تتصرف المحسوسات. وقد انتقد أكسانوفان وبـــارمنيدس هـــذه الأفكـــار باعتبارها لاعقلانية. وقد استبدلت تفسيرات التطور بتفســـيرات تقـــوم علـــى القوانين الأبدية – وقد استمرت هذه التفسيرات الأخيرة حتى القـــرن التاســـع عشر! وقد عدنا فقط مؤخرا إلى نظريات التطور التى لا تعالج فقط تطورات محدودة فى الكون وإنما ما يحدث فى الكون ككل. والأسطورة ، بكل تأكيد ، أكثر تقدما من بعض الأفكار العلمية النقدية الأكثر تعقيدا و"عقلانية".

بل وما زال فى جعبتى الكثير من الأمثلة. فعلـــم الآثـــار ، وخاصـــة التخصـــص الحديـــث الـــذى يعـــالج "علـــم الفلـــك الأثـــرى القديـــم" astroarchaeology، والذى يجمع بين المصادر العلمية وبين مدخل جديـــد أكثر واقعية لدراسة الأسطورة كشف عن اتساع مجال ودقة مســـتوى فكـــر

العصر الحجرى. وترتب على ذلك أن أصبح لدينا الآن علم فلك عالمى يتـم استخدامه واختباره بالملاحظات ، ويدرس فى الجامعات من أوربـا وحتـى جنوب الباسيفيكى ، ويتم تطبيقه على رحلات السفر العالميـة ويتـم تشـفير رموزه فى لغة فنية رائعة. وقد اتسمت المصطلحات الفنية لهذا العلم بصبغـة اجتماعية ، لا بصبغة هندسية ، ومن ثم جاء هذا العلم دقيقـا مـن الناحيـة الاجتماعية ومرضيا من ناحية المشاعر الإنسانية. وقد حل هذا العلم مشكلات فيزيائية واجتماعية ، كما أنه يقدم دليلا لما يحدث فى السماء وللانسجام الكائن بين السماء والأرض ، وبين المادة والحياة ، والإنسان والطبيعة وهى علاقات حقيقية أغفلتها أو أنكرتها المادية العلمية المعاصرة ، وهى تجمع فى مركـب واحد علما ، ودينا ، وفلسفة اجتماعية ، وشعرا. وإذا وضعنا كل هذه الأمور معا فسندرك أن العلم لا يتميز عن المعرفة. حقا العلم مخزن للمعرفة، ولكـن نفس القول ينطبق على الأسـاطير ، والحكايـات الخياليـة ، والتراجيديـا ، والملاحم وغير ذلك من مخلوقات أخرى عديدة لا تنتمى إلى التراث العلمى. ويمكن ترجمة المعرفة المتضمنة فـى تـراث هـذه المعـارف إلـى لغـة المصطلحات الغربية ، وعندئذ سنحصل على فروض من النوع (ل) و (م) و (ن) – غير أن مثل هذه الترجمة تستبعد العناصر "البراجماتية" الهامة لهـذه المعرفة ، كما تستبعد الطريقة التى قدمت بها ، والارتباطات والتداعيات التى تثيرها ، ومن هنا فنحن نستطيع الحكم على "محتواها الامـبريقى" ولكننـا لا نستطيع الحكم على المؤثرات الأخرى لاستخداماتها ، وتأثيرها على نشـاطنا فى جمع المعرفة وتطويرها. وحتى فى هذا الجزء المحدود الخاص بالمحتوى الامبريقى كثيرا ما نجد العلم يلهث وراء بعض الآراء اللاعلمية. وأخيرا وبعد هذا الاستطراد الطويل ، فنحن على استعداد للنظر فى مسألة المذهب العقلانى والمنهج العلمى ...

س : وهل تظن أن هذا بمفرده سيحل المشكلة ! إن كـل المشـكلات التـى طرحتها ، خاصة مشكلة العلم ، والمشكلات المترتبة على أخطاء العلمـاء ، والمترتبة على أفكارهم الأيدلوجية تبين حاجتنا إلى بعض المعايير...

ص : وهى معايير من المفترض فى رأيك أن يكون الفلاسفة قد طوروها وفرضوها على العلم من الخارج.

س : حسنا ، نادرا ما يهتم العلماء بموضوع المعايير وحتى عندما يهتموا فإنهم يرتكبون الأخطاء.

ص : ألا يرتكب الفلاسفة أخطاء فيما يختص بالمعايير ؟

س : يرتكبون أخطاء بالطبع ، لكنهم على الأقل أكثر كفاءة فيما يختص بموضوع المعايير.

ص : أى يرتكبون الأخطاء بكفاءة ، هل هذا ما يميزهم ؟

س : بل ولديهم بعض الاستبصارات بهذا الموضوع المعقد.

ص : أنت متفائل – فأنت تعتقد أن لفلاسفة العلم استبصارات خاصة بتعقيدات العلم. لماذا ، فهم أنفسهم يقرون بأنهم لا يعالجون موضوعات علمية ، وإنما يعالجون فقط عملية "إعادة البناء العقلانية"، وهذه العملية تعنى ترجمة العلم إلى منطق مفرط فى التبسيط.

س : إنهم يوضحون العلم ...

ص : إنهم يوضحونه للأميين الذين يفهمون فقط المنطق البسيط ولا يفهمون ما عداه. بيد أنى أقول لك إذا كانت المشكلة تقتصر على توضيح العلم لأصحاب الذكاء المتوسط فإن مبسطى العلم من أمثال "أزيموف" Asimov يقومون بهذه المهمة بصورة أفضل. فكل من يقرأ أعمال "أزيموف" يعرف تقريبا الموضوعات التى يعالجها العلم ولكن بعض من يقرأون بوبر أو "واتكينز" أو "لاكاتوش" يتعلمون نوعا من المنطق المفرط فى التبسيط ولكنهم لا يعرفون شيئا عن العلم. وحتى إذا سلمنا بأن فلسفة العلم أفضل مما هى عليه بالفعل ، فيبقى أنها تواجه مشكلة تشترك فيها كافة العلوم : فهى تقدم افتراضات يصعب على ممارسى العلم التحكم فيها. وهكذا فإن إضافة فلسفة العلم إلى العلم لن تقضى على المشكلات التى تحدثنا عنها وإنما تضيف إليها مشكلات جديدة من نفس النوع. وهنا يزداد الخلط ، ولا يختفى على الرغم من شيوع الانطباع باختفائه – بسبب جهل وسذاجة الفلاسفة.

س : حسنا ، أنا أعترف بأنه يجب على الفلاسفة والعلماء أن يكونوا على استعداد لتعلم أمور جديدة .

ص : كم هو جميل منك أن تعترف بذلك - وكم هو مؤثرا فطبيعة الافتراضات المطروحة تمنع الممارسين من تعلم "الأمور الجديدة" المطلوبة لرؤيتها فى إطار معين.

س : ماذا تعنى ؟

ص : هل تذكر أتكينسون Atkinson ؟

س : كيف يمكن أن أنساه ؟

ص : لم يكن أتكنيسون مستعدا للتخلى عن آراءه عن الإنسان القديم وكانت أسبابه فى ذلك أنه لم يفهم البراهين ، كما "لم تتوفر لديه الإحصاءات المطلوبة" ، ومن ثم كان "من الأفضل" له الاحتفاظ بنفس الآراء. فهناك مثلا الافتراض القائل بأن الأحداث الأرضية لا تعتمد على تأثيرات الكواكب ، وهناك الافتراض بأن الأمراض تبدأ من علل تقريبية مرجحة ، وهى علل لا نكتفى فقط بتكذيب بدائلها وإنما لا نفهمها.

س : حسنا ، ما هو البديل ؟

ص : أحد البدائل المحتملة هو أن المرض عبارة عن عملية بنائية يسببها حدث معين ثم يتطور المرض ككل من خلال عمليات معقدة مماثلة. وإذا كان هذا تفسيرا صحيحا للمرض فسوف يكون البحث عن "موضع" المرض أو(الألم) بلا جدوى كما سيصبح استخدام النظريات العلميّة للبحث عن هذه الأسباب عبثا لا طائل وراءه.

س : وما هى الطريقة التى يمكن أن نتقدم بها ؟

ص : سؤالك هذا مثل جيد على التأثير الذى يمكن أن يكون للافتراضات العامة التى تحدثنا عنها على الفكر. فهناك العديد من الممارسات التى يقوم بها البعض دون الحاجة إلى معرفة أى نظرية.

س : ألديك مثال على ذلك؟

ص : المثال هو الحديث بلغة معينة. فأنت لا تتعلم التحدث بلغة معينة من خلال تعلم نظريات معينة يمكن صياغتها بطريقة صريحة واضحة، وإنما تتعلم اللغة بالمساهمة فى ممارسات معينة – فأنت تكتسب اللغة. وتستطيع من خلال اكتسابك للغة معينة من إنجاز أمرين. إذ يمكنك أن تفهم وأن تستخدم قواعد معينة قد لا تعرف ماهيتها.

س : إلا إذا درست قواعد اللغة ، أو علم الصوتيات.

ص : نعم إلا إذا درست قواعد اللغة أو علم الصوتيات. وستكون فى هذه الحالة قادرا على أن تفهم ، وربما حتى تقلد ، خصوصية اللغة وتنوعاتها الفردية الخاصة ، وإشتقاقاتها من المعيار المتضمن. بل وقد تبدأ فى اختراع مثل هذه الاشتقاقات بنفسك ، فقد تصبح مثلا ، شاعرا ومن ثم تغير من قواعد ونظم اللغة التى تتحدثها.

س : نعم ، ولكن تظل اللغة مجرد نظرية.

ص : ولكننا نعاملها بطريقة تختلف كثيرا عن الطريقة التى يزعم فلاسفة العلم أن النظريات تعامل بها.

س : لأن علماء اللغة يحاولون صياغة نظمها وقواعدها بصورة واضحة...

ص : ... وهم لا ينجحون أبدا فى تقديم تفسير شامل ، لأن هناك أستثناءات كثيرة. كما أن صياغات علماء اللغة تسترشد بممارسة اللغة وليس العكس. ولدينا أيضا أنظمة طبية يتم فيها تعلم أو معرفة أعراض الصحة والمرض بنفس الطريقة التى يتم بها التعامل مع اللغة، فالطبيب يقوم بدراسة المريض حتى يفهم " لغة الأعراض" . وتختلف هذه الدراسة اختلافا جذريا عن دراسة الطبيب العلمى الذى تتوافر لديه بالفعل نظرية ، تكون مأخوذة عادة من مجال آخر...

س : ماذا تعنى : بالمجال الآخر ؟

ص : أعنى أن النظرية لم تتطور من خلال تعميم مستمد من الخبرة الطبية، وإنما تم فرض هذه النظرية من مجال البيولوجيا ، أو من الكيمياء أو حتى من مجال الفيزياء.

س : ولكن الكائن العضوى عبارة عن نظام بيولوجى.

ص : قد يكون كذلك ، وقد لا يكون. فالمحصلة النهائية لسلوك الكائن العضوى قد لا تتوافق مع قوانين البيولوجيا التى تقترحها الخبرة اللا- طبية. وهذا أمر لم يكتشفه أحد على الإطلاق ، وذلك لأننا عندما نفرض قواعد البيولوجيا على الممارسة الطبية فإن انتباهنا ينصرف إلى الدليل البيولوجى وليس إلى الدليل الطبى: ومن هنا يتقاص مجال الوقائع القابلة للتكذيب بدرجة كبيرة...

س : تتحدث الآن كأنك أحد أتباع بوبر.

ص : أنا أقوم بذلك فقط حتى أكون مفهوما لكم أيها البوبريون. غير أن هناك اعتبارات أخرى أكثر أهمية سبق وأن ذكرتها من قبل: فالدليل الطبى بالمعنى الذى أناقشه الآن يكون قريبا من فهم المريض - بل إن الطبيب الذى أعنيه يتعلم ، فى واقع الأمر ، كثيرا من المريض ، ويسأله ، ويقدر رأيه ويعتبره فى غاية الأهمية. وينبغى للطبيب أن يقوم بذلك لأنه يرغب فى أن يشفى المريض بالمعنى الخاص به وليس بالمعنى المستمد من نظرية معقدة. لقد سبق وقلت لك أن معنى الصحة والمرض يختلف من ثقافة إلى ثقافة ، ومن شخص إلى شخص. إن العلاج يعنى: استرجاع الوضع إلى الحالة التى يرغب فيها المريض وليس إلى حالة مجردة مرغوب فيها من الناحية النظرية. وهكذا فإن الطبيب الذى فى مخيلتى يحتفظ بعلاقة شخصية حميمة مع المريض ليس فقط لكونه طبيبا وأن على الطبيب أن يكون صديقا لمريضه وليس مجرد سمكرى - أجسام ، وإنما لأن الطبيب يحتاج إلى الاتصال الشخصى بالمرضى ليتعلم مهنته. فالتعليم والعلاقة الشخصية يسيران جنبا إلى جنب. أما الطبيب العلمى ، فينظر إلى المريض من خلال عوينات نظرية مجردة ؟ ويتحول المريض باعتماده على هذه النظرية إلى ما يشبه نظاما للصرف الصحى ، أو مجموعة من الجزيئات المتباعدة ، أو زكيبة مليئة بمركب من الأخلاط الأربعة.

س : ولكنك تحتاج إلى نظرية لتبين لك ماهو ملائم وما هو غير ملائم.

ص : أوافق على ذلك. ولكن لا ينبغى أن تأتى النظرية فى صورة صريحة...

س : ولكن إذا لم تكن كذلك ، فكيف يمكن لك نقدها ؟

ص : وكيف تنتقد فهمك للغة معينة ؟ هل تصيغ نظرية فى النحو ثم تختبرها، أم أنك تكتفى بالحديث وترى إلى أين يقودك ؟

س : لا يبدو الاتجاه الأخير علميا...

ص : ... لنفترض أن العلم يعالج فقط ما يمكن صياغته فى صورة صريحة واضحة. بيد أن هذا يتعارض مع وجود افتراضات عديدة خفية مستترة لا نحتاج إلى الكشف عنها وإن كنا نستطيع تغييرها ببساطة عن طريق تغيير إجراءاتنا. ثانيا ، النظريات التى يقدمها الطبيب العلمى تكون مجلوبة من مجال آخر ، فهى لا تنمو من خلال الممارسة الطبية ذاتها ومن هنا فغالبا ما لا يكون لها علاقة باهتمامات الطبيب الممارس ذى النزعة الإنسانية الذى يرغب فى شفاء المرضى وفقا لوجهة نظرهم. قد تقول أن لدنيا نظريتين بخصوص تركيب الجسم البشرى وطبيعة علله واضطراباته ومن ثم يكون السؤال أى النظريتين يجب أن يختار المريض. ولكن المشكلة لسوء الحظ نادرا ما تطرح بهذه الطريقة. فالأطباء العلميون لا يعتبرون الأطباء المجربين (الامبريقيين) بديلا طبيا متاحا ، وإنما يعتبرونهم مجموعة من السذج، غير الأكفاء علميا...

س: ولكن فلسفة العلم يمكن أن تساعدنا كثيرا فى هذا المقام.

ص : هل تمزح ؟ إن فلاسفة العلم مشغولون بإنتاج أساليب خاصة بهم وليس لديهم وقت لأمور أخرى. هذا فضلا عن أنه ليس من المفترض أن يكون الطبيب علميا ، وإنما من المفترض أن يشفى المرض.

س : ولكن كيف له أن يشفى إذا لم تكن لديه معرفة ؟

ص : إن الجراح تلتئم بنفسها ، دون معرفة.

س : وهل مطلوب أن يعمل الأطباء بآلية ، كما تلتئم الجراح ؟

ص : لم لا إذا كان ذلك سيؤدى إلى نتائج ناجحة ؟

س : ومن الذى سيقيم النتيجة ؟

ص : المريض ، ألديك اقتراح بشخص آخر ؟

س : إذن ما الحاجة إلى الأطباء ؟

ص : نحتاجهم لمساعدة الجسم فى القيام بوظائفه الطبيعية والتى تساعد الناس فى تحقيق رغباتهم فى حياة مريحة مجزية - ألا ترى أن كل هذا الحوار يعيد عن صميم المشكلة ؟ بل هو بعيد عن المسألة تماما بسبب عادة فلاسفة العلـم فى تقديم تصوراتهم؟ فـفيلسوف العلم يرغب فى إقامة نمـوذج Model وأن يحدد ماهية المعرفة وماهية العلم. وهو لا ينجح نجاحا تاما فى هذا النشاط - راجع فى ذلك المحاولات المتعددة لجعل بعض الأفكار (مـن قبيـل زيـادة المحتـوى content increase ومفهـوم الاقـتراب مـن الصـدق verisimilitude) مقبولة من المناطقة. إذ لم يتعرض أحد لمسألة ما إذا كانت هذه المفاهيم عونا للعلم أم لا - فهى إمـا تقبـل دون مناقشـة أو ترفـض باعتبارها تنتمي إلى ميدان مختلف. لقد عرضت لك من قبـل نوعيـن مـن الأطباء: الطبيب العلمي والطبيب الشـخصى the scientific physician and the 'personal' physician (كـان يطلـق فـى الماضى علـي المجموعتين اسم الدوجماطيقين والاميريقين وكان الدجماطيقيون والفلاسـفة يعتبرون الأطباء الامبريقيين أدنى منهم منزلة وأقل قيمة). وقد كـان لكـل فريق منهما أفكار معينة عن الإنسان باعتباره كائنا عضويـا حيـا ، وعـن وظائف الجسم الإنسانى ، ومهمة الطبيب ، والتشخيص ، والعلاج ، كما كان لكل فريق أراء معينة عن طبيعة المعرفة. والسؤال الآن هـو: أي النوعيـن أفضل كطبيب معالج ؟ وهذا السؤال مستقل عن السؤال: أيهما علمى ؟ مـن الجائز جدا أن نكتشف أن الطب غـير العلمـى unscientific medicine يشفى المرضى بينما الطب العلمى يقتلهم. والأطباء يعترفون فى واقع الأمـر بهذا الاحتمال. فقد كتب فرانـز إينجلفينجـر Frans Inglefinger رئيـس التحرير الشرفى "لدورية نيو إنجلند فى الطـب" New England Journal of Medicine أنه: "على الرغم مـن أن النـاس مـازالوا يموتـون فـى مستشفياتنا ، إلا أن القليل جدا منهم يموت دون تشخيص". فالمعرفة(الطبيـة)

تزداد ، والمحتوى المعرفي يزداد ، والمرضى يموتون لأن الأطباء العلميين وأنصارهم من فلاسفة العلم الجهلة ، يفضلون أن يكونوا "علميين" على أن يكونوا إنسانيين. وهذا هو أحد أسباب اقتراحي باسترداد المشكلات الجوهرية – كالمشكلات الابستمولوجية والمنهجية – من أيدى الخبراء (كالأطباء ، وفلاسفة العلم ، الخ) وتسليمها إلى المواطنين لحلها. وسوف يلعب الخبراء في هذا المجال دور الناصحين المرشدين ، كما ستتم استشارتهم ، ولكن لن يكون لهم الكلمة الأخيرة. وسيكون شعارى هو مبادرة الجماهير لا الإبستمولوجيا. Citizens'initiatives instead of epistemology.

س : أتعنى أن على الإنسان العادى أن يفصل فى أمور العلم ؟

ص : يجب أن يكون للأشخاص العاديين حق اتخاذ القرار فيما يحيط بهم من أمور قد يكون للعلماء فيها آراء مخالفة ومن ثم تسير الأمور فيها وفقا لأهوائهم.

س : ولكن هذا الأمر سيخلق نوعا من الفوضى.

ص : نعم ، أعرف أن هذا ما ستقولونه لأنكم تريدون الاستمرار فى الهيمنة على عقول وجيوب الناس التى سرقتوها بالدعاوى الباطلة والوعود الكاذبة.

س : ولكن يجب حماية الناس !

ص : لقد سبق لك قول هذا الأمر وأجبتك بضرورة حماية الناس أيضا من الطب العلمي. بل يجب فى واقع الأمر ، حمايتهم بدرجة أكبر من مثل هذه الممارسات الطبية ، لأنها أكثر خطورة من أى ممارسات أخرى بديلة. فمناهج الطب العلمى فى التشخيص خطيرة ، وما يقدمه من علاج أو ما يسمى بالعلاج غالبا ما يكون قاسيا ، كما أن نسبة الحوادث فى المستشفيات أعلى منها فى كل الصناعات الأخرى ، إذ هى نسبة لا يتوقع مثلها سوى العاملين فى المناجم والإنشاءات الضخمة الخطيرة. ويعلق إفان إيليتش Ivan Illich على هذا الأمر بالقول "إن الضابط الذى يكون له مثل هذا السجل من الوفيات يتم فصله فورا من الخدمة ، كما ستغلق الشرطة أى مطعم أو مركز ترفيه له سجل مشابه". وفضلا عن هذا ، فإن الأطباء ينتهون فى حالات

عديدة إلى قرارات متضاربة ومن ثم يجب أن يترك الأمــــر للمريــض ، أو أقاربه ، لاتخاذ القرار. قد تسأل أليس من المحتمل أن يقعوا فى أخطاء قاتلة ؟ سوف يحدث ، بالطبع ، سيقعون فى أخطاء – ولكن أخطائهم لن تكون أجسم من أخطاء الخبراء. إن المحلفين فى المحكمة كثيرا ما يكتشـــفون مثــل هــذا الأمر. يدلى الخبراء المختالون بأنفسهم بشهاداتهم ، ثم يعارضهم أحد المحامين الذى يعد خبيرا فى المشكلة المطروحة وإن كان كثيرا ما يتضـــح أنـــه لا يعرف عما يتحدث. فالمحاكمة باستخدام الملحفين تعتبر بمثابة مؤسسة تفصل فى قضية مطروحة بالاستعانة بخبراء ولكن دون أن يكون لهؤلاء الخـــبراء الكلمة النهائية فى القضية. ويجب تطبيق نفس الأمر علـــى المجتمــع ككــل للأسباب التى ذكرتها ولأسباب أخرى لم أذكرها. فمن حق الناس أن يعيشـــوا نمط الحياة الذى يروق لهم وهذا يعنى أن تقاليد أى مجتمع ينبغى أن يكون لها حقوق وسبل متساوية تقود إلى مراكز القوة فى المجتمع. فالتقاليد لا تقتصـــر فقط على الدين والقواعد الأخلاقية ، وإنما تتضمن أيضا كوزمولوجيا معينة ، والخبرة الطبية المتاحة ، ووجهات نظر حول طبيعة الإنسان الــخ . وهكــذا ينبغى ترك أصحاب التقاليد والثقافات المختلفة ليمارسوا طبهم الخاص ، كمــا ينبغى أن تخصم النفقات الصحية المفروضة عليهـــم مــن الضرائـــب التـــى يسددونها للدولة ، وأن يتم تعريف النشء بأساسيات الأسطورة. وكمـــا قلـــت فهذا حق أساسى والحق أحق أن يتبع. ثانيا ، تمدنا نتائج الحياة فـــى التقـــاليد الثقافية الأخرى بمعلومات إضافية مطلوبة عن فعالية العلم. لقد سبق لـــك أن ذكرت أننا فى حاجة إلى مجموعات ضابطة لاختبار فعالية الطب الحديـــث. غير أن الصعوبة تكمن فى أنك لا تستطيع أن تجبر الناس على التخلى عـــن أسلوب العلاج الذى يرونه هاما. ولكن إذا سمحنا للثقافات المختلفـــة بحقـــوق متساوية فسيختار الكثير من أصحاب هذه الثقافات بإرادته الحرة صورا بديلة من صور الطب ، وعلم النفس ، وعلم الاجتماع ، الخ. وسيترتب على ذلـــك مادة للمقارنة. لقد تحقق هذا الإجراء بالفعل إلى حد ما فى مجال "التنمية". فقد تم من قبل فرض الأفكار الغربية الخاصة بالتقدم مما تمخض عنـــه زراعـــة

محصول واحد فقط ، والارتباط بالسوق العالمية ، وتقييم النتائج وفقا لآليات السوق. والآن فإن بعض الدول تناقش مع سكانها المحليين طبيعة "مشاركتها" في هذه البرامج. ولم يعد الخبراء يقحمون أنفسهم بين الناس وبين مشكلاتهم. وإذا طبقنا مثل هذا الاتجاه على دول الغرب فإنه يعني أن المواطنين سيقررون بأنفسهم مشكلات معينة مثل إقامة الجسور ، واستخدام المفاعلات النووية ، وطرق التحقق من سلوك المساجين.

س : ولكن مثل هذا الأمر سيقود إلى كم كبير من الجدل العقيم والنتائج السخيفة.

ص : أوافقك على ذلك. ولكن سيكون هناك فرق هام. فالحوار سيشمل في هذه الحالة المجموعات المعنية ، كما أن النتائج السخيفة سيحصل عليها ويفهمها المشاركون ، ولن يقتصر الأمر على قلة من الخبراء يتصايحون في لغة لا يفهمها أحد. و من ثم لا تظن للحظة واحدة أن النتائج المزعومة التي تحصل عليها من الخبراء المزعومين أقل سخافة مما قد تحصل عليه في الحالة الثانية. ولكي تصدق ما أقول عليك فقط أن تحضر مؤتمرا في الفلسفة، أو في فلسفة العلم : فمن الصعب تصديق الهراء الذي تقدمه لنا هذه الأيام "النخبة الثقافية المتميزة" – على حساب دافعي الضرائب. حقا ، من الصعب تصديق الهراء الذي قدمه لنا المفكرون العظام على مر العصور ومن الصعب أيضا تصديق سذاجة الجماهير التي انخدعت به.

س : يبدو أنك لا تكن احتراما كبيرا لقادة الإنسانية.

ص : أنا لا أكن احتراما كبيرا لأولئك الذين يرغبون في أن يكونوا قادة ولا أولئك الذين يسمحون بتكوين مدارس تقدم لنا مثل هؤلاء "القادة ". بل أعتقد ، على العكس من ذلك ، أن العديد ممن نطلق عليهم "معلمي البشرية" ليسوا سوى مجموعة من المجرمين المتعطشين للقوة ، والذين أرادوا بسبب عدم رضاهم عن ذواتهم التافهة السيطرة على عقول الآخرين والقيام بكل ما في مقدورهم لزيادة عدد العبيد الخاضعين لهم. وبدلا من زيادة قدرة الناس على اكتشاف طريق خاص بهم تجدهم يستغلون ضعفهم ، ورغبتهم في التعلم ،

وتقتهم ليحولوهم إلى نسخ هزيلة من خيالهم المريض. إن الواجب الأول لأى معلم هو تحذير المستمعين من أنه سيخبرهم برواية تروقه ويحبها ولكن ليس من الضروري أن يأخذوا بها. وواجب المعلم الأول أيضا هو أن يقول لمستمعيه: أنتم تعلمون أكثر مما أعلم ، ولكن ، ربما ، لن يضيركم الاستماع لتفسيرى. وقد يستخدم المعلم الفكاهة والدعابة للتخفيف من أى "صدمة ثقافية" قد تسببها أقواله ، إذ من الأفضل أن ترى الناس يضحكون لا أن تراهم تحولوا إلى مجموعة من القردة البلهاء التى لا تعى ما يقال.

س : أنت بكل تأكيد لا تحترم الناس.

ص : على العكس تماما. فأنا أعجب بكثير من الناس وأحترم العديد منهم ، ولكنى أحترم عددا قليلا من المفكرين. فأنا ، على سبيل المثال، أحترم مارلين ديتريتش[1] Marlene Ditrich التى عاشت حياة طويلة محترمة وتعلم الكثير منا منها بعض الأشياء. وأحترم أيضا إرنست بلوك[2] Ernerst Bloch لأنه يتحدث بلغة يفهمها عامة الناس ويعزز التفسيرات الرائعة التى يقدموها ويقدمها شعرائهم لمعنى الحياة. كما أننى معجب بـ Paracelsus لأنه أدرك أن المعرفة دون عاطفة خواء فارغ. كما يعجبنى ليسنج Lessing لاستقلاليته، واستعداده لتغيير أراءه ، وهو يعجبنى أكثر لأمانته ولأنه أحد المفكرين القلائل الذين يستطيعوا أن يجمعوا فى وقت واحد بين الأمانة وروح الدعابة ، والذين يستخدمون أمانتهم نبراسا لحياتهم الخاصة ، وليس كمنتدى لإذلال الآخرين أو كمجرد تحفة معروضة لجلب السرور على رواد معارض الفنون. كما يعجبنى أسلوبه الحر الطليق ، الواضح ، المفعم بالحياة ، الذى يختلف عن الأسلوب المتعثر والبساطة المتحجرة الخاصة ، مثلا، بكتاب كارل

---

[1] مارلين ديتريتش (١٩٠١-١٩٩٢) ممثلة عالمية المانية المولد عرفت بأداء أدوار الاغراء. من أشهر أفلامها قطار شنغهاى السريع (١٩٣٢) ، الشيطان امرأة (١٩٣٥) وشاهد اعدام(١٩٥٧).المترجم.

[2] بلوك (١٨٨٠-١٩٥٩) موسيقى سويسرى من أصل يهودى.

بوبر "المعرفة الموضوعية" Objective Knowledge. وهو يعجبنى لأنــه مفكر بلا نظرية وأستاذ بلا مدرسة – لقد أعتبر كل مشكلة أو ظاهرة يعالجها موقفا فريدا ينبغى تفسيره وتوضيحه بطريقة فريدة مميزة. ولم يكــن هنــاك حدود لفضوله ولا "معايير" تحد من تفكيره : فقد سمح للفكــر والعواطــف ، والإيمان والمعرفة أن تتصهر فى بوتقة واحدة فى أبحاثه. وهو يعجبنى لأنــه لم يكن قانعا بالوضوح الزائف وإنما أدرك أن فهم الأشياء كثيرا ما يتحقق من خلال غموضها ، ومن خلال عملية معينة " يضيع ما يبدو لنا فيها واضحا فى بحار الغموض وعدم اليقين". وهو يعجبنى لأنه لم يرفض الأحلام والحكايات الخيالية وإنما رحب بها باعتبارها أدوات لتحرير الإنسان من نير العقلانييــن المتزمتين. وهو يعجبنى لأنه لم يرتبط بأى مذهب فكــرى أو أى وظيفــة أو مهنة ، ولأنه لم يشعر بالحاجة إلى أن يمتحن نفسه باستمرار من خلال مــرآة فكرية ينظر فيها ، كعاهرة عجوز ، ولم تكن لديه رغبة فى زيادة "شهرته" ، تلك الشهرة التى يعبر عنها الآخرون فى حواشى الأبحاث ، وفى الإهداءات ، والخطب الأكاديمية ، والدرجات الفخرية وغير ذلك من الأمور التى تطمئــن من روع الخائفين المذعورين. غير أن أكثر ما يعجبنى فيه هو أنه لم يحاول أبدا أن يسيطر على إخوانه من الناس ، لا باستخدام القوة ، ولا بالحث وإنمــا اكتفى بالحياة "حرا كالعصفور" – ومحبا للبحث فى الآن عينه. ومن ثم أقول ، نعم ، هناك العديد من الناس الذين أعجبت بهم ، ومن بينهم عقلانيين ، مــن أمثال ليسنج ، أو هاين Heine ، ولكنى لم أعجب بأمثال كانط ، أو بوبــر ، "كانطنا الصغير" – ومن هنا تستطيع أن تعتبرنى عدواً لدوداً لما تمثله الفلسفة العقلانية الآن ...

س : لماذا ، يا صديقى ، وما هذا الحماس – لم يسبق لى قط أن رأيتك بمثل هذه الاستثارة. لقد كدت تتفجر بحماس المتدينين ...

ص : لا تأبه لذلك – فأنا رجل مريض ، ويصرح لى أحيانا بالســير بــدون استخدام المقعد المتحرك الخاص بالمعاقين.

س : أنت لا تستطيع أن تكون جادا لأكثر من دقيقة أو دقيقتين. آه ، حسنا ، لقد كان الحديث معك ممتعا وأملى ألا تشفى سريعا لأننى أفضل حماسك المريض على سخريتك اللاذعة.

ص : وتزعم أنك عقلانى !

المحاوره الثالثة

١٩٨٩

س : أمازلت تؤمن بالتنجيم ؟

ص : من قال لك أنى أؤمن بالتنجيم ؟

س : أنت قلت ذلك ، ألا تذكر ، عندما تقابلنا آخر مرة ، فقد تحدثت بإسهاب عن التنجيم ، والعلاج الروحى وموضوعات إشكالية أخرى. وكان حماسك شديدا لتلك الموضوعات.

ص : لا أتذكر ما قلت ...

س : ليس ضروريا أن تتذكر الكلمات بنصها ، ولكن موقفك يتضمن أن...

ص : موقفى ؟

س : بلى ، موقفك ، فلسفتك أو أى اسم تشاء أن تطلقه عليها.

ص : من قال لك أن لى فلسفة ؟

س : حسنا ، أرى أنك لم تتغير البتة. فأنت تتبنى فى البداية قضايا سخيفة ، وتحط من قدر الأفكار الجيدة وتعلى من شأن الأفكار الممجوجة ، وتقول يجب أن نفعل هذا ونتجنب ذاك – ولكن عندما يضيق عليك أحد الخناق محاولا التغلب عليك تنكر كل شئ. وكأن لسان حالك يقول " أنا دكتور جيكل، أنا لم أفعل شيئا ". كيف يمكن لأى شخص أن يأخذك مأخذ الجد ؟

ص : هل سبق وأن كان لك صديق على الإطلاق ؟

س : لدى العديد من الأصدقاء.

ص : ولابد أنك ، دون شك ، تقول أشياء طيبة فى حقهم.

س : نعم ، أفعل ذلك عندما أتحدث عنهم .

ص : هل سبق لك أن اختلفت مع أى صديقة لك ؟

س : حسنا ، حدثت لى بعض الاحباطات.

ص : كلا ، أنا أعنى شيئا مختلفا. هل حدث أن شعرت من قبل دون سبب محدد أنك لم تعد ودودا محبا لشخص معين كما كنت معه(أو معها) من قبل؟ كأن تكون قد مللته مثلا.

س : حسنا ، ربما نكون قد انفصلنا – وعلى الرغم من هذا ، فأنا أحاول أن أكون عقلانيا فى مثل هذه الأمور...

ص : ولكنك لا تتجح دائما ! ويحدث أحيانا أن تصبح أنت وصديقتك غريبان وربما أيضا عدوانيان بعض الشيء تجاه بعضكما البعض – ولكنك لا تستطيع أن تفسر الأمر.

س : أحاول في مثل هذه الحالة بالتأكيد أن أناقش الأمر مع ذلك الصديق (الصديقة). فالصداقة ليست من الأمور التي يتنازل عنها المرء بسهولة.

ص : أتفق معك. سوف تتحدثان ولكن هل تصلان دائما إلى نتيجة مقبولة ؟ إن النفور معناه إنكما لا تفهمان بعضكما بما فيه الكفاية ومن هنا فالنقاش قد لا يثمر عن أي نتيجة بل وربما يكون مؤلما...

س : مثل هذه النتيجة لا ترضيني...

ص : حسنا ، لا يمكنك أن تستمر في ذلك إلى ما لا نهاية ، فهناك لحظة ستجد نفسك عندها مضطرا للاعتراف بأنه لم يعد لديكما ما تقولانه ، ومن هنا فالحكمة تقتضي الافتراق وفض العلاقة.

س (صمت).

ص : أعتقد أني لمست وترا حساسا لديك.

س : حسنا ، مثل هذه الأمور تحدث ، ولكن ما علاقة ذلك بحوارنا ؟ وبرفضك أن تتمسك بموقفك؟

ص : سوف أخبرك بعد لحظة. والآن لننظر في أمر أحد الأصدقاء الذين نفرت منهم . تقابله كل يوم ، تتحدث معه ، أو معها ، ثم تتناقص الموضوعات التي تستطيعان التحدث فيها تناقصا كبيرا وتخبو اهتماماتكما المشتركة بالتدريج ، ويصيبك الملل ، وترى علامات الملل ، أو عدم الصبر تتسلل إلى الطرف الآخر ، ويتغير سلوكك نحوه – ومن ثم يتغير ما تقوله عنه إلى الآخرين ...

س : أوافقك على حدوث مثل هذه الأشياء ، ولكن عندما تحدث أحاول البحث عن الأسباب.

ص : دعك عن الأسباب – فأنا أتحدث الآن عن العملية ذاتها. ربما يكون السبب في أن صديقتك تعرفت على أشخاص جدد ، أو غيرت من رؤيتها

ومن "معرفتها الضمنية" ، وقد يكون السبب أنك أنت قد تغيرت بسبب حدوث تحولات فسيولوجية لك أو لأنك شاهدت فيلما مؤثرا ، أو لأنك وقعت في الحب – لا أحد يدرى السبب. وأيا كان سبب التغيير ، فأنكما تتصرفان الآن بطريقة مختلفة ، والأهم من هذا ، تفكران وتتحدثان عن بعضكما بطريقة مختلفة

....

س : الآن فقط أدركت غرضك ! فأنت تريد أن تقول أن علاقتك بالعالم وبجوانبه الفيزيائية والاجتماعية تتغير كما تتغير علاقتك بالأشخاص.

ص : تماما. فعندما كتبت الطبعة الأولى من كتاب "ضد المنهج" Against Method عام ١٩٧٠، كان العالم مختلفا عما هو عليه الآن وكنت أنا مختلفا عما أنا عليه الآن ، ليس فقط اختلافا فكريا بل أيضا عاطفيا.

س : ولكنى لم أكن أقصد هذا بملاحظتى. فأنا لم أنتقدك لأنك غيرت من فلسفتك ، أو موقفك ، وإنما أنتقدك لأنك إما ليس لديك أى موقف على الإطلاق أو لأنك دائم التحول من موقف إلى آخر وفقا لمزاجك الشخصى. فاليوم تدافع عن التنجيم ، وغدا تغير موقفك وتقرظ ببولوجيا الجزيئات ...

ص : هون عليك فليس بهذه الحدة ...

س : على أية حال. دعنا نعترف بأن هناك تغيرات كثيرة تحيط بنا. فالطقس يتغير ، كما تحدث أيضا تغيرات هائلة كتلك التى حدثت بين العصر الجليدى وعصر المناخ الدافئ ، وتحدث أيضا تغيرات ذات مستوى أدنى كتلك التى تحدث بين الأيام المطيرة والأيام الصحوة المشرقة ، ويكتشف الناس صورا جديدة من صور المعادلات الرياضية ، ومن ثم يحاولون تكييف التغيرات التى تعتريهم مع تلك التى تحدث من حولهم ...

ص : تعنى أنهم يكيفون نظرياتهم مع الوقائع والصيغ الرياضية الجديدة ...

س : نعم. ومن هنا فمثال الصديقين الذين تحدثنا عنهما قد يكون أكثر تعقيدا ولكنه لا يختلف عن الوضع السابق من حيث المبدأ.

ص : وتعنى بهذا أننى أستطيع من حيث المبدأ أن أفصل بين ما يعتريني من تغير وبين ما يعترى صديقتى وأن أقدم تفسيرا موضوعيا لهذا التغير الأخير.

س : نعم.

ص : أستطيع ، مثلا ، أن أقول أن هناك ابتسامة حب "موضوعيـــة" ترتســـم الآن على شفتيها ، سواء أكان هناك من ينظر إليها أم لا.

س : نعم .

ص : ولكنك تعلم دون شك أن الوجه الواحد ، عند تعامله مع مواقف متباينة، يمكن أن يقرأ بطرق مختلفة .

س : ماذا تعنى ؟

ص : تخيل أن لديك لوحة مرسوم فيها وجه مبتسم. ضع الآن أسفل الرســـم التعليق الآتى: " ... أخيرا ضم طفله الصغير بين ذراعيه – ابنه. ابنه الوحيد! ثم نظر إليه بحنان وابتسم ... " – إن من ينظر إلى مثل هذا الرسم "ســيقرأه" باعتباره لشخص يضع ابتسامة حنان على وجهه.

س : ثم ماذا ؟

ص : ضع بعد ذلك التعليق الآتى أسفل نفس الرسم: " ... أخيرا وجد عـــدوه خاضعا ذليلا جاثيا أمامه على ركبتيه طالبا الرحمة. وهنـــا انحنـــى عليـــه بابتسامة قاسية قائلا..." – إن "نفس" الرسم سيقرأ فى الحالة الأخيرة باعتباره يعبر عن ابتسامة قاسية. فالوجه ، إذن ، يمكن قراءته بطرق متباينة كما أنـــه يتمثل لنا بطرق مختلفة ، وفقا للموقف ...

س : ولكن ...

ص : لحظة واحدة. دعنى أقدم لك بعض الأمثلة ! لقد وقعت فى فترة ســابقة فى غرام ملتهب مع سيدة يوغسلافية – وهى بطلة أولمبية سابقة.

س : لقد سمعت عن مغامراتك العاطفية.

ص : إشاعات خبيثة مغرضة بلا شك ! عندما بدأنا العلاقة كنت فى الثامنـــة والعشرين وكانت هى فى الأربعين. وعشنا معا بضع سنوات ثـــم انفصلنـــا. ذهبت أنا إلى إنجلترا ، ثم إلى الولايات المتحدة الأمريكية. ثم قمت بزيارتهـــا

عندما ناهز عمرها حوالى الستين عاما. ضغطت يومئذ على جرس الباب ، فأنفرج عن سيدة عجوز ممتلئة ، قلت لنفسى "آه لقد استأجرت صديقتى خادمة" – ولكنى اكتشفت أن تلك السيدة هى صديقتى وحالما أدركت ذلك ، تبدلت ملامح وجهها وتحول إلى ذلك الوجه الشاب الذى كنت أذكره. وإليك مثال آخر: تزوجت فى أمريكا من سيدة تصغرنى كثيرا – وكانت سيدة فى غاية الجاذبية. ولم يصادف الزواج نجاحا.

س : خطأك أنت ، دون شك !

ص : لا أظن أنه خطأ أحد على الرغم من أننى أعترف بأننى شخص صعب المعشر. على أية حال – بعد فترة لم تعد تبدو لى بنفس الجمال. وفى أحد الأيام الجميلة ذهبت إلى المكتبة لأتصفح قسم الدوريات وشاهدت ، من على بعد ، سيدة فى غاية الجاذبية فاقتربت منها بالطبع – ولكنى اكتشفت أنها زوجتى وفى اللحظة التى أدركت فيها ذلك ، تغير وجهها وأصبح مجرد وجه عادى.

س : مثل دون جيوفانى Don Giovani ودونا إيلفيرا Donna Elvira .

ص : نعم! هذه مقارنة ممتازة ! مثال ثالث. كنت أسير ذات مرة منذ عدة سنوات تجاه حائط معين فلمحت شخصا وضيع الهيئة يسير نحوى. فسألت نفسى من هذا الشخص الحقير الذى يسير نحوى ؟ – وبعدها اكتشفت أن الحائط الذى كنت أسير نحوه لم يكن فى واقع الأمر سوى مرآة كنت أنظر فيها إلى نفسى. وفى غمضة عين تحول ذلك الحقير إلى شخص مهذب ذى طلعة بهية ذكية. وهكذا ، فكما ترى ، لا يمكن أن تتحدث ببساطة عن ابتسامة "موضوعية" لشخص ما ، ولما كانت العلاقات الإنسانية تتكون من الابتسامات ، والإيماءات، والمشاعر ، فإن مفهوم الصداقة "الموضوعية" مستحيل استحالة القول بأن ضخامة الأشياء صفة لازمة فيها: فالأشياء تكون صغيرة أو كبيرة نسبة إلى أشياء أخرى ، وليس فى ذاتها. والابتسامة تكون ابتسامة لناظر معين ، لا ابتسامة فى ذاتها.

س : ولكن العلاقات يمكن أن تكون موضوعية - فنظرية النسبية تظهر لنا أن ...

ص : لا يحدث ذلك الأمر عندما تكون عناصر العلاقات التى حصلنا عليها متضمنة فى عملية تاريخية تقدم وقائع جديدة ! ففى هذه الحالة يمكننا وصف مرحلة معينة من مراحل العلاقة ؛ فنحن لا نستطيع التعميم ، لعدم وجود أساس دائم يحتوى على سمات دائمة يمكن ملاحظتها موضوعيا. يكفى أن تنظر فى تاريخ فن الرسم والتصوير فى الغرب ، من اليونان القديمة إلى بيكاسو ، وكوكوشكا[1] Kokoschka والمصورين الفوتوغرافيين المعاصرين. ولا تقع فى خطأ افتراض أن هذه الصور تكشف ما شاهده الناس عندما نظروا إلى الآخرين - فالروايات القليلة التى قصصتها عليك توضح ، بالنسبة لى على الأقل ، أنه من المستحيل أن أعرف كيف تنظر إلى ، أو كيف أرى نفسى ، ومن ثم لن أعرف أبدا من أنا على وجه "الحقيقة" ، أو أن أعرف من هو أى شخص فى "الحقيقة". إن كل محاولات تحديد الذات، فى تقديرى ، تنجح فى تشخيص جانب واحد فقط ، ولا تكشف عن "حقيقة" مستقلة. ويتحدث برانديللو Pirandello كثيرا عن هذه الأمور ، فهو يقول ، على سبيل المثال ، فى Enrico IV : " لا أريد منك أن تفكر ، كما فعلت أنا ، فى هذا الموقف الرهيب الذى يقود المرء إلى الجنون: أعنى عندما تكون بجوار شخص آخر ، وتنظر فى عينيه - كما نظرت أنا ذات يوم فى عينى شخص بجوارى - فقد تتحول إلى متسول أمام باب لا ينفتح لك أبدا : لأن من سيدخل من هذا الباب لن يكون أنت ، بل سيكون شخصا غير معروف لك له عالمه المختلف الذى لايمكنك اختراقه". ومن ثم فكل ما تستطيع أن تقوم به هو أن تقدم تقريرا عن إنطباعاتك ، وتزوده ببعض الملاحظات وتأمل فيما هو أفضل.

س : ولكن هذا هراء.

---

[1] (١٨٨٦-١٩٨٠) رسام نمساوى ينتمى إلى الحركة التعبيرية فى فن التصوير.

ص : بالطبع هو كذلك ! فنحن نعيش فى عالم كله هراء !

س : انتظر لحظة ! انتظر لحظة ! نحن نتحدث عن هذه الأمور وقد وصلنا إلى نتائج. دعنا نتحدث عن أحد الممثلين - يبدو أنك تحب نجوم التمثيل.

ص : أحبهم بكل تأكيد. فهم يخلقون نوعا من الوهم ويعرفون أنه كذلك بينما لا يعرف أحد من فلاسفتك إلا القليل عن فن الماكياج - وأنا أقصد هنا الماكياج الفكرى - بينما يعانى من خداع توصله إلى الحقيقة.

س : حسنا ، من الواضح أننى لا أتفق معك - ولكنى لا أريد مناقشة الأمر. ما أريد أن أقوله هو أن ملاحظتك السابقة تفند افتراضك عن السخافة واللامعقولية. فالممثل يخلق وهما كما تقول. كيف يمضى فى ذلك ؟ إنه يبدأ بفكرة عامة عن الشخصية التى سيلعب دورها ، ويفكر فى تفاصيل كثيرة خاصة بها كالإيماءات ، والطريقة التى تسير بها الشخصية، ولزماتها أثناء الحديث ؛ ويستخدم الماكياج بعناية شديدة لتقليد ملامح الوجه. ويكون له هدف، وإجراءات ، وطريقة للحكم على النتائج. إن القضاة ، والمحامين ، والخصوم ، والمتهمين يفعلون ما يفعلون ويقولون ما يقولون لأنهم يدركون ما يحدث أمامهم فى المحكمة ؛ وأنت تستجيب لما أقول بطريقة معينة لأنك تعتقد أن ملاحظاتك لن تقنعنى ، أو ستحولنى إلى صفك ...

ص : ما أبعد هذا عن تفكيرى ! فأنا ليس لى "صف" وحتى إذا كان لى مثل ذلك ، فلا أرغب أن يكون مزدحما بالغرباء ...

س (كما لو لم يسمع) : ... على أية حال ، نحن نسلم بوجود فهم معين ، على الرغم من أنه لا يكون أبدا مكتملا ، وبوجود اتفاق ، أو اختلاف ، على الرغم من عدم وجود يقين ، ولكنك تريد أن تقترح الآن أن كل هذه الأمور لا تقوم على أساس.

ص : نعم هى كذلك ! فأنت تستدل من بساطة العملية إلى بساطة وشمول العناصر المستخدمة فيها ...

س : أنا لا أقول أن العملية بسيطة – فقد تمر شهور قبل أن يعثر الممثل على الأفكار والحركات الجسدية الصحيحة ، تماما كما أن الإعداد للحكم في أي قضية يأخذ عدة سنوات !

ص : أتفق معك في ذلك – فهي قد تستغرق شهورا أو حتى سنوات ! ولكن هناك اتفاق على الخطوات ، بل يستطيع الممثل أن يشرح أهدافه إلى الآخرين، ومن ثم يصل إلى النتائج المرجوة. هذا ما ذكرته أنت. أما أنا فأقول إن العناصر التي تدخل في عملية التمثيل تختلف من مشارك إلى آخر وتتباين بطريقة بعيدة عن التحكم أو الاستبصار. فالحوار ، إذن ، ليس نزهة في طريق معروف المعالم ؛ إذ أن كل جزء من أجزاء الطريق يمكن أن يتحول إلى شعاب غير مطروقة وحتى إذا لم يكن الأمر كذلك ، أي حتى لو كان هناك أساس متين بينك وبين الآخرين ، فكيف تتأكد من أن الأمر ليس حلما أو ، قل ماهو أسوأ ، من أنك لا تتحدث أثناء النوم بينما يعتقد الآخرون أنك مستيقظ تستجيب لخيالاتك.

س : إن لك بكل تأكيد أفكارا في غاية الغرابة – فأنا لا أعرف حتى من أين أبدأ !

ص : لنترك الأمر على النحو الآتي: أنا أرى في الأمر سلسلة من المعجزات بينما أنت ترى تقدما منظما يمضي من فكرة أو عمل معين إلى ما يليه.

س : إذا كنت أفهمك فهما صحيحا فأنت لا تزعم أن هذا يحدث أحيانا وإنما تقول أنه يحدث دائما ، ومن ثم فكل ما يمكن أن تقوم به هو أن تصف إنطباعاتك وتأمل في الأفضل.

ص : لقد بدأت تفهم.

س : إذن فالناس معذورون إذا لم يأخذوك مأخذ الجد.

ص : أظن أنك تعني بكلمة الناس في هذا الموضع الفلاسفة ؟

س : بل وأيضا علماء الاجتماع ، وكل كائن عاقل تقريبا.

ص : هل تعني الشعراء أيضا ؟

س : هل تعتقد أنك شاعر ؟

ص : كنت أتمنى لو أن لدى موهبة الشعراء – ولكن أنظر: هناك العديد من الناس الذين يصفون إنطباعاتهم فى قصائد شعرية ، ومسرحيات ، وصور ، وروايات – وهذه الإبداعات ليست للقراءة فقط ، وإنما تقدم شيئا ما ، فنحن نستطيع أن نتعلم منها ، ومن الطريقة التى تصور بها العالم ...

س : ولكنك قلت منذ برهة لا يوجد إلا الوهم والمعجزات !

ص : هل سبق لى أن قلت هذا ؟ إذن فقد عبرت عن نفسى بطريقة سيئة. فالحديث عن الوهم يفترض نوعا من "الحقيقة". ولكنى قلت فعلا أن المعجزات تنتشر فى كل مكان ، وأن التعلم هو أحد هذه المعجزات.

س : دعنا إذن ننسى حديثك عن المعجزات ونتحدث فقط بطريقة مستقيمة واضحة ، كما يفعل الآخرون – وإذا وافقت على هذا ، فيجب على إذن أن أنتقد محاولتك الحصول على معلومات من مصادر خاطئة.

ص : مصادر خاطئة ؟

س : نعم ، فالمسرحيات ، والصور ، والقصائد تنتمى إلى عالم الفن ، وليس لها صلة تذكر بالمعرفة.

ص : هذا رأيك ، ولكن لماذا يتعين على أن أقبل طريقتك فى تقسيم ما يقوم به الناس من أعمال؟ خاصة إذا وضعنا فى الاعتبار ، مثلا ، وجود حكمة بليغة متضمنة فى محاورات أفلاطون وقصص شنجتس Chuangtse وروايات تولستوى ، وقصائد بريخت. هل سبق لك أن قرأت قصيدة بريخت: " إلى أولئك الذين يولدون بعدنا " ؟ إنها تصف انطباعا. ولكن يا للدرس المؤثر الذى يمكن أن نتعلمه منها !

س : أنت تخلط كل المقولات. أنا أعترف ، بالطبع ، أن هناك حكمة فى هذه القصص ، والمحاورات ، والروايات ، ولكن المعرفة الحقيقية...

ص : ها أنت تعود مرة أخرى إلى تقسيماتك! الحكمة فى مقابل "المعرفة العقلانية"...

س : ولكن ثمة تمييز حقيقى هنا ! لقد أدخل الفلاسفة الغربيون هذا التمييز فى بادئ الأمر لأنهم أرادوا استبدال الشعر ، الذى كان يعنى عندهم شعر

هوميروس ، بما هو أفضل. فأقوال الشعراء عندهم كاذبة، كما أنهم يستثيرون المشاعر ، ولا يقومون بواجب أعداد النـــاس للقيـــام بأعمـــالهم كمواطنيـــن مسئولين.

ص : هذا يثبت وجهة نظرى ! **فشونجتس** ، وهوميروس ، وهزيود من جهة وهرقليطس ، وبارمنيدس الخ. من جهة أخرى لا يصنعون أشـــياء متباينـــة ، وإنما هم يتنافسون معا. إن أفلاطون نفسه يتحدث عن "الـــنزاع القديـــم بيـــن الفلسفة والشعر". فكلا الفريقين يقدم صورا عن العالم ودور الإنســـان فيـــه ، ولكن الصورة الشعرية ، فى رأى الفلاسفة ، غير واضحة وكاذبة. وســـؤالى الآن هو: هل الصورة الفلسفية وما يترتب عليها ، أعنـــى الصـــورة العلميـــة بمفاهيمها المجردة وقوانينها الصارمة ، أفضل كثيرا (من صـــور الشـــعراء). هل أدوات الحكمة التى تطورت عـــن عقلانيـــة بـــارمنيدس ، وأفلاطـــون ، وأرسطو ، وكانط الخ ، أكثر إقناعا وإشباعا من أدوات المعرفة التى يقدمهـــا بريخت ، أو تولستوى ، بحيث نستطيع تجاهل الأخيرة ؟

س : ولكننا لا نتجاهلها ! فهى ما زالت تعيش وتزدهر بيننا ، ويتم تعلمها فى مدارسنا...

ص : نعم ؛ ما زالت موجودة ؛ ويتم تعلمها. ولكن الأمر مقصور على فئـــة معينة! وهى التى يطلقون عليها "الفنون" ، وتتلخص النظرية (أعنى التفســـير الذى تقدمه الفئة العقلانية) فى القول بأن الفكر "العقلانى" يقدم لنا معلومـــات "موضوعية" ، بينما لا تقدم الفنون ذلك. فالمعرفة ليست أحد وظـــائف الفـــن. فأنت تقرأ فى دروس علم النفس عن التجارب والنظريات ، ولكنـــك لا تقـــرأ عن تورجنيف[١] Turgenev.

س : لا يوجد من الفنانين من يســـتطيع أن يحـــل محـــل علمـــاء الفيزيـــاء المعاصرين.

---

[١] إيفان تورجنيف (١٨١٨-١٨٨٣) أحد أشهر كتاب الرواية الروس.من أهم أعماله:آبـــاء وأبناء ، الدخان.(المترجم)

ص : لا يمكنك التعميم من حالات متطرفة...

س : ولكن ألم تفعل أنت نفس الشيء ؟ عندما حاولت أن تجعل الفنون تطغى على كافة مجالات المعرفة ؟

ص : كلا ، على الإطلاق. فأنا كنت أعنى أن الفنون تتضمن بعض المعرفة وأنه لا توجد لكل معلومة تصدر عن العلم معلومة مطابقة في مجال الفن. لماذا – لأن هذا الأمر لا يصدق حتى على العلم ! فليس كل كشف يقع في مجال علمي معين يمكن على الفور نسخه أو تطويره إلى مجال علمى منافس. لقد بينت لنا المناهج الفينومينولوجية عن عمليات النقل وعدم القابلية للعكس Transposition and irreversibility ! ويستطيع علماء النفس ، وعلماء البيئة ، وخبراء العلاقات الإنسانية ، أن يتعلموا الكثير من الشعراء ، وكتاب القصة ، والممثلين من أمثال ستانسلافسكى Stanislavsky ، وكتاب الدراما من أمثال إسخليوس Aeschylus ، وليسينج أو بريخت ، أو حتى بيكيت[1] Beckett، على الرغم من عدم تفضيلى لبيكت.إستمع إلى القصة الآتية التى يرويها لنا شنجتس Chuangtse:

> كان إمبراطور الجنوب يسمى "شو"Sho وإمبراطور الشمال "هو" Hu(وتعنى الكلمة الأولى سريع جدا، والثانية فى لمح البصر) أما إمبراطور الوسط فيسمى "هن – تون" Hun-t'un ومعناها الفوضى. وذات يوم زار إمبراطور الجنوب وإمبراطور الشمال مملكة إمبراطور الوسط وتقابلا مع هن ـ تون ، الذى استقبلهما استقبالا حافلا. وتشاور "شو" و "هو" في كيفية التعبير عن شكرهما له. ثم قالا: "لكل إنسان سبع فتحات – عينان ، وأذنان ، وفم ، وأنف – يستخدمها فى الرؤية ، والسمع ، والأكل ، والتنفس. أما "هن ـ تون"

---

[1] صموئيل بيكت (١٩٠٦–١٩٨٩) كاتب قصة ومسرح وشاعر ايرلندى.من أهم أعماله: فى انتظار جودو.حصل على جائزة نوبل عام١٩٦٩(المترجم).

فعلى خلاف البشر ، أملس ناعم ليس له فتحات. لابد أنـــه
يشعر بالنقص. دعنا ،إذن ، عرفانا بـــالجميل ، نحـــاول أن
نصنع له بعض الفتحات". وهكذا ظلوا يصنعون له كل يوم
فتحة جديدة ؛ غير أنه مات فى اليوم السابع.

ألا تعد هذه القصة تشبيها رائعا للاستعمار ولبعض أشكال "التنمية" –فيما عدا أن الدافع فى حالة الاستعمار ليس العرفان بالجميل وإنما الوقاحة والجشع.

س : لا أرى الارتباط بين الأمرين.

ص : حسنا ، لا ينفعل جميع الناس نحو القصة الواحدة بنفس الصورة. فأنـــا شخصيا تأثرت بها تأثرا شديدا وأدركت على الفور الارتباط بينهما.

س : هذا يعنى أننا لا نتعامل مع معرفة وإنما مع إنطباعات ذاتية.

ص : أطلق عليها ما شئت من مسميات – ولكن هذه العملية تلعب دورا هاما ، حتى فى مجال العلوم.

س : لا أصدق ذلك!

ص : هل سمعت عن نظرية الخيوط العظمـــى Superstrings ، والنظريـــة التى يطلقون عليها "نظرية كل شئ" everything Theory of؟

س : سمعت هذه الكلمات – ولكن لا أدرى عما تتحدث.

ص : إنها مجرد محاولة ، والبعض يراها محاولة ناجحة جـــدا ، لاســتنتاج خصائص المكان ، والزمان والمادة من نظرية جوهرية واحدة. وهذه النظرية غير مكتملة ، فهى لا تقدم لنا شيئا عن الكتل المعروفة للجزيئـــات الأوليـــة ؛ غير أنه يترتب على القول بهذه النظرية نتائج هامة جدا. ويعتقد الكثير مـــن علماء الفيزياء أن الكشف عن تفاصيلها مجرد مسألة وقت. غـــير أن هنـــاك علماء فيزياء يقولون إنها نظرية "مجنونة تمضى فى طريق خاطئ". ويقـــول

عنها ريتشارد فيمان[1] Richard Feyman فى مقابلة مع إذاعة الـ BBC تم نشرها فى كتيب صغير بعنوان: **Syperstrings, P.C.W. Davis and J. Brown (eds.) cambridge university Press, 1988.**

" لست معجبا بعدم حسابهم لكل شئ. كما لا أحب عدم مراجعتهم لأفكارهم. ولا أحب اصطناعهم تفسيرا لكل ما لا يتفق مع التجربة – كما لا أحب قولهم ربما كانت هذه التفسيرات صادقة..." وهكذا دواليك.

س : حسنا ، أليس هذا نقدا صحيحا ؟

ص : نعم ولا ! إذ لا توجد أبدا نظرية مكتملة ، فكل نظرية يمكن أن تنجح إذا أجرينا عليها بعض التحسينات ، وينطبق نفس القول على كل قصة. كما أن أى نظرية تواجه فى مراحلها المبكرة وقائع متعارضة، ولعلك ، قد تستمر هذه المراحل المبكرة عدة شهور ، أو سنين وربما قرون.

س : قرون ؟ هل لديك مثال على ذلك ، أم أنك تبالغ كعادتك ؟

ص : كلا ، بل لدى مثال: فقد بدا سلوك (مسار) المشترى وزحل بعيدا عن مدى "تفسيرات" نظرية نيوتن حتى عثر "لابلاس" Laplace على الحل. وقد أدرك نيوتن ذلك التعارض واستغله كحجة للبرهنة على التدخل الإلهى. بل ولدى مثال آخر أفضل من المثال السابق: كانت النظرية الذرية معروفة منذ القرن الخامس قبل الميلاد ، وقد فندها أرسطو...

س : هل فند أرسطو المذهب الذرى ؟

ص : كانت له حجج ممتازة ضد ذلك المذهب ، وهى حجج مستمدة جزئيا من الحس المشترك ، وجزئيا من الفيزياء التى سادت عصره. ولم يكن أرسطو بأى معنى من المعانى آخر كاتب يحاج ضد هذا المذهب ، فقد استمر العلماء

---

[1] ريتشارد فيمان(١٩١٨-١٩٨٨) فيزيائى أمريكى ، أحد رواد ما يسمى بأبحاث الديناميكا الالكترونية الكوانتية. حصل على جائزة نوبل فى الفيزياء عام ١٩٦٥. من أهم أعماله كتاب:طبيعة القانون العلمى١٩٦٧. المترجم

فى مهاجمته حتى القرن التاسع عشر. بل ومازال بعض الناس الأذكياء جدا ، مستمرين فى نقده.

س : ربما كانت المذهب الذرى ناجحا.

ص : لقد كان ناجحا ، إلى حد معين ؛ ولكن بدائله كانت ناجحة أيضا. وقد واجه المذهب الذرى ، من ناحية أخرى ، صعوبات عديدة ، ذات طبيعة امبريقية وصورية. وهكذا فالعلماء الذين اختاروا النظرية الذرية إما أنهم تصرفوا بطريقة لا عقلية تماما وان كانوا على الرغم من ذلك محظوظين – مما يبين فائدة أن تكون لاعقلانيا – وإما أنهم اقتنعوا بحجج ذات طبيعة لا – امبريقية ولا – صورية ، أى باختصار ، اقتنعوا بما يطلق عليه الكثيرون اسم الاعتبارات الميتافزيقية. ويمكن تدعيم الموقفين بأمثلة مختلفة: فالعلماء المختلفين يستخدمون روايات مختلفة لتدعيم موقفهم: فإذا كانوا "لاعقلانيين" فسيختارون الرواية التى تروقهم. أما إذا اختاروا أسلوب الحجج ، فيكونوا قد اختاروا أيضا رواية يستخرجون منها درسا لا يراه الآخرون. أما بالنسبة إلى العالم يوكاوا[1] Yukawa الذى تنبأ بالبي – ميزون Pi-meson ، فإن الرواية التى ذكرتها سابقا تعد بالنسبة له تشبيها رائعا للموقف عند مستوى الجزيئات الأولية.

س : أعتقد أنك تستنتج استنتاجات خاطئة من بعض الوقائع الواضحة. من قبيل أنه لما كان ينبغى على العلماء أن يأكلوا ، فإن الطعام يلعب دورا ما فى أبحاثهم. أما أنا فلا أرى للطعام علاقة بالبحث ، أو أنه عنصر من عناصر البحث. قد تلعب قصتك بهذا المنطق دورا فى البحث العلمى ...

ص : انتظر برهة ، عليك أن تكون حذرا – فأنت فى محاولتك الحفاظ على عقلانية العلم تجعله أكثر لاعقلانية.

س : ماذا تعنى ؟

---

[1] هيدكى يوكاوا(١٩٠٧–١٩٨١) عالم فيزياء يابانى، أول يابانى يحصل على جائزة نوبل فى الفيزياء عام ١٩٤٩.أول من تحدث عن الميزون meson .المترجم

ص : لقد قدمت لك الروايات لأنها تتكون من كلمات ونحن نتجادل بالكلمات وعندما نهبط بهذه الروايات إلى مستوى الطعام ، او النعـــاس . فـإن هـذا يتضمن أن القرارات العلمية الهامة والمجالات الكبرى فى البحث بعيدة عــن نطاق البرهنة والحوار . أو ، إذا سمحت لنفسى باستخدام تعبيرك الـــلاذع ، يتضمن لاعقلانيتها.

س : لا أفهم ماذا تريد ؟

ص : لا تنسى إننا نتحدث عن موقف يضطر العالم فيه إما أن يختار نظريـــة من بين نظريتين غير دقيقتين من الناحية الامبريقية والصورية أو أن يفضـــل تخمينا غير دقيق من الناحية الامبريقية والصورية على نظرية قوية راسخة. وفى مثل هذا الموقف نستطيع القول بأن الاختيار كان لاعقلانيا ، أو أن هناك أسبابا أخرى للاختيار ، على الرغم من أن أسباب الاختيار ذاتهـــا لا تكـون امبريقية ولا صورية – أو "علمية" ، كما يـــروق للبعــض أن يقـول. والآن الاختيار لك. هل تريد أن تقول أن العلماء حين يفاضلون بيـــن النظريـــات لا يكون لديهم أسباب للمفاضلة وإنما يتبعون أهواءهم ؟

س : سيكون من الأفضل إذا استطعنا أن نبين أسباب اختيارهم.

ص : ولكن ما هى تلك الأسباب ؟ فالصياغة خاطئـــة ، والأدلـــة عدائيـــة – والعلماء يعرفون ذلك. وهم مع هذا يأملون فى النجاح. ويتضمن هذا القول أن لديهم (أ) وجهة نظر تختلف عن الصياغة وعن مدلول الدليل، وأن لديهم (ب) نبوءة أو إلهاما بخصوص تاريخية وجهة نظرهم. كما أنهم يحتاجون إلى (ت) أفكار معينة لاختبار وجهة النظر المذكورة ، كالتسامح مع الأدلة المعارضـــة وعدم الاتساق. بعبارة أخرى يكون لديهم ميتافيزيقا ، ونبوءة وأسلوب.

س : أتعنى أن تلك الروايات لاقياسية incommensurable ؟

ص : كلا على الإطلاق ؛ فالأشخاص المتعارضون يستطيعوا ، إذا أتيح لهم الوقت المناسب ، أن يشرحوا وجهات نظرهم . ولكن التفســـير الآن مفقــود والروايات غير مفهومة ؛ هذا كل ما هنالك وهذا الأمر يقع فى العلم ، وفـــى السياسة ، بل هو فى الواقع ، يحدث فى كل مكان

س : ولكنى ما زلت غير مقتنع برواياتك عـــن شـــنجتس Chuangtse. وإن كنت أحاول أن أفهم فحواها - ولنفترض أننى أعرف فحواها ؛ وافترض أننى أرى بالفعل علاقة ما فى التطور المذكور. فسيبقى أن ذلك يزيد من جرعـــة الانفعالات الغامضة على الموقف.

ص : يا إلهى ، ارحمنا من خطابة العقلانيين ! إن روايتى يمكـــن فعـلا أن تضفى مزيدا من الإثارة على الموقف كله ، ولكن هذا يوضـــح الموقـــف ولا يزيده غموضا. فالعواطف والروايات ذات التأثير العاطفى أدوات قوية لخلـــق منظور جديد واضح - فمن يقوم بالتطوير يظن أنه يفعل العديد من الأمـــور الحسنة ؛ ولكن بعد أن يقرأ الرواية - تبدو الأشياء مختلفة بالنسبة لـــه. هـل تذكر موضوع الميكروسكوب الذى ناقشناه منذ أكثر من عشر سنوات ؟

س : لست متأكدا ...

ص : حسنا سبق أن أخبرتك ، وقد وافقتنى على ذلك ، إن الشـــخص الـــذى ينظر فى الميكروسكوب لأول مرة قد لا يرى أى شئ محدد، مجرد خليط من الخطوط والحركات. وقد قام هذا الشخص بقراءة الكتب العلمية المعروفـــة ، وشاهد فيها رسومات رائعة لمخلوقات ممتعة، ولكنه لم يعثر على أى أثر لهذه المخلوقات فى مجال رؤية الميكروسكوب. وكان عليه أن يتعلم رؤية الأشياء بطريقة جديدة. كما سبق وأن أخبرتك أن الرفض المبكر لقبول الملاحظـــات التلسكوبية لجاليليو يمكن تفسيره جزئيا على الأقل باستخدام نفـــس الظـــاهرة السابقة. أما فى مجال العلوم الاجتماعية - ومجال الاتصالات العلمية أيضـــا - فليس لدينا تلسكوبات ، ولاميكروسكوبات ، كـــل مـــا لدينـــا غرائزنـــا ، واعتقاداتنا ، ومعرفتنا المزعومة وإدراكاتنا. وهى معرفة قد تغير العواطـــف القوية منها وتجعلنا من ثم نرى الأشياء بمنظور جديد. وفى محاولـــة علمـــاء الاجتماع الجادة إلى محاكاة ما يعتقدون أنه إجراءا علميا سليما ، يســـتبعدون كل الوسائل "الذاتية" للتعليم ومن ثم يخفون عن أنفسهم وعن الآخرين بعـــض الجوانب الهامة للعالم ؛ فهم فى سعيهم نحو "الموضوعية" ألقوا بأنفسهم فـــى سجن الذاتية. تسألنى لماذا ؟ أقول لك حتى علمـــاء الفيزيـــاء تعلمـــوا مـــن

"شنجتس". كتب العالم "يوكاوا" يقول: " من المرجح أن أكثر الأمــور أهميــة ليس له صورة ثابتة ولا يتطابق مع الجزيئات الأولية التي نعرفها الآن" ثــم يضيف بعد ذلك: "إن للكتب بريقا يتبدى بطرق عديدة ، غير أنني مغرم على وجه الخصوص بالأعمال التي تخلق عالما خاصا ، والتي تنجح ، ولو لفــترة محدودة ، في جذب انتباه القارئ ". وبعد هذا يتحول القــارئ إلــى شــخص مختلف له علاقة وأفكار مختلفة عن العالم. ويماثل ذلك نفس التطــور الــذي يحدث عندما يتقابل شخصان ويتعارفان ويتصادقان ثم ينقلبان غربــاء مــرة أخرى. كما أن بعض جوانب علم الفيزياء تشهد الآن تغيرات تقلص بدرجــة كبيرة المسافة بين الفنون ، والإنسانيات والعلوم.وتبين الدراسات الحديثة فــي تاريخ العلوم أن مثال الصداقة الذي تحدثنا عنه من قبل، إذا فسرناه تاريخيا ، لا "موضوعيا" ، لن يكون مستبعد الحدوث.

س : عما تتحدث ؟

ص : لقد درس المؤرخون التسلسل الفعلي للأحداث التي تنتقل مــن مشــكلة علمية إلى حدس تخميني إلى حسابات فينومينولوجية إلى امتــلاك الأدوات ، إلى الإعداد للتجربة ، إلى القيام بالمحاولة ، إلى تقييم المعطيات ، ثم عــرض النتائج والقبول النهائي لها ليس من كل العلماء ، وإنما من معظــم أعضــاء مجموعة صغيرة ذات معرفة وثيقة بالمشكلة (أما بقية المجموعة فتقبل النتائج أو ترفضها وفقا لأسس مختلفة). كما درس المؤرخون هذه السلســلة مــن الأحداث باستخدام الرسائل ، وطبعات الكمبيوتر ، وسجلات عمليات التحويل، وتقارير الاجتماعات ، والمذكرات والمقابلات الشخصية ، ولم يقتصر الأمــر على الأعمال المكتملة ، أي على الكتب والسير الذاتية ، كما فعل المؤرخــون القدامى. وقد اكتشفوا بعد المضي في هذه العملية إنها مؤقتة ، وغير صريحة، بل تحتوي ، في واقع الأمر ، على معظم ما يحدث عندما يتصادق شخصان ، ويفترقان ، ويصبحان غرباء كما في مثالنا المذكور.

س : هذا عين ما قاله بوبر. فقد قال إننا نبدأ عند معالجة مشكلة معينة بتخمينات ، وإن هذه التخمينات تكون مؤقتة ، ثم نراجع هذه التخمينات بغرض تفنيدها ...

ص : وهو أمر لا يحدث أبدا فى أى فترة حاسمة من فترات البحث العلمى. ربما تكون لدينا تخمينات ، ولكن العديد منها غير مقصود كما أنها تتغير ويتم استبدالها دون مناقشه واضحة ، ويتم ذلك ببساطة باعتبارها جزءا من عملية كلية للتكيف. وعليك أن تلاحظ ، أن التكيف لا يتضمن كيانا صوفيا ، يسمى "الحقيقة الموضوعية" ، وإنما يتضمن علاقات حقيقية بين الناس والأشياء. فهو يتضمن زملاء الدراسة ، والمال الوفير ، والقيود المالية ، وقيود الوقت المحدد ، والمحيط الدائم لتغير الصيغ الرياضية ، وتقارير لجان الإشراف البعيدة ، وقدرة أجهزة معالجة المعطيات ، الخ بل حتى السياسة تلعب فى ذلك دورا هاما . وتقع ظواهر شبيهة بمثال تغير الابتسامة الذى تحدثنا عنه من قبل من الرقة إلى القسوة فى كل مراحل هذه العملية. فعندما تجرى التجارب على المستوى الأدنى فإن العلاقة "الشخصية" بين المجرب وأدواته تلعب دورا حيويا – اقرأ فى ذلك ما كتبه هولتون Holton حول النزاع المعروف باسم Ehrenhaft dispute فالمجرب "يعرف" أدواته. ويمكنه كتابة جزء من المعرفة الكامنة وراء التجارب ، غيرأن جزءا كبيرا منها يظل حدسيا ، لأنه محصله لعملية تعلم تتشابه كثيرا مع الطريقة التى نتعلم بها الرقص ، أو قيادة السيارة ، أو تحدث لغة معينة ، أو التعامل مع شخص صعب المراس. إقرأ فى ذلك كتاب ميكل بولانى Michael Polanyi : "المعرفة الضمنية" Tacit Knowledge. واليوم إزداد الموقف تعقيدا بوجود أدوات هائلة معقدة تستخدم فى إجراء التجارب ووجود فرق كاملة لإجراء البحوث. لقد كتب " بيتر جاليسون"Peter Galiso كتابا هاما هو: The way Experiments End ، يبين فيه مدى كذب وزيف ما كان يسمى بعملية " إعادة البناء العقلانى" rational construcrtion. أنصحك بقراءة ذلك الكتاب. إن كل ما تستطيع أن تفعله ، إذا اردت حقا أن تكون صادقا ،

هو أن تحكى رواية ، على ألا تتضمن روايتك عناصر مكررة تتشابه مع عناصر أخرى فى نفس الميدان أو فى ميادين أخرى. لقد اعتاد الفلاسفة (وبعض العلماء أيضا) أن يرتقوا بالتشبيهات إلى مرتبة المبادئ وأن يزعموا: (١) أن هذه المبادئ تكمن وراء كل استدلال ، (٢) وأنها السبب فى نجاح العلم (٣) وأن العلم ، من ثم ، يستحق مكانة مرموقة مركزية فى ثقافتنا. (١) و (٢) كاذبتان وكذلك (٣) وكذلك النتائج المستمدة منها.

س : هل تنكر وجود نظريات وأن العديد من المجربين والمنظرين الذين يعملون فى مجالات مختلفة كثيرا مايستخدمون نفس النظريات فى أبحاثهم ؟

ص : لا أنكر ذلك على الاطلاق – ولكن السؤال هو: ما هو الشىء الذى يبقى كما هو دون تغيير ؟ إن نظرية نيوتن التى قدمها فى كتابه "المبادئ" Principia ليس لها إلا علاقة واهية بحساب الاضطرابات السماوية perturbations التى قدمها فيما بعد ، وكلاهما يختلف عن ميكانيكا القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (فالصيغة القائلة أن القوة تساوى الكتلة مضروبة فى نسبة التغير فى السرعة لا تجدها أبدا فى كتابات نيوتن). وتختلف هذه النظريات أيضا عن "الميكانيكا الكلاسيكية" للنسبيين ومنظرى الكوانتم. إذ يكون لدينا فى هذه الحالة قصة لها محور core معين ولكنها تتغير بطرق عديدة، اعتمادا على المواقف التاريخية التى تحدثها من قبيل حدوث: (أ) اكتشافات جديدة فى الرياضيات ، (ب) نتائج جديدة للملاحظات ، (ت) أفكار جديدة عن "طبيعة المعرفة". وتعتبر فيزياء الجزئيات المعاصرة بمثابة سباق حواجز يجرى فى مضمار تتحدد معالمه بمجموعة قليلة من المبادئ العامة وتحديدات دائمة التغير تختص بافتراضات ووقائع معينة ، وأدوات رياضية ، الخ. إن نظرية النسبية العامة الموصوفة فى "نظرية كل شىء" ليست هى نفسها نظرية النسبية العامة التى قدمها أينشتين عام ١٩١٩ ،الخ. فأينما ننظر نجد تطورات تاريخية معقدة ومتشابكة – ولا شىء آخر. أنا أعترف بأن مثال الصداقة الذى ذكرته من قبل مفرط إلى حد ما فى البساطة ، ولكنى أعتقد أنه يبين لنا خصائص هامة لهذه العملية وهذا هو كل ما أريد. بل إن العلوم

الاجتماعية أقرب إلى مثالى الذى ذكرته – وفى واقع الأمر ، أنـا أزعـم أن ذلك المثال يقدم للعلوم الاجتماعية نموذجا أكثر واقعية من النظريات السـائدة الآن. ولقد أدرك بعض العلماء فى مجال العلوم الاجتماعية هذا الأمر وتحولوا إلى قص الروايات بدلا من اقتراح النظريات. والمثال على ذلك كتاب بـول ستار Paul Starr الرائع " التحولات الاجتماعيـة للطـب الأمريكـى"**The Social Transformation of American Medicine(Basic Books,New York, 1982).** وهو الكتاب الذى انتقده بغباء وجهـل مهـاويس النظريـات باعتباره "لا–علمى" و عرضى episodic ، الخ. حسنا نعم هو عرضـى – ولكن ينبغى أن نضيف إلى ذلك أن التفسيرات الحقيقة الوحيدة هى التفسيرات العرضية...

س : إذن فأنت ضد النظريات ؟

ص : كلا ، أنا لست ضد النظريات ، وإنما ضـد التـأويلات الأفلاطونيـة للنظريات تلك التأويلات التى تعتبرها أوصافا لخصائص أبدية دائمة للكون.

س : ولكن من الضرورى وجود خصائص أبدية دائمة ...

ص : إن تعبير "من الضرورى" هو المبرر الذى يستخدمه أولئـك الذيـن لا حجة لديهم .

س : ماذا عن علم الفلك ؟ وماذا عن النجاحات العظيمة لنظريـة النسـبية؟ وماذا عن برنامج غزو الفضاء ؟

ص : ماذا عنها ؟

س : إنها تشكل نجاحا حقيقيا مؤكدا.

ص : نعم ، هناك نجاح – ولكن أى نجاح ؟ لقد حقق أرستوفان نجاحا عظيما للمشاهدين القدماء. فقد نجح فى سبر غور أمزجتهم ورد فعلهـم للصـور ، والسطور ، والشخصيات. كما حصل على عدة جوائز. وتختلف مسـرحياته المبكرة عن المتأخرة ، ويرجع ذلك جزئيا إلى تطوره وجزئيـا إلـى تطـور مشاهديه. وأنا أعتقد أن العلماء يفعلون نفس الشىء.

س : ولكن العلماء لديهم نظريات ...

ص : إنهم على وعى بالاطراد ، تماما كما كان أرستوفان على وعى بـــه – فقد عرف أرسطوفان إطراد ونظام اللغة اليونانية. وفضلا عن وعي العلمـــاء بالاطراد ، فإنهم يقومون بصياغة هذا الاطراد واختباره، في بعض مراحـــل البحث على الأقل. أما أرستوفان فلم يصيغ الاطراد اللغوى الذى عرفه ، فهو لم يكن عالما فى النحو ، ولكنه اختبر الاطراد عن طريـــق إجـــراء بعـــض التغييرات ثم وضع النتائج أمام المشاهدين. وتلك هى عين الطريقة التى يتقدم بها عالم الانثروبولوجيا حين يدرس جماعة لم تدرس من قبل. فهو يفعل هذا، وذاك – وربما يلقى حتفه أثناء البحث ، كما لقـــى وليـــام جونـــز William Jones حتفه بواسطة الالينجوت Ilongot. وربما يعيش ليكتب كتابا كمـــا فعلت ميشيل روزالدوMichell Rosaldo فى كتابهـــا:Knowledge and passion . ويكمن الاختلاف بين أرستوفان وأى عالم أنثروبولوجيا فـــى أن أرستوفان (١) لم يقم بصياغة نتائج محاولاته فى مصطلحات مجـــردة ، (٢) قدم تقريرا إلى نفس الناس الذين قام بدراستهم و(٣) كـــان يقـــوم بـــالتعليم والترفيه فى نفس الوقت – والأمران ، فى واقع الأمر، لا ينفصلان فى أعماله (ويختلف الأمر عند بريخت الذى كـــان أكـــثر تنظـــيرا). أمـــا "علمـــاء" الانثروبولوجيا ، فلا يعتبرون قدرتهم على الحركة داخل القبيلـــة ، وربمـــا ، قدرتهم على إسعاد أعضاء القبيلة بالقيام بأعمال مفيدة ومسلية ، لا يعتبرونها معرفة . فهم لا يدرسون الناس كأصدقاء (على الرغم من احتمال استخدامهم لمظهر الصداقة كوسيلة منهجية) وإنما يدرسونهم كطفيليـــات ، أو طفيليـــات ثقافية ، ولكنها طفيليات فى نهاية المطاف. وهم لا يرضـــون عـــن قدراتهـــم الجديدة المكتسبة – إذ عليهم أن يضعوا هذه القدرات فى صـــورة صحيحـــة: فيجب أن تكـــون هنـــاك معطيـــات و تصنيفـــات ، وأن تكـــون المعطيـــات "موضوعية" – وهلم جرا. وهكذا فهم يذكرون روايات لا يفهمهـــا الإنســـان العادى ، على الرغم من أنها لا تتعلق فقط بهـــؤلاء النـــاس ، وإنمـــا أيضـــا بالطريقة التى تتحدد بها خبرة بعض الباحثين الغرباء الجهلة. وإذا اســـتخدمنا المقولات المجردة فقد نقول أن عالم الانثروبولوجيا يحول الانطباعـــات إلـــى

معرفة – ولكن عندما نقول هذا فنحن ندرك على الفور مدى اعتماد هذه "المعرفة" المزعومة على الثقافة. ولدى اعتقاد بأن أرستوفان كان صاحب نزعة إنسانية ، بينما علماء الانثروبولوجيا ليسوا كذلك. وعليك فقط أن تقرأ مذكرات مالينوسكى[١] Malinowsk ! ودعنى أقرر بنزاهة أن ليس كل الانثروبولوجين على هذه الشاكلة ، وأن هناك اليوم تحولات عظيمة تحدث فى مجال الأنثروبولوجيا حتى أن "روزالدو" ، على سبيل المثال، أصبح على وعى بالفارق بين المعطيات العلمية والخبرة الإنسانية ...

س : ولكن لا علاقة لكل ما قلت بحوارنا. أنا أتفق معك فى أن الاطرادات التى يقول بها بعض علماء الاجتماع ويصيغوها فى مصطلحات عالية التجريد ليست قوانين وإنما خصائص تاريخية عابرة وأن صياغاتها قد تخفى هذه الخاصية. ولكن قوانين الطبيعة لا تتغير ، وبعد إنكارك لأى فارق بين العلوم والفنون فها أنت الآن تعود وتقدم لنا فارقا بنفسك: وهو أن الفنان يستخدم معرفته لتتفاعل مع أولئك الذين تدور حولهم المعرفة ، أما الانثروبولوجى فيستخدم المعرفة لإشباع فضول الغرباء. وثمة أمر آخر – إن كل ما ذكرته حتى الآن يبين أن ما يطلق عليه بعض الناس اسم النشاط الفنى – والذى صورته لنا بقصة الصديقين – يلعب دورا فى مجال العلم ، وأن العلوم كلها ليست كذلك. ولكن كل الناس يقرون بذلك الآن ! هل تنكر التمييز بين سياق الكشف وسياق والتبرير. الكل يقر بأن الكشف قد يكون لا عقلانيا ، ومليئا بالعناصر الذاتية ، أى يكون "فنيا" artistic. ولكن ما يتم اكتشافه بهذه الطريقة اللاعقلانية يخضع بعد ذلك للاختبار – ويفرض هذا الاختبار عليه مقاييس صارمة ، ويصبح بعد هذا موضوعيا ومن ثم فلا مجال للحديث عن العناصر الذاتية .

---

[١] مالينوسكى(١٨٨٤–١٩٤٢) عالم أنثروبولوجيا بريطانى.عرف بدراسة حضارة سكان جذر تروبرياند جنوب غرب الباسيفيكى.(المترجم)

ص : أنا لم أنكر أنك تستطيع أن ترسم خطا فاصلا بين الأنشطة الفكرية المختلفة. ولكنى أنكر وجود خط واحد كبير تقع العلوم كلها على أحد جانبيه والفنون كلها على الجانب الآخر. أما فيما يختص بموضوع الكشف والتبرير – فقد ذكرت من قبل إجابتى عندما تحدثت عن التجارب: فعملية قبول نتائج أى تجربة تختلط بالعناصر الذاتية والنزعات الشخصية للجماعة تماما كما يحدث فى عملية الكشف. والتمايز بين "الكشف" والتبرير ، فى الواقع ، غير حقيقى على الاطلاق ، فلا يمكن أن يكون الكشف مجرد خبط عشوائى ، أو حلم ؛ وانما يدخل فيه الكثير من عناصر الاستدلال. كما أن "التبرير" لا يكون أبدا إجراءا "موضوعيا" تاما – فهو يحتوى على العديد من العناصر الذاتية. وأنا أتفق مع جاليسون Galison فى أن المكونات الاجتماعية لهذه العملية عادة مايتم المبالغة بشأنها – فالتحيزات المهنية تلعب على الأقل دورا موازيا – ولكنها موجودة وتزيد من تعقيد العملية. أما فيما يختص بالفيزياء ، فأنا أوافق على القول بوجود إطرادات وعلى أن الفيزيائيين نجحوا فى الكشف عنها وفى صياغتها. غير أنى أرغب فى أن أضيف إلى ذلك أن العملية التى تؤدى إلى قبول قضية معينة كتعبير عن اطراد معين تتشابه كثيرا مع ما كان يقوم به أرستوفان ، على الرغم من أن الطرق التى وصفها العلماء والفلاسفة حتى الآن توحى بخلاف ذلك ، إذ هى توحى بإجراءات أكثر بساطة وقوة. ومن هنا فالموقف أكثر بساطة بسبب موضوع البحث وليس لأننا انتقلنا من مجال "المعرفة" إلى مجال آخر. ولو كنت مغرما مثلك بالتعميمات لقلت أن التمييز القديم بين العلوم الفيزيائية والعلوم الاجتماعية (بما فى ذلك الإنسانيات) تمييز مصطنع – فكل العلوم إنسانيات وكل الإنسانيات تتضمن معرفة. ثمة فارق كبير بالطبع بين مظهر أى نظرية فيزيائية ومظهر رواية عن الملك هنرى الثامن ، ولكن "الذاتية" و"الموضوعية" تتداخلان بصورة متساوية فى المجالين وقصة الصديقين تحدث فى كل مكان. إن التأملات المرتبطة بنظرية الخيوط العظمى ، والأعاصير ، والأكوان المحتملة لم تعد تكمن فى صياغة الافتراضات ثم اختبارها ، وإنما أصبحت تشبه تطوير لغة

معينة تتوافق مع قيود عامة ، ثم القيام بعد ذلك بصياغة قصة جميلة مقنعـــة باستخدام هذه اللغة. ويشبه ذلك إلى حد بعيد عمليـــة نظـــم قصيـــدة معينـــة. فالقصائد أيضا لها قيود. والقيود التي يضعها الشعراء على أعمالهم كثيرا مـــا تكون أكثر صرامة من القيود التي يقبلها عالم النبات botanist ، أو ملاحـــظ الطيور. اقرأ في ذلك ميلمان باري Milman Parry عن هوميروس. وأكرر القول أن القيود لا يتم الانصياع لها بطريقة آلية عمياء وإنما ينبغي أن يكـــون لها علاقة بالعالم كما نعرفه. والفارق الوحيد بينهما هو أن نظرية الأعـــاصير أو الخيوط العظمى تستخدم الصيغ الرياضية.

س : ولكنها تشمل كل شئ بينما لا تتضمن القصيدة ســـوى مزاجـــا عـــابرا لقائلها.

ص : ماذا تعني بعبارة تشمل كل شئ ؟

س : حسنا ، أليست النظريات التي تطورت وفقا لأسس تأملية كتلـــك التـــي وصفتها لتوك تسمى نظريات كل شئ ؟ لقد سبق أن قلت ذلك !

ص : لا تدع كلمة واحدة تخدعك ! إن كلمة "كل شئ" تعني: النسبية الخاصة، والنسبية العامة ، وتصنيفات الجزيئات تحت الذرية subatomic particle ، ونظريات اختبار القوى الكهربية الضعيفة والقوية ، ونظريات التناغم الكبرى والجاذبية العظمى.

س : وكما أن كل شئ يتكون من جزيئات أولية تنتظم في المكان والزمان فإن هذه النظريات ، إذا نجحت ، ستشمل في الواقع كل شئ.

ص : يا إلهي ، هل أنت ساذج ! أولا ، هذه النظريات لا تصـــف وضعنـــا الراهن وإنما ، من المحتمل أن تصف ما حدث في الكـــون خـــلال الدقـــائق الأولى التي أعقبت الانفجار العظيم Big Bang. ولا يمكـــن التنبـــؤ بكتـــل الجزيئات المعروفة بل لا يوجد ، في واقع الأمر ، سوى أقـــل القليـــل مـــن التنبؤات الحقيقية. ثانيا ، حتى التفسير الكامل للجزيئات الأولية لا يقـــدم لنـــا تفسيرا للجزيئات المتناهية في الصغر ، ولا للجزيئات الكبيرة ، ولا للأجســـام الصلبة ، ولا للمخلوقات الحية.

س : ولكن ألم تقطع بيولوجيا الجزئيات molecular biology شوطا طويلا في رد البيولوجيا إلى علم الجزيئات ؟

ص : دعنا نكون أكثر تواضعا ونسأل: هل نجحت الكيمياء فى رد الجـــزىء إلى الجزيئات الأولية ؟ اللهم إلا إذا كنت تعنى بالرد شيئا مختلفا مـــن قبيـــل استدلال بعض المعلومات ثم استبدالها بمعلومات مختلفة. فأنت لا تستطيع أن تصف سلوك مجموعة من الجزيئات الأولية بـــافتراض جزئيـــات منفصلـــة ومسافات تقع بينها.

س : هل لهذا الأمر علاقة بفكرة التتمة المتبادلة complementarirty?

ص : نعم.

س : ولكن فكرة التتمة تم تفنيدها منذ أمد بعيد !

ص : ومن الذى فندها ؟

س : أينشتين .

ص : أين ؟

س : في الحجة المعروفة بإسم:أينشـــتين، وبودولســكى وروزن Einstein, Podolskiy and Rosen .

ص : حسنا ، هذا هو الطريف فى الأمر. فالحجة كان المقصود بهـــا تفنيـــد مبدأ التتمة ولكنها نجحت فقط فى تدعيمه بقوة.

س : كيف ؟

ص : أنت تعرف أن تلك الحجة تقوم على افتراض أن ما تفعله بالنسبة لجزئ واحد لا يؤثر فى جزئى آخر كان يتفاعل مع الجزئ الأول فى الماضى ولـــم يعد له علاقة به الآن ؟

س : نعم.

ص : لقد تم اختبار هذا الافتراض وثبت عدم صدقه.

س : هل يمكن أن تخبرنى بالمزيد عن هذا الأمر ؟

ص : سيستغرق ذلك وقتا طويلا - ولكن الأمر يتعلق بميرهنـــة بـــل Bell theorem وباختبارات أخرى عديدة لهذه المبرهنة. التى مـــازال حتـــى الآن

يكتنفها بعض الصعوبات ، غير أن الأمر يبدو واضحا: وهو أن الافتراض السابق غير صحيح .

س : ثم ماذا ؟

ص : حسنا ، إن هذا يعنى وجود ارتباطات أو علاقات بين الجزيئات المتباعدة مما يجعل من المستحيل اعتبارها كيانات منفصلة. كما أن اعتبار الأشياء كيانات منفصلة يعنى إهمال أو إغفال تأثيرات موجودة لا تظهر عندما ننظر إلى الأشياء بطريقة معينة. إن اعتبار الأشياء كيانات منفصلة يعنى تبنى وجهة نظر مؤداها أن الجزيئات لا تكون "موضوعية" ، وعلينا الآن أن نحدد الطريقة ، أو الشروط الكلية للبحث الكيميائى – غير أن هذا التحديد لا يوجد فى النظريات الأساسية. ففى مثل هذه الحالة تتحطم السيمترية، وتظهر خصائص جديدة لا يمكن استخلاصها من النظرية الأساسية. وقد يعتبر البعض النظريات الأساسية بمثابة خطط schemata ينبغى أن تتحدد تفصيلاتها كى تقدم لنا تنبؤات عينية ولكنها لا تصف أى شئ يوجد مستقلا عن التفاصيل التى تتضمن تحديدات لخصائص المدخل البحثى المستخدم: أى تشمل معلومات عن الشروط الفيزيائية الخاصة بالملاحظ.

س : ولكن علماء بيولوجيا الجزئيات لا يتحدثون بهذه الطريقة.

ص : أنت على حق – فهم يتحدثون كالذريين القدماء ، والفارق الوحيد بينهم يكمن فى أن "ذراتهم" أصبحت معقدة جدا. ولكنهم يؤكدون أيضا أن ما يقولونه تدعمه نظرية الكوانتم – وهم فى ذلك مخطئون. لقد أوضح هذا الأمر بدقة البروفسور هانز بريماس Hans Primas أستاذ الكيمياء الفيزيائية فى المعهد الفيدرالى للتكنولوجيا بزيورخ Federal Institute of Technology in Zurich وهو المعهد الذى أشغل أنا فيه وظيفة أستاذ وأتقاضى منه راتبى بالفرنك السويسرى المعتبر. اقرأ كتابه الرائع: الكيمياء ، ميكانيكا الكوانتم ونزعة الرد **Reductionism (Springer, New Chemistry,Quantum Mechanics and York, 1984).**

إن فكرة الموضوعية التى تبدو كامنة وراء الكثير من حججك عرضة أيضا للخطر من تطورات أخرى ، منها مثلا اعتبارات تتعلق بما يطلق عليه اسم المبدأ الانثروبى anthropic principle. كما أن لدينا الآن بعض النظريات عن أصل الحياة وعناصرها. وتتلخص هذه النظريات فى القول بأنه وقع فى البداية الانفجار العظيم Big Bang ، ثم تحطمت السيمترية الأصلية ، وانفصل البوزون bosons عن الفرميون fermions ، ونشأ الهيدروجين والهليوم ، ثم حدث تجمع هائل ، وتجمعات أقل ، ونجوم ثابتة ، ونشأت العناصر ، وخاصة عنصر الكربون الضرورى للحياة. لقد حدث تغير بسيط جدا فى ثوابت مألوفة ؛ كحدوث تغير بسيط جدا فى العلاقة بين كتلة البروتون proton وكتلة النيوترون neutron التى تؤدى إلى تطور يختلف اختلافا جذريا عن التطورات السابقة. ويعنى هذا أن القوانين التى نكتشفها هى قوانين تختص بكون نستطيع أن نعيش فيه ، أو كما يقول هوكينج[١] Hawking "إن الأشياء هى ما هى عليه لأننا نحن ما نحن عليه". as 'Things are they are because we are'.

س : يبدو أننى يجب أن أفكر فى الأمر كله بالتفصيل.

ص : أنا أيضا لا أستطيع أن أتابع كل التفاصيل – ولكن دعنا نتحدث عن شئ نستطيع متابعته. إن نظرية "كل شئ" لا تتحدث بالتأكيد عن الحب ، أو الإحباط ، أو الحزن ...

س : لأنها أحداث ذاتية...

ص : ولكنها موجودة ، أيا كان الاسم الذى تطلقه عليها ، كما أنها ليست فى متناول معظم أعقد النظريات الفيزيائية أو البيولوجية. لكنها، على الرغم من هذا ، فى متناول الفنانين ، والرسامين ، والشعراء ، وكتاب المسرح. إن الحب ، والإحباط ، والرغبة تلعب دورا كبيرا فى حياة الناس. كما أنها تلعب

---

[١] ستيفن هوكنج(١٩٤٢–٠٠٠) عالم فيزياء بريطانى.صاحب أهم الاكتشافات العلمية عن الجاذبية منذ نظرية أينشتين. من أهم أعماله:تاريخ مختصر للزمان ١٩٨٨(المترجم).

أيضا دورا فى عملية البحث العلمى ، كما سبق وذكرت. من هنـــا إذا أردت حقا أن تفهم العلوم بدلا من أن تكتفى فقط بمجرد كتابات وحكايـــات خياليــة جافة مجردة عنها - وعليك أن تتذكر أننى أعنى بعبارة "تفهم العلم" أن تفهـــم نسقى الكشف والتبرير - فعليك أن تعود مرة أخرى إلى الإنسانيات والفنون ؛ أى عليك أن تتخلى عن تلك التصنيفات المصطنعة التى تعـــج بهـا معظـــم الفلسفات و"التفسيرات العقلانية". فأى نظرة عالمية شاملة لا يمكن أن تستغنى أبدا عن الشعراء...

س : هل قلت : وجهة نظر عالمية شاملة حقيقية ؟

ص : نعم - ولكنى لا أعنى بذلك نظرية من النظريات ، وإنما أعنى اتجاهـــا عقليا ، يمكن التعبير عنه جزئيا بالكلمات ، وجزئيا بالأفعال ككتابة الموسيقى ، وصياغة المعادلات الرياضية ، والحب ، والرســـم ، وتنـــاول الطعـــام ، والحديث مع الآخرين ، وكل مـــا يجعـــل الأشـــياء مفهومـــة، أى يشـــرحها للآخرين...

س : (يهم بفتح فمه للحديث).

ص : أعرف ما تريد أن تقول - فأنت تريد أن تقول إننا نحتاج قبل أن نشرح أمرا للآخرين إلى نظرية فى التفسير أو إلى تصور واضح للتفسير. وهذا غير صحيح ! إذ أن "تفسير أمر ما للآخرين" عملية معقدة يكون لها الكثـــير مـــن البدايات الكاذبة وتنتهى بنوع من الانسجام ، وهو نوع من الانسجام لا يمكن توقعه ، ولكن يمكن إدراكه بعد حدوثه...

س : ولكن كيف يمكن إدراكه إذا لم نكن نعرف ما هو ؟

ص : أنت تفترض أن الخبرة لا يمكن أن تنشأ إلا إذا كان لدينا مفهوم معيـــن عنها. ولكن هذا الافتراض غير واقعى: لأن هذا يعنى أننا لا يمكن أن تكـــون لدينا خبرة بأى شئ جديد كل الجدة. وأنا أعتقد أن هذا الافتراض يكمن وراء نقدك منذ البداية.

س : عن أى نقد تتحدث ؟

ص : هل نسيت بهذه السرعة ؟ أعنى نقدك بأننى لا يمكن أن أؤخذ مأخذ الجد لأننى ، عندما أسأل عن "موقفى"، أقول لا موقف لى. حسنا، إن لى موقف بمعنى من المعانى وليس لى موقف بمعنى آخر. فأنا لي موقف بمعنى أننى أتفاعل مع الأشياء بطرق معينة. ولا موقف لى بمعنى أن ردود أفعالي لا يمكن أن ترتبط بمبادئ عامة ومعانى ثابتة.

س : إذن أنت لست نسبيا ؟

ص : ها أنت تعود مرة أخرى ! فأنت تقذفنى بكلمة ذات إيحاءات متعددة وتتوقع منى أن أجيبك بنعم أو لا.

س : حسنا ، هل تعتقد أن هناك مبادئ عامه للتفكير ؟

ص : الأمر ليس بهذه البساطة.

س : فليساعدنى الله !

ص : كن صبورا واستمع ! تأمل القضايا الثلاث الآتية:

يحتاج القطن إلى مناخ جاف حار.

إنجلترا بلد بارد رطب.

إذن لا ينمو القطن فى إنجلترا.

هل تلزم القضية الثالثة عن القضيتين الأوليتين ؟

س : نعم بالتأكيد.

ص : وهل قولك هذا يتضمن إدراكك وجود علاقة معينة بين القضيتين الأوليتين والقضية الثالثة ؟

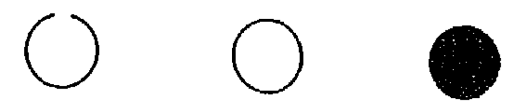
س : نعم بالتأكيد.

ص : وهل توافق على القول بوجود أشخاص لا يدركون هذا الاستدلال ، كأولئك الذين يفكرون فى القضايا واحدة وراء الأخرى ؟

س : حسنا، لابد من وجود بلهاء بيننا !

ص : لا تتعجل الأمر! هل يمكنك أن تتخيل موقفا يكون من الأفضل أن تتناول فيه القضايا واحدة بعد الأخرى وإلا تتصرف إلى النظر فى علاقاتها المتبادلة ؟

س : مثل هذا العالم سيكون فى منتهى البساطة ؟
ص : بسيط أم لا – هل تستطيع أن تتخيل مثل هذا الموقف ؟
س (يبدو مرتبكا).
ص : دعنى أقدم لك مثالا آخر. أنظر إلى الرسومات الآتية:



هل هى متشابهة أم غير متشابهة ؟
س : إنها بكل تأكيد متشابهة – فكلها دائرية !
ص : حسنا ، ماذا تقول إذا قلت لك أن الاختبارات السيكولوجية التى أجريت على أهل أوزبكستان فى الثلاثينيات انتهت إلى اعتبارهم الأشكال الثلاثة مختلفة تماما عن بعضها البعض – فقد اعتبروا الشكل الأول سوارا ، والشكل الثانى يعبر عن القمر والشكل الثالث عملة معدنية.
س : من الذى قام بهذه التجارب؟
ص: تستطيع أن تقرأ عنها فى السيرة الذاتية لـ **A.R.Luria** والمنشورة بعنوان **The Making of Mind (Harvard University Press,1979)**
س : ولكن أولئك الناس لم يتعلموا كيف يجردوا الشكل من الرسم.
ص : هل تعتقد أن ذلك نقيصة ؟
س : بالتاكيد.
ص : ولكن تأمل الآن – فأولئك الناس ليسوا علماء فى الرياضيات ، أو مهندسين ينظرون فى برامج وخطط هندسية – وإنما مجرد فلاحين وصيادين كان عليهم أن يدركوا تلك الموضوعات من خلال ألغاز غير واضحة. فكافة إدراكاتهم كانت تتجه نحو موضوعات معينة بالضرورة ، حتى تلاءم طريقة حياتهم. فهم ليسوا فقط لا يحتاجون إلى التجريد ، بل إن مثل هذا التجريد سيعوقهم.

س : هذا أفضل بالنسبة لمنهجهم في الحياة.

ص : تماما بالنسبة لمنهجهم في الحياة.

س : ولكن من الممكن تحسين حياتهم.

ص : هذه مشكلة مختلفة. ولكن طالما استمروا على هذا النمط من الحياة فمثل هذا الإدراك هو المناسب لهم. والآن ، دعنا نعود إلى مثالنا السابق في المنطق. يحدث كثيرا في الحياة العملية أن تفكر في الأمور واحدا بعد الآخر وتسأل نفسك: هل الأمر كذلك ؟ أم ليس كذلك ؟ ماذا أعرف عنه ؟ – وهلم جرا.

س (بتردد) : موافق .

ص : كما أن مقارنة القضايا يبطئ من هذه العملية.

س : ولكن سيكون له فوائد أخرى.

ص : الأمر الهام هو وجود فوائد في عدم المضي بهذه الطريقة ؛ أي في عدم إدراك" العلاقات المنطقية". إن الأمر ليس مجرد جهل وغباء. ثم أن هناك اختيارا – ماذا تفضل ؟ هل يمكنك أن تختار الأمرين ؟ الخ. هل تعتقد أنه من الحكمة أن نتحدث في مثل هذه الحالة عن مبادئ عامه كلية وموضوعية للاستدلال ؟

س : ولكن الناس ليسوا كذلك !

ص : تماما – من الأجدى للناس قبول هذه العلاقات ، هذا كل ما نستطيع أن نقوله. ويمكننا اختصاره بالقول إنها علاقات "موضوعية" واضعين في اعتبارنا أن اختيار نمط معين من أنماط الحياة يكون متضمنا في تلك العلاقات وليس مجرد مثال أفلاطوني.

س : إذن أنت نسبي.

ص : نعم أنا نسبي بمعنى من المعاني. ولكني أجد صعوبات جمة مع بعض صور المذهب النسبي. فطبقا لبعض صور المذهب النسبي أي شيئ يقوله المرء يكون صحيحا فقط في "إطار نسق معين" ويفترض هذا الأمر الآتي: (أ) أن لا تكون كافة عناصر النسق غامضة ، أي لا تتغير بتغير اقتراب

الأشخاص منها داخل إطار النسق ، ولا تتصرف أبدا كصورة السيدة المعروضة فى هذا البحث (والتى تبدو صورة لسيدة شابة صغيرة ولكن قد تبدو أيضا صورة لسيدة عجوز) كما لا تحدث أى تغيرات مماثلة فى التصورات. وذلك لأنه عند حدوث مثل هذا التغير ، فإن "المذهب" النسبى يحتوى على وسائل تدمير ذاته ، فهو فى واقع الأمر ليس مذهبا. بل هو افتراض غير واقعى بالمرة ؛ وهو لا يصدق حتى على العلاقة بين الإنسان والحيوان – تأمل فى ذلك موضوع استئناس الحيوانات. ولكن يبقى دائما إمكانية أن نستثنى بعض الاتجاهات والأفعال والمجموعات ، ويشمل هذا الاستثناء الراديكاليين يمينا ويسارا ، وهم الذين طوروا موهبة عظيمة فى هذا المجال. فقد حددوا ليس فقط أفكارا وممارسات تقليدية نتجت عن عمليات طويلة معقدة من التكيف وإنما أيضا أكثر إبداعات اللحظة اصطناعا ، ومن هنا فهى تسجن نفسها وغيرها من الأفكار فى سجون أيدلوجية ضيقة مظلمة. وقد وصف أصحاب المذهب النسبى بدقة العلاقة بين مثل هذه السجون – فالنسبية تفسر جيدا أفكار الناس الذين يمقتون التغيير ويحولون صعوبات التواصل إلى مسألة مبدأ.



وعندما نعتبر أن القضايا ، والعواطف ، وكل ما يتفوه به الإنسان "نسبيا إلـــى نسق معين"، فإننا نفترض أيضا: (ب) أننا لا نستطيع آن نتعلم طرقا جديــدة للحياة. وذلك لأننا إذا افترضنا مقدرتنا على صنع ذلك ، فمن الممكن أن يعبر المذهب الواحد عن جميع المذاهب ويفقد التعبير المشهور "بالنسبة إلى المذهب الفلانى" معناه وقوته كمحدد عام للمعرفة حتى وإن ظل مفيدا لخدمة أغراض أخرى. ثالثا ،حتى إذا جابهت صور الحياة المختلفة ظروفا متشابهة فقد يكون لها مصيرا مختلفا ، وبعض هذه الصور لا يرضى عنها أصحابهــا أنفســهم. ويوضح لنا هذا وجود ما يشبه المقاومة أو الرفض فى العالم. وهنا أنتهى إلى نقطة فى غاية الأهمية – أكد عليها نيلز بور Bohr – وهى أن المقاومـــة أو الرفض المذكور أضعــف كثــيرا ممــا أفترضـــه الواقعيــون المحــترفون المعاصرون: فثمة احتمال لوجود الحياة الطيبة فى مجتمع غير– تكنولوجـــى non-technological society – بدون وجود علم ولكن بوجود آلهة مجسدة كالبشر. والأمثلة على ذلك اليونان القديمة ، وروما فى عصــر الجمهوريــة القديمة وروما بعد أغسطس Augustus. وحتى الآلهة كـــان لهــم دورهــم السياسىفى روما.

س : ولكن ماذا يبقى الآن من الفلسفة ؟

ص : هذا ليس بالأمر الهام ، فأنا لا أهتم بالموضوعات الخاصة. هذا فضــلا عن أن أولئك الذين يطلقون على أنفسهم فلاسفة يقومون بهذه بالمهمــة بــدلا منى.

س : ولكنك أنت نفسك فيلسوف !

ص : كلا أنا أستاذ فلسفة.

س : وما الفارق ؟

ص : الفيلسوف روح حرة طليقة - أما الأستاذ فموظف مدنى يلتزم بقواعد معينة ويتقاضى أجرا عن عمله.

س : ألا تجد أى شئ مجزى فى الفلسفة ؟

ص : كلا لا أجد ذلك ، وإن كنت أجده فى كتب أو روايات بعض من يكتبون الآن فى الفلسفة – على الرغم من إنى أعترف بأنى أقرأ القليل من تلك الأعمال. فأنا أفضل قراءة التاريخ ، بما فى ذلك تاريخ الفن ، وأعمال علماء الفيزياء ، وبالطبع قصص المجرمين ، والروايات ؛ كما أشاهد أيضا المسلسلات التلفزيونية مثل دالاس وديناستى. كما أننى معجب جدا بأفلاطون وأرسطو ، ولكنهما ليسا من الفلاسفة – لأنهما عالجا كل شئ.

س : أليست هذه هى المهمة الحقيقية للفيلسوف ؟

ص : حسنا ، إذا كنت تعتقد أن الفيلسوف شخص له نظرة شمولية محبة للفنون يحاول أن يضع الأشياء فى مكانها الصحيح ويحاول أن يمنع الناس من أن يجبروا الآخرين إلى الانقياد الأعمى إلى أفكاره سواء تحقق هذا الأمر بالحجج أو بوسائل القهر الأخرى ، فأنا إذن فيلسوف – ولكن هذا الوصف ينطبق أيضا على الصحفيين وكتاب المسرح. ولكن معظم من يطلقون اليوم على أنفسهم فلاسفة يريدون أن يصبحوا "محترفين" ، أعنى يرغبون فى دراسة الأمور بطريقة معينة لكى يضمنوا لأنفسهم مكانة تتميز عن الأنشطة الإنسانية الأخرى.

س : ولكنك مع هذا تتحدث عن الموضوعات الفلسفية المتخصصة ، وعن العقلانية ...

ص : أنا لا أتحدث عن هذه الموضوعات لأنها موضوعات فلسفية ولكن لأنها موضوعات ذات تأثير – فالعقلانية كثيرا ما تستخدم لاستعباد الناس ، بل وحتى لقتلهم. لقد كان روبيسير[1] Robespierre عقلانيا ...

س : بل كان دوجماطيقيا ، ولم يكن عقلانيا نقديا ...

---

[1] روبسبير (١٧٥٨-١٧٩٨) من أشهر قادة الثورة الفرنسية. استخدم اسلوب العنف واشاع الرعب باسم الديمقراطية ، وقد لقى نفس مصير ضحاياه عن طريق الاعدام بالمقصلة. (المترجم)

ص : هل تهذى ؟ لا تكاد توجد حركة فى مثل ابتذال ودوجماطيقية الحركـــة المسماة بالعقلانية "النقدية". وإذا كان العقلانيون النقديون لا يقتلون النـــاس ، فهم يقتلون العقول ...

س : لا يمكنك أن تقول هذا ؛ فالفكرة القائلة بالتقدم من خلال التكذيب كانت كشفا حقيقيا للعقلانية النقدية.

ص : لم يكن هذا كشفا جديدا – لقد ذكر العديد من القدماء ومن خلفهم أهمية الأمثلة – المضادة counter-examples – هذا فضلا عن أن المقولة ذاتها ليست صحيحة: فالعديد من التحولات الهامة فى العلم حدثت دون تكذيب على الإطلاق. إن التكذيب يكون عظيما كحساب تقريبى ؛ ولكنه يخفق إخفاقا ذريعا كشرط للعقلانية العلمية ...

س : معذرة لأنى ذكرت العقلانية النقدية. ولكن دعنى أستكمل حديثـــى: لقـــد قدمـــت لنـــا أنـــت تصـــورا فلســـفيا جديـــدا ، وهـــو مفهـــوم اللاقياســـية incommensurability.

ص : حسنا ، لم أكن أقصد بالتأكيد أن يكون هذا الأمر إسهاما إيجابيا. ولكنى أردت من هذا التصور نقد وجهة نظر شائعة ومضللة فـــى التفســـير والـــرد reduction. ولكى انتقد تلك الفكرة كان على أن أشير إلى خاصيـــة تمـــيز التغير العلمى لا تشملها عملية التفسير والرد وأطلقت علي هذه الخاصية اسم " اللاقياسية ". واللاقياسية ، فى اعتقادى ، لا تشكل صعوبة للعلوم ومن ثم لأى أحد – ولكنها تشكل صعوبة لبعض النظريات الفلسفية المغرقة فى السذاجة ، ولما كانت هذه النظريات تعد مكونا أساسيا لنمط معين من "العقلانية"، فإنهـــا تشكل صعوبة بالنسبة لها أيضا. ولكن اللاقياسية تشعبت تشعبا شديدا وتحولت إلى خاصية هامة لكل فكر "خلاق" وسرعان ما استخدمت لكى تقدم أســـبابا وجيهة لقصور الفهم بين الثقافات والمدارس العلمية المختلفة. وفى رأيى ، أن هذا مجرد هراء. إن سوء الفهم موجود. بل يزداد عندما يكون للناس عـــادات متباينة أو يتحدثون لغات مختلفة. وتفسر الظاهرة التى أطلقـــت عليهـــا اســـم اللاقياسية جزءا صغيرا فقط من سوء الفهم المشار إليه وأنا أعتبر توسعة هذا

التصور وتحويله إلى وحش ضخم مسئول بمفرده عن كل متاعب العلم والعالم ككل ليس فقط أمرا ساذجا وإنما جريمة حقيقية. ويعتبر تصـــــور اللاقياســـية بالطبع هبة منى للفلاسفة والسوسيولوجيين – وأعنى بذلك أولئك الذين يطلقون على أنفسهم اسم " فلاسفة " أو "علماء اجتماع" – أولئـــك الذيـــن يعشـــقون الكلمات الطنانة الضخمة ، والتصورات البسيطة والتفسيرات البالية ويهتمون بإعطائنا الانطباع بأنهم يفهمون الأفكار الخفيـــة الكامنـــة وراء المشـــكلات المعقدة. ويعد هذا الأمر بمثابة جريمة لأنه يؤكد على الصعوبات ، ويظـــل متمسكا بها ، ويصيغ عنها النظريات بدلا من محاولة الهروب منها. ويبدو أن الثقافات المتباينة محكوم عليها أن تتحدث بأسلوب مختلف تماما مثلما بدا من قبل أن أنيشتين محكوم عليه ألا يفهم أبدا الاكتشافات الرائعة لنظرية الكوانتم. دعنا نوافق على أن أفلاطون يختلف عن أرسطو ولكن دعنا لا ننســـى أن أرسطو قضى عشرين عاما فى *الأكاديمية* تعلم خلالها بالتأكيد كيف يتحـــدث اللغة الأفلاطونية. ودعنا أيضا نتذكر أن بور Bohr وأينشتين تحابا وكثيرا ما تبادلا الحديث، وأن أينشتين قبل طريقة بور فى تفنيد أمثلته المعارضة. ليـــس ثمة "لاقياسية" هنا بالطبع! فهو لا يزال له ميتافزيقاه المختلفة ، ولكن لا علاقة لهذا باللاقياسية إلا بالنسبة لأصحاب التنظير من العقلانيين.

س : حسنا ، لقد كان حديثنا بالتأكيد طويلا. وكل ما أستطيع الانتهاء إليه من هذا الحديث هو أنك بينما لا تجد غضاضة فى معالجة مشكلة هنـــا وأخـــرى هناك فليس لك فلسفة متسقة خاصة بك.

ص : أنت على حق – فأنا ليس لى فلسفة خاصة ، هذا إذا كنت تعنى بالفلسفة مجموعة من المبادئ والتطبيقات ، أو كنت تعنى بها موقفا أساســيا لا يقبـــل التغيير. ولكن لى فلسفة بمعنى مختلف ، فأنا لى وجهة نظر عالمية شـــاملة ، ولكنى لا أستطيع البوح بها ، وهى تنم عن نفسها عندما أصادف فقـــط أمـــرا يتعارض معها ؛ وهى أيضا تتغير ، ويمكن اعتبارها توجها أكثر منها نظرية اللهم إلا إذا كنت تعنى بكلمة "نظرية" قصة يتغير محتواها باستمرار.

س : الآن فقط فهمت لماذا لا يرغب الفلاسفة فى التعامل معك.

ص : إن لهم كل الحق فى ذلك ، فأنا لست واحدا منهم. فمعظم الفلاسفة الذين يتحدثون عن المذهب النسبى يتحدثون عن رورتى Rorty ،الذى تنسجم آراءه مع تصوراتهم ، أو عن كون Kuhn ، وكون فيلسوف صاحب نظرية يحاول بها جاهدا استرضاء الفلاسفة المحترفين ، أو يتحدثون عن السوسيولوجيين من أمثال بلور Bloor وهو أيضا من أصحاب النظريات. أما الوجوديون فلهم بالفعل أبطالهم – كيركجارد وهيدجر. كما أن رورتى وكون وبلور وهيدجر فلاسفة ملتزمون بمعنى أنهم يعتبرون أنفسهم محترفين وتتمركز حياتهم حول "أعمالهم". أما أنا فلست فيلسوفا محترفا ، ولا أريد أن أكون كذلك ، ونادرا ما أفكر "بطريقة فلسفية". وأنا لم أدرس الفلسفة أبدا – وقد حصلت على وظيفتى الأولى فى الفلسفة بواسطة بعض الأصدقاء وبتدخل من شرودنجر Schrodinger الذى كان يعرفنى كتلميذ له – وحتى عندما قرأت بعض الأعمال الفلسفية ، فقد ذلك كان بسبب نزوة عارضة وليس فى إطار خطة شاملة.

س : ولكن الناس عقدت صلة بين أعمالك وأعمال بوبر ، أو كون.

ص : هذا خطأ بسيط. فأنا عرفت بوبر وأنصاره ، وتحدثت معهم بلغتهم كما يفعل الفرد فى المجتمعات الراقية المهذبة. وتم نشر تلك الأحاديث – ومن هنا أعتقد البعض أنى بوبرى.

س : هل أنت بوبرى ؟

ص : هل تمزح ؟

س : ماذا عن كون ؟ إنه نسبى على شاكلتك ؛ وهو يستخدم التاريخ فى حججه كما تفعل أنت ، كم أن كليكما يتحدث عن اللاقياسية.

ص : نعم لقد تعلمت الكثير من كون ، ويرجع إليه الفضل (وإلى كارل فردريش ويزسيكر**Carl Friedrich Weizsaecker**) فى إقناعى بأن أسلك فى دراسة العلم ، والفن ، الخ، مسلكا تاريخيا ، وذلك بتتبع تاريخ هذه العلوم، وليس بالطرق المنطقية ؛ أى بمحاولة العثور على بعض الأبنية الدائمة لهذه الأنساق. ولكن بعد أن تعلمت هذا الأمر من كون فإننى أشعر بعدم الارتياح

لمحاولته إعادة استخدام النظريات (دور العلم العادى، والثورة الخ) وبمحاولاته الأخيرة للعثور على "أساس" فلسفى لتلك النظريات. فهذه المحاولات تستبدل ، فى رأيى ، الواقع بالخيال .

س : تتحدث الآن وكأنك أحد الوضعيين.

ص : وما المانع ؟ لقد أرتكب الوضعيون أخطاء ، ولكن كانت لهم إسهامات هامة جدا. على أية حال: يوجد لدينا تاريخ – والتاريخ يتكون من روايات فى غاية التنوع – كما توجد لدينا ممارسات علمية تشكل جزءا من التاريخ. هذا كل ما هنالك. ونحن نصادف أيضا اللاقياسية فى صور مختلفة ولدينا آراء متنوعة عنها. لقد اكتشف كون لونا من ألوان اللاقياسية خلال دراساته التاريخية ، كما وجدتها أنا مستخدمة فى الحوار "الوضعى" القديم عن القضايا الأساسية basic statements وقد اعتبرها كون خاصية هامة من خصائص التغير العلمى ، واعتبرتها أنا نفحة من هواء ساخن أطفئ بعض الشموع الوضعية المشتعلة.

س : وماذا عن المذهب النسبى ؟

ص : أنا لا أعتقد أن كون فيلسوف نسبى على الرغم من أن العديد من الناس يتهمونه بذلك. لقد كنت أنا نسبيا ، على الأقل بأحد المعانى العديدة لهذه الكلمة، ولكنى الآن أعتبر المذهب النسبى اقترابا إنسانيا مفيدا من وجهة نظر أفضل...

س : أى وجهة نظر تلك ؟

ص : لم أعثر عليها بعد.

س : دعنا الآن نعود إلى موضوع كونك فيلسوفا أم لا –

ص : ... نعم ، هذا أحد الاختلافات الجوهرية بينى وبين "كون". فهو يطمح فى أن يكون فيلسوفا ، وفيلسوفا محترفا. وهذا ليس أحد أهدافى ، هذا إذا افترضت أصلا أن لى أهدافا ...

س : ولكنك كتبت عدة أبحاث ، بل كما هائلا منها – فهناك مجلدين منشورين من مقالاتك وهى لا تشتمل على كل أعمالك.

ص : لقد كان هذا أمرا عارضا. فقد سافرت منذ حوالى عشرين أو ثلاثين عاما مضت وألقيت العديد من المحاضرات. فأنا أحب إلقاء المحاضرات؛ وقد تقاضيت عنها مقابلا ماليا ، وقابلت خلال إلقاءها أصدقاء ، وكنت أستطيع مضايقة الناس من خلال إثارة بعض القضايا الممجوجة على الملأ. ولم يحدث أبدا أن أعددت أحاديثى سلفا – فقد كنت أدون عددا قليلا من الملاحظات وأترك البقية لوحى الأفكار. وعلى الرغم من هذا ، فقد كانت أحاديثى جزءا من سلسلة محاضرات ومن هنا ضغط على الناشرون لكتابتها. وتلك كانت الطريقة التى خرجت بها معظم كتاباتى.

س : وماذا عن كتابك ضد المنهج Against Method ؟

ص : لقد سبق وأخبرتك عن هذا الأمر: لقد اقترح على لاكاتوش Lakatos أن نؤلف كتابا مشتركا وأعجبتنى الفكرة. وعندما كتبت "ضد المنهج" قلت لنفسى: "هذه هى آخر مرة أكتب فيها أى شئ ؛ فأنا الآن أرغب فى الهدوء والسكينة ، وفى أن أشاهد التلفزيون ، وأسترخى تحت الشمس ، وأذهب لمشاهدة الأفلام السينمائية ، وأن تكون لى بعض العلاقات النسائية القليلة وأن أقوم بأقل مجهود فى إعداد المحاضرات التى أعيش منها".

س : ولكنك واصلت الكتابة.

ص : لقد كان هذا أكبر خطأ ارتكبته فى حياتى. هل تعلم أننى لم أتوقع أبدا الغضب الذى أثاره كتاب ضد المنهج – لقد ترجم هذا الكتاب حتى الآن إلى ثمانية عشر لغة ، آخرها اللغة الرومانية ، كما أن الترجمة الكورية فى طريقها إلى الظهور. لقد أثار هذا الكتاب سبابا ، ونقدا، وهجوما فى الصحف الكبرى ، ومنها دورية العلم Science ، على سبيل المثال ، التى أرسلت مصورا فوتوغرافيا ليلتقط لى صورة مع لوحة للغوريلا كنج كونج King-Kong تظهر خلفى ، كما تم مناقشة الكتاب فى صحيفة The New York Review of Books وهلم جرا. وأنا لم أقرأ معظم النقد الموجه لى ، لأنى لا أقرا الصحف الثقافية ، وقد أرسل لى الأصدقاء بعضها – ومعظمها تقريبا ينم عن غباء شديد. وأنا لم يسبق لى أن واجهت مثل هذه الأمر من قبل – فقد

كانت مناقشاتى السابقة تقع فى إطار دائرة ضيقة من الأفراد الذيـــن أعرفهـــم ويعرفونى جيدا – لقد أخذتنى الدهشة ووقعت فى خطأ الانزلاق إلى الحـــوار والمناظرة. وقد كان هذا مضيعة للوقت والطاقة.

س : ولكنك الآن ، وأخيرا ، سوف تتوقف عن الكتابة.

ص : وا أسفاه ، لست قريبا من ذلك بعد. فقد وعدت صديقتى – وهـــى الآن زوجتى الحبيبة – جرازيا أن أكتب كتابا عن "الواقعية" ...

س : *الواقعية* ؟

ص : نعم ، الواقعية – مجرد عنوان عملى مناسب. ســوف يعـــالج الكتـــاب مشكلات نظرية الكوانتم ، ورسومات العصور الوسطى المتأخرة ، والتماثيل الرومانية ، وبريخت ، وستاينسلفسكىStanislavsky– وموضوعات أخـــرى عديدة سوف أعالجها باختصار ، فيما لايزيد عن ١٢٠ صفحة. ربمـــا يـــأخذ منى هذا الكتاب عشر سنين أخرى – فأنا لست على عجلـــة مـــن أمـــرى – وسوف يحتوى الكتاب على العديد من الصور. كما سأكتب أيضـــا ســيرتى الذاتية.

س : لابد أنك تظن أنك شخص هام جدا حتى تكتب سيرتك الذاتية.

ص : كلا ، كلا – ليس هذا هو السبب. وإنما السبب هو أن النمسا احتفلـــت العام الماضى ، ١٩٨٨ – كلمة "احتفلت" هنا غير دقيقة – لنقل أحيت النمسا ذكرى الوحدة مع ألمانيا: فقد أصبحت النمسا منذ خمسين عاما مضت جـــزءا من الرايخ Reich. وقد فرح الكثيرون بذلك الحدث – وانفجرت وقتئذ موجة عارمة من الحماس بين الناس. واليوم ، فى عام ١٩٨٨ ، فالسؤال هو: مـــاذا نفعل ؟ لقد أراد بعض الحكماء من الناس أن يقوموا بعمل رمزى ، ومن ثـــم أرادوا أن يفكروا فى الماضى بطريقة مفيدة. وقد انضم إليهـــم الكذابـــون ، والمتملقون ، والجهلة وأنماط أخرى عديدة من أصحاب المصالح المختلفة – أو هكذا على الأقل بدا الأمر من على بعد ، من الولايات المتحدة الأمريكية أو سويسرا . لقد شاهدت الاحتفالات فى التلفزيون وأصابنى الاكتئـــاب. فقـــد حضر فالدهايم Waldheim الاحتفالات. وأنا لا أطيق رؤية ذلك الشـــخص وكنت قد أصبت بإحباط شديد عندما أصبح سكرتيرا عاما للأمم المتحدة. لقـــد

سألت نفسى هل هذا المخلوق الكريه نمساويا ؟ (تذكر أننى مازلت أحمل الجنسية النمساوية !). لا أدرى ماذا فعل فالدهايم خلال الحرب العالمية الثانية ولكنى أكره ما يفعله الآن. وقد سادت الاحتفال لعنات مرسلة وأحاديث مطولة ذات صبغة إنسانية. وشارك فى الاحتفالات العديد من علية القوم ، كما ذكرت ؛ وعلى الرغم من هذا ، فقد انتابنى شعور بأن كل ما سمعته مجرد شعارات جوفاء ووعود تافهة. وأنا لدى تفسير لهذا الإخفاق التام – إن الإنسانية ببساطة لا يمكن أن يعبر عنها من خلال الكلمات المجردة كما أن الشعارات ليست هى الوسيلة المناسبة لإعادة الأوضاع إلى سابق عهدها. ومن ثم فقد فكرت فى طريقة مختلفة لعلاج ذلك الحدث. لقد عاصر العديد من النمساويين المرموقين الاحتلال عندما كانوا أطفالا كما أصبحوا جنودا خلال الحرب العالمية الثانية. ولقد سألت نفسى " لماذا لا يكتب هؤلاء النمساويين عن خبراتهم ومشاعرهم ؟ " ، وأقصد هنا مشاعرهم كما كانت خلال السنوات المصيرية للحرب ، دون إخفاء أى شئ. ربما كانوا متحمسين – لماذا لا يقولون لنا ما كانوا يشعرون به على وجه الدقة وكيف تغيرت مشاعرهم عبر السنين ؟ أى يقدموا لنا اعترافا ، أو تقريرا أمينا ، دون عواطف مزيفة أو تبريرات كاذبة! يصف إنجمار برجمان[١] Ingmar Bergman فى سيرته الذاتية ، كيف أنه أحب هتلر خلال تواجده فى برنامج تبادل دراسى فى ألمانيا – إنه يذكر الأمر ببساطة ، ودون أن يقدم تفسيرا لذلك ، مجرد تقرير واقعة حدثت – لماذا لا نستطيع أن نفعل نفس الشىء ؟ حسنا ، أنا لست نمساويا مرموقا ، ولكن لى كتابات يقرأها نفر قليل من الناس، وقد كنت ضابطا فى الجيش الألمانى ومن هنا قلت لنفسى ، لماذا لا أبدا أنا بذكر قصتى الشخصية. وثمة سبب آخر يجعلنى أحبذ هذه الخطة. فأنا لا أحتفظ بتسجيلات ، وليس

---

[١] إنجمار برجمان(١٩١٨–٠٠٠) مخرج أفلام سويدى عرف عنه أسلوبه الرمزى واهتمامه بموضوعات الشعور بالذنب ، والأخلاق ، والدين.من أهم أفلامه العار (١٩٦٨)، انطباعات(١٩٩٣) ، وقد حصل على عدة جوائز أوسكار عن فيلم فانى والكسندر(١٩٨٣)المترجم.

لدى ملفات ، وأنا أجيب على الرسائل ثم القى بها فى سلة المهمــــلات علـــى الفور ، وليس لدى أشياء تذكرني بوالدى أو أقاربى – كل مـــــا أمتلــك هــو ذاكرتى. ولقد نسيت العديد من الأشياء وأختلط على الأمر فى البعض الآخر ، لقد ظننت لفترة من الفترات أننى كنت بالقرب من "كيف" Kiev خلال الحرب – وهو ما لم يحدث مطلقا – ومن ثم فقد اعتزمت أن أنشـــط ذاكرتـــى وأن أفحص الماضى الخاص بى. ويعتبر هذا الأمر بالصدفة أفضل طريقة لشرح الأفكار الخاصة بأى شخص ، وأعنى بذلك الخلاصة التى يضعها الشـــخص فى الكتب والمقالات ، والتى تعد أفضل من "السيرة الذاتيـــة الفكريـــة" التـــى تحتوى فقط على أفكار ولا يذكر المؤلف فيها أبدا كيف ومتى حصل علي هذه الأفكار لأول مرة. لقد كتب أينشتين سيرته الذاتية الفكرية وأكد فيها على أنـــه سيكتفى بالحديث عن الأفكار فقط. ولا يختلف هذا القول من حيث المبدأ عن السيرة الذاتية المشهورة لجوزفين موتزنباشر Josefine Mutzenbacher التى كانت تتعاطى الهيروين خلال مغامراتها الجنسية دون أن تذكر شيئا عن الأفلام التى شاهدتها أو الكتب التى قرأتها. لكل هذه الأسباب قررت أن أكتب سيرتى الذاتية والتى سيكون عنوانها "قتل الوقت" Killing Time ، وذلك لأن جزءا كبيرا من حياتى ، كان للأسف ، مجرد تجوال وانتظـــار دون هـدف. ولكنى أعدك من الآن فصاعدا أن أسكت إلى الأبد ملتزما بكلمتى.

س : وهل تظن أن أحدا سيصدقك ؟

ص : عليك فقط أن تنتظر!

حاشيــــــة

تسود بين الناس شائعة زائفة مؤداها أنه بينما من الممكـــن اختبـــار الأفكار أو الأنساق الفكرية بطريقة موسعة ، من خلال الرسائل، والمكالمـــات التليفونية ، والأحاديث التى يتبادلونها على موائد الطعـــام ، فـــإن الصـــورة الصحيحة للتعبير عن بنية الأفكار ، وتضميناتها وأسباب قبولها تتحقـــق فـــى صورة مقال أو كتاب. فالمقال (أو الكتاب) يكون له بداية ، ووسط ونهاية. كما يتضمن المقال أو الكتاب عرضا تفسيريا ، وتطـــورا للأفكـــار ونتـــائج. وتصبح الفكرة (أو المذهب) بعد ذلك واضحة محددة بطريقة جيدة كالفراشة الميتة المعروضة فى صندوق أحد هواة جمع الفراشات.

ولكن الأفكار ، كالفراشات ، لا توجد فقط ؛ وإنما يعتورها التطور، فهى تتداخل فى علاقات مع غيرها من الأفكار كما أن لها تأثيرها الخـــاص. لقد ارتبط تاريخ الفيزياء برمته بالافتراض ، الذى صاغه لأول مرة بارميندس ، بالقول بأن بعض الأشياء لا تتأثر بالتغير. كما أن خاتمة أى مقال، أو كتاب ، على الرغم من صياغتها فى صورة خاتمة إلا أنها لا تكون فى الواقع كذلك

وإنما هى بمثابة نقطة انتقال لا تلقى تقييما مناسبا. وهـي تمـاثل فـي ذلـك التراجيديا الكلاسيكية التى تقيم حواجز وهمية لاوجود لها.

وقد عثر المؤرخون المعاصرون (مؤرخو العلم وغير العلم) علـى أخطاء أخرى إضافية. فنظام وترتيب الوصف فى أى بحث علمى ليـس لـه علاقة قوية بنظام وترتيب الكشف كما أن بعض العناصر الذاتية كثـيرا مـا يتضح أنها مجرد خرافة. وهذا لا يعنى أن الكتاب يكذبون. وإنمـا يعنـى أن ذاكرتهم تتأثر عندما يجبرون على الكتابة وفقا لنموذج معيـن لكـي يقدمـوا المعلومات المطلوبة (والزائفة فى الآن عينه).

وتوجد الآن مجالات يفقد فيها المقال ، أو البحث العلمي ، وخاصـة المراجع القياسية textbooks ، كثيرا من قيمتها السابقة. والسبب فى ذلك هو أن العدد الكبير من الباحثين وفيضان النتائج البحثية أديا إلى زيادة نسبة التغير إلى درجة تغدو معها بعض الأبحاث قديمة لا قيمة لها عند نشرها. وتتحـدد طليعة الأبحاث من خلال المؤتمرات ، والمكاتبات المرسلة إلى رئيس التحرير (أنظر فى ذلك الرسائل الخاصـة بدوريـة **The Physical Review**) ، ورسائل الفاكس. ولا يقتصر الأمر على تأخر الكتب والمقالات زمنيا ، وإنما لا يمكن فهمها أيضا دون هذا الارتباط المشوه لعملية البحث.

ويفخر الفلاسفة بقدرتهم على العثور على مبادئ واضحة تكمن وراء أكثر الأمور فوضوية. لقد كان "عالم الحس المشترك عند اليونان" (إذا كان هناك ثمة عالم واحد) فى غاية التعقيد عندما وضع بارميندس مؤلفاته. غـير أن هذا لم يمنعه من الافتراض بل وحتى البرهنة على أن الحقيقة مختلفـة ، وبسيطة ومن الممكن قهرها بالفكر. وعلى الرغم من أن الفلسفة الحديثة أقـل ثقة من الفلسفة اليونانية فى هذا المجال ، إلا أنها مازالت تحتوى على فكـرة الأبنية الواضحة التى تكمن خلف الأحداث المعقدة. ويتعامل بعض الفلاسـفة (وعلماء الاجتماع وحتى الشعراء أيضا) مع المراجع القياسـية وفقـا لهـذا المفهوم ؛ فهم يبحثون عن مكونات تصلح أن تكون جزءا من بنـاء منطقـى مقبول ثم يستخدمون هذا البناء للحكم على بقية البناء.

ومثل هذه المحاولة محكوم عليها بالفشل. أولا ، لعدم وجود نظير لها فى العلوم التى لها إسهاماتها الهامة بالنسبة للمعرفة. ثانيا ، لعدم وجود نظير لها فى "الحياة". فالحياة تبدو واضحة بدرجة كافية طالما ظلت تسير على نفس المنوال ؛ أى طالما ظل الناس راغبون فى التعلم ، وفى قراءة الكتب بالطرق المعروفة دون تحديات جوهرية. وعندما يتحطم الروتين السائد يضمحل الوضوح وتنشأ الأفكار والادراكات والمشاعر الغريبة. وقد وصف المؤرخون والشعراء وصانعو الأفلام السينمائية مثل هذه الأحداث. ومن أمثلة ذلك: ما كتبه برايندللو[1] Pirandello . وإذا قارنا تلك الأعمال بالمقالات المكتوبة منطقيا فستجد الأخيرة تشبه فى لا واقعيتها رواية باربارا كارتلاند Barbara Cartland. فهى وإن كانت خيالية ، إلا أنها خيال لا روح فيه ولا الهام.

لقد اعتقد أفلاطون أن الهوة التى تفصل بين الأفكار والحياة يمكن سدها عن طريق المحاورة – ولم يكن يعنى المحاورة المكتوبة لأنه كان يعدها تفسيرا مصطنعا للأحداث الماضية ، وإنما بتبادل حقيقى للحديث بين الناس على اختلاف مشاربهم. وأنا أوافق على أن المحاورة تكشف لنا عن أمور أكثر مما يكشف المقال. فهى يمكن أن تزودنا بالحجج. كما أنها تبين تأثير الحجج على المتخصصين والدخلاء فى المدارس(الفكرية) المختلفة ، كما أنها توضح بجلاء النهايات المبتسرة التى يحاول المقال أو الكتاب أن يخفيها ، والأهم من كل هذا أنها تستطيع أن تبرهن على الطبيعة الخرافية الزائفة لما نعتقد أنه أكثر الأجزاء صلابة وثباتا فى حياتنا. والجانب السلبى لها هو أن كل هذا يتم بالكتابة على الورق ، وليس بالعمل ، الذى يقوم به أشخاص أحياء يعيشون بيننا. ونحن فى المحاورة مدعوون لأن ننغمس فى نوع

---

[1] لويجى براندلو(١٨٦٧-١٩٣٦)مؤلف ايطالى عرف بكتاباته ذات الطابع الفلسفى فى مجال الدراما، خاصة فكرته المحورية بأن الحقيقة لا يمكن معرفتها، وأنها تختلف باختلاف الناس، وأننا فى حياتنا اليومية نرتدى أقنعة لا تعبر عن حقيقة ما بداخلنا.أهم أعماله:ست شخصيات تبحث عن مؤلف١٩٢١(المترجم)

تطهرى من النشاط ، أو بمعنى آخر مدعوون لأن نفكر مرة اخرى أقـول إننا بعيدون عن صراع الأفكار والادراكات الحسية والعواطف التـى تشـكل حياتنا على وجه الحقيقة ، بما فى ذلك المعرفة "الخالصة". لقد كـان لليونـان القدامى مؤسسة أفرزت لهم المواجهة المطلوبة – الدراما. لقد رفض أفلاطون الدراما ومن ثم ساهم فى النزاع الدائر حول الألفاظ الذى ما زال يؤثـر فـى أجزاء كثيرة من ثقافتنا.

وثمة عيوب عديدة فى المحاورات الواردة فى هذا الكتاب. وينطبـق هذا الوصف بصفة خاصة على المحاورة الثانية. فهى ليسـت فـى الحقيقـة محاورة وإنما خطبة ساخرة موجهة إلى ضحايا عـاجزين بائسـين. تـدور موضوعاتها حول مفهوم الأصالة (التى سـخرت منهـا) والالـتزام (الـذى رفضته) ، وغموض المصطلحات الذى يقوض أى التزام ثم جهل الخـبراء. وينبغى ألا يساء فهم استخدامى لأمثلة من مجال التنجيم. فـالتنجيم يصيبنـى بملل شديد. ولكن العديد من العلماء هاجموا التنجيم ، ومن بينهم الحـاصلين على جوائز نوبل ، دون تقديم براهين ، وإنما ببساطة بالتكشير عـن هيمنـة السلطة ومن ثم فقد كان فى حاجة إلى دفاع. ولقد أحرز الطب بعض التقـدم منذ الوقت الذى كتبت فيه تلك المحاورة غير أننا ما زلنا لا نعرف تـأثيرات الطب الغربى (إذا كان هناك مثل هذا النسق الوحيد الذى أشك فى وجـوده) مقارنة بغيره من الأنظمة الطبية الأخرى. فكل ما لدينا هو مجرد أدلة كلامية نظرية متواترة فى مجالات طبية محدودة ، وليست لدينا وجهة نظـر كليـة شاملة. وهكذا يمكننا أن نقول ماذا يفعل الطب الغربى ؛ نحن لا يمكننا القـول بتفوقه على كل أنظمة الطب الأخرى. وربما تكون المحاورة الأولـى هـى أفضل المحاورات. فهى صورة لما يحدث فى المحاضرات التى ألقيها عـن بركلى Berkeley ؛ وليس هناك أوجه تشابه كبيرة بينى وبين الدكتور كـول (اسم الأستاذ المحاضر فى المحاورة الأولى) وإن كانت بعـض شـخصيات المحاورة (التى لم تتحدد بنفس الأسماء) هى رسالة عرفان وشكر لبعـض طلابى المتميزين.

والمحاورات فلسفية الطابع ولكن بالمعنى العام غير المتخصص لهذه الكلمة. ويمكن حتى أن نقول أنها هدمية deconstructionist ، على الرغـم من أن مرشدى فى ذلك كـان نسـتروى Nestroy (كمـا يقـرأه كـارل كراوس Karl Kraus)، وليس دريدا Derrida . وفى مقابلة مع الصحيفـة الايطالية Repubblica سألت ماذا تعتقد فى التطورات الراهنة فـى آوربـا الشرقية وما الذى يمكن للفلسفة أن تقوله فى ذلك ؟ ربما تلقى إجابتى على هذا السؤال قليلا من الضوء على اتجاهى الفكرى. فقد قلت " إننا هنا أمام سؤالين مختلفين كل الاختلاف ". السؤال الأول موجه إلى مخلوقات إنسانية حية ذات فكر ومشاعر ، وتحيزات ، وغباء ، تتباين زيادة ونقصانا: أى أنها موجهـة لى. أما السؤال الثانى فهو موجه إلى وهم لا وجود له ، أو إلى وحش مجرد، هو "الفلسفة". إن الفلسفة لا ترقى عند مقارنتها بالعلم أن تكون وحدة واحـدة. فهناك مدارس فلسفية لا تعرف إلا أقل القليل عن بعضها البعض ، بل هـى تحارب وتمقت بعضها البعض. وبعض هذه المدارس ، كالتجريبية المنطقيـة مثلا ، لم تتعرض تقريبا للمشكلات الراهنة ؛ وهى اتجاهات لم يكن ليسـعدها كثيرا زيادة المشاعر الدينية التى تصاحب التطورات الراهنة (يعتبر الدين فى بعض دول أمريكا اللاتينية فى طليعة معركة التحرر). بينما يكـون لبعـض الاتجاهات الأخرى ، كالهيجيلين مثلا ، مقالات مطولة فى وصف الأحـداث والتغيرات الجذرية وليس من شك فى أنهم سيبدأون هذه الأيام فـى عـزف نغماتهم دون معرفة مدى تأثير هذه الكتابات. ومن النادر أيضا وجود علاقـة وثيقة بين فلسفة أى شخص وسلوكه (سلوكها) السياسى. لقد كـان فريجـة Frege مفكرا لامعا فى موضوعات المنطق وأسس الرياضيـات - بينمـا جاءت الجوانب السياسية التى ضمنها يومياته بدائية سـاذجة. وهنـا تكمـن المشكلة ؛ فالأحداث التى تقع الآن فى دول أوربا الشرقية ، على سبيل المثال، وتقع أيضا ، بصورة أقل وضوحا ، فى أجزاء أخرى من العـالم ، وبصفـة عامة كل الأحداث التى تشمل فى وجودها العنصر البشرى تسـتعصى علـى الخطط الفكرية - فكل واحد منا أمامه تحدى ، ومطـالب أن يجابـه هـذا

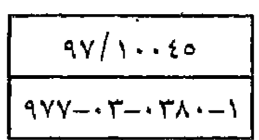
التحدى. فإذا كان الشخص الذى يواجه التحدى تغلب عليه النزعة الإنسانية ، والحب ، وعدم الأنانية فإن قدرا من المعرفة التاريخية والفلسفية والسياسية وحتى الفيزياء الأساسية (كما فى حالة زاخاروف!Sakharov) قد يكون مفيدا له ، لأن هذا الشخص ربما يطبق هذه المعرفة بطريقة إنسانية. وأنا أقول "ربما" – لأن بعضا من الفضلاء سقطوا فى براثن فلسفات عفنة وفسروا أفعالهم بطريقة مضللة وخطيرة. وأحد الأمثلة على ذلك هو Czeslaw Milos، الذى ناقشت وجهة نظره فى كتابى "وداعا للعقل" Farewell to Reason.

ومثال آخر على ذلك عالم فيزياء الفلك والمنشق الصينى "فانج ليزهى" Fang Lizhi ، فهذا الرجل يحاول تبرير نضاله من أجل الحرية باللجوء إلى استخدام مقولة الحقوق العالمية الشاملة التى لا تضع اعتبارا " للجنس ، أو اللغة ، أو الدين أو المعتقدات الأخرى". وهو يقول أن الكون الفيزيقى يخضع "لمبدأ كوزمولوجى واحد" ـــ فكل مكان واتجاه في الكون يكافئ مكان واتجاه آخر ؛ ومن هنا يجب أن ننطبق نفس الأمر ، كما يقول ، على عالم الأخلاق. وهو يعود بهذا التشبيه من جديد إلى التوجه القديم فى العولمة ونحن ندرك هنا بوضوح إلى أين يقودنا مثل هذا التوجه. فنحن إذا "تخلينا" ، مثلا ، عن الخصائص الجنسية المحددة لملامح الوجه الإنسانى، وإذا لم نأبه لنغمة الأصوات التى تنبثق من الفم ، ولا للإيماءات الثقافية الخاصة المصاحبة للحديث، فلن يكون حديثنا منصبا على بشر أحياء ، وإنما على كائن خرافى لا يتمتع بالحرية أو الحياة. والسؤال هنا هو ما العلاقة بين الكون الفيزيائى والأخلاق ؟ لنفترض مع الغنوصيين Gnostics أن الكون سجن ، هل لنا عندئذ أن نكيف أخلاقنا مع خصائصه التى تشبه السجن؟ حقا ، الغنوصية ليست منتشرة الآن – ولكن الاكتشافات الحديثة تشير أيضا إلى أن "المبدأ الكوزمولوجى" قد يصبح قريبا أمرا ينتمى إلى الماضى. هل لنا إذا حدث ذلك أن نغير أخلاقنا؟ نادرا ما يصادف الشخص المدرك الحساس فلسفة معقولة ذات معنى يستخدمها بعد ذلك بطريقة إنسانية. إن أحد الأمثلة

القليلة على ذلك تتمثل في فاسلاف هافل[1] Vaclav Havel الذى يبين لنا بصورة جلية أن التطور ليس موجها لتحدى "الفلسفة" ، وإنما موجه لتحدى كل واحد فينا. "فالفلسفة" باعتبارها نشاطا محددا متجانسا أمر نادر الوجود شأنها فى ذلك شأن "العلم". فنحن نمتلك الكلمات ، بل وحتى التصورات ، ولكن الوجود الإنسانى لا يظهر أثرا للحدود التى تتضمنها تلك التصورات.

---

[1] فاسلاف هافل(١٩٣٦-٠٠٠) كاتب مسرحى وأحد دعاة حقوق الانسان التشيك. من أهم أعماله المسرحية: حفلة الحديقة(١٩٦٣) ، أصبح رئيسا لتشيكوسلوفاكيا عام ١٩٩٣.(المترجم)



٩٧/١٠٠٤٥
٩٧٧-٠٣-٠٣٨٠-١